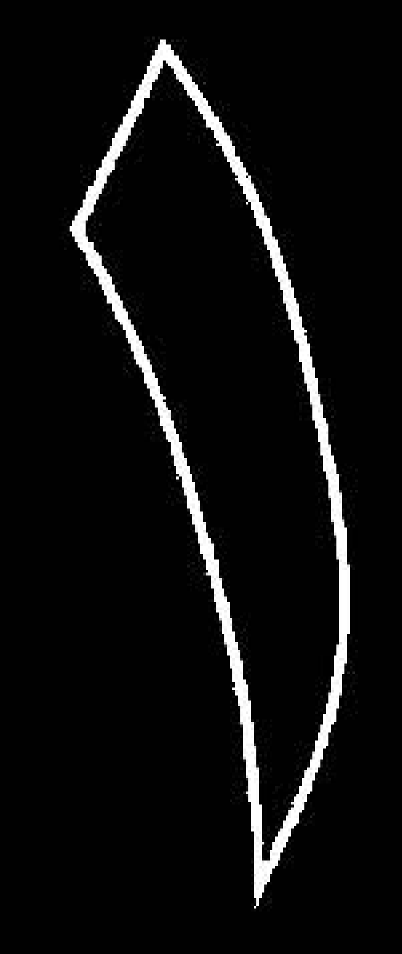
عارف تامر

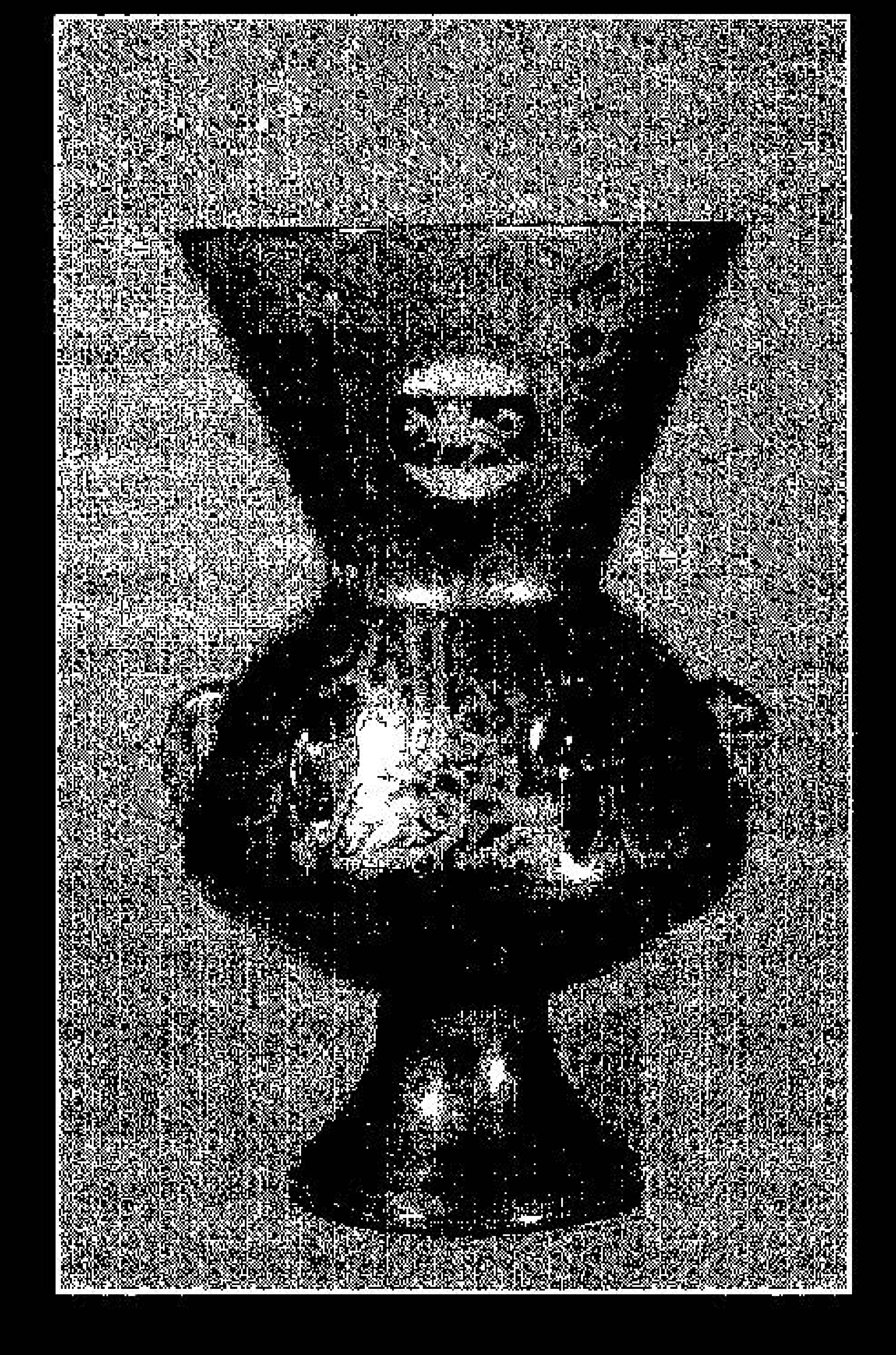


تاريخ الإسماعيلية



١

الدعوة والعقيدة



عارف تامر

تاريخ الإسماعيليّة

١

الدعوة والعقيدة



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

THE ISMAILI HISTORY – 1 –

The Doctrine

BY

AREF TAMER

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Tamer, Aref
The Ismaili History
The Doctrine
I. Title
297.20422

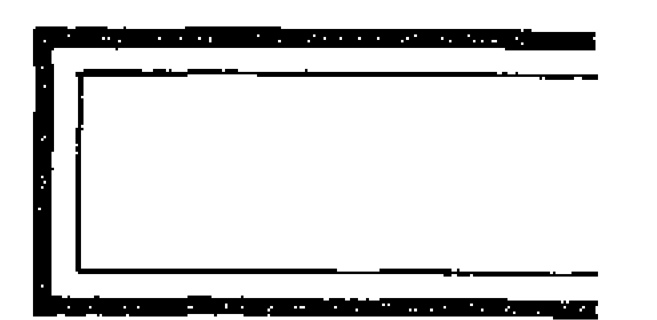
ISBN for the complete collection of 4 volumes
1855130599
ISBN for this volume 1855130645
Vol 2 – ISBN 1855130696
Vol 3 – ISBN 1855130742
Vol 4 – ISBN 1855130793

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١

إلى
من كان لي أباً ومربياً ومعلّماً
إلى أبي
«الأمير تامر العلي»
الذي نفحني بمبدأ حبّ الناس وخدمة الإنسانية.

«عـارف»

محتويات الكتاب



تصدير

ينتمي الإسماعيليون إلى مذهب الشيعة، أحد مذهبي الإسلام الرئيسيين، علماً بأن السنّة هي المذهب الآخر. ومن الممكن تاريخ ظهور هذين المذهبين في الإسلام بالفترة التي اعقبت مباشرة وفاة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، عندما واجهت الأمة المسلمة الناشئة أزمة الخلافة. فقد بدأت في الظهور طائفة متنوعة من وجهات النظر المتعلقة بطبيعة الخلافة، واستمر ذلك حتى العصر العباسي عندما تبلورت تلك الآراء في نظرية بسطها المؤرخون وفقهاء الشرع وعلماء الكلام. غير انه كان هناك منذ البداية فرق واضح في الآراء حول هذا الموضوع بين مناصري سلطة عليّ الذين عُرفوا فيما بعد باسم الشيعة، وبين تلك الجماعات التي انتهى امرها إلى التجمع ليتالف منهم اهل السنة، مذهب أكثرية المسلمين.

فوفقاً لراي اهل السنة، كما عبر عنه في النهاية فقهاء الشرع وعلماء الكلام على السواء، كان نظام الخلافة يضم جميع الوظائف التي تتعلق من جهة بالحفاظ على شريعة الإسلام وتطبيقها، وتتعلق من جهة اخرى بتسيير امور الدولة وتدبير شؤون المسلمين. أما مهمة تطوير الشريعة استناداً إلى القرآن الكريم وسنة الرسول عليه السلام وعدد آخر من المعايير الثانوية، فقد ترك أمرها للعلماء. ويتمثل رأي أهل السنة في جوهره في أن الوحي الذي أنزل على النبي وانتهى بوفاته، كفيل بهداية الأمة، وحسب العلماء ان يوضحوه ويشرحوه وأن يستنبطوا القواعد المناسبة. وأما الخليفة، الذي تنتخبه الأمة من حيث المبدأ، فينهض بمسؤولية تسيير دولة تُصان فيها وتُنشر مبادىء الإسلام وأعرافه.

ومن جهة أخرى، راى مذهب الشيعة أنه ولئن كان الوحي قد توقف بموت النبي (ص)، فقد ظلت قائمة حاجة أمة المسلمين إلى الهداية الروحية في شكل تفسير متواصل لجوهر الرسالة الإسلامية. ويعود أمر الهداية إلى إمام الزمان وحده. وأول إمام هو علي رضي الله عنه، زوج ابنة النبي، الذي كان النبي قد سمّاه في غدير خمّ خليفة له؛ كما كان

النبي قد قال إن علياً كان له ما كان هارون لموسى عليهما السلام. ووفقاً لراي الشيعة تظل الإمامة، أي قيادة الامة، مستمرة بالوراثة من خلال عليّ وفاطمة رضي الله عنهما؛ علماً بأن إمام الزمان له حق مطلق في تعيين خليفته بالنصّ من بين أي من أخلافه الذكور، أبناء كانوا أم أحفاداً.

وبمرور الزمن، انقسم كل من الشيعة والسنّة إلى مذاهب فرعية وطوائف متباينة.

ويشكل الإسماعيليون ثاني أكبر طائفة من المسلمين الشيعة. وقد انفصلوا عن مسلمي الشيعة الإثني عشريين في سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥ م، عندما اختلفوا معهم على من يخلف الإمام جعفر الصادق، حفيد الإمام علي كرم الله وجهه فقد كرس الإثنا عشريون ولاءهم للابن الأصغر للإمام جعفر الصادق، وهو موسى الكاظم. وهم يؤمنون بإثني عشر إماماً أولهم عليّ كرم الله وجهه، وآخرهم غائب حسب اعتقادهم. ويشكل الإثني عشريون، في ظل قيادة المجتهدين، أكبر طائفة من مسلمي الشيعة واغلبية سكان إيران.

وكرس الإسماعيليون ولاءهم للابن الأكبر للإمام جعفر الصادق، وهو اسماعيل الذي سموا على اسمه. وظل الإسماعيليون على امتداد تاريخهم يعيشون في ظل قيادة إمام تولى منصبه بالوراثة. ويتولى الإمامة حالياً سمو الأمير كريم أغاخان وهو الإمام التاسع والأربعون، وهو من سلالة النبي عليه الصلاة والسلام.

وعلى الرغم مما بين مذهبي الإسلام أهل السنة والشيعة، من خلافات على مفهومي السلطة والزعامة، فإن أصحاب المذهبين وما تفرّع عنهما من مذاهب، يشتركون معاً في المعتقدات الأساسية التي تشد المسلمين كافة بعضهم إلى بعض.

فكلا المذهبين يؤمن بأن القرآن هو آخر ما نزّل الله سبحانه وتعالى من وحي للبشر جميعاً، من اجل هداية المؤمنين في كل عصر وإنارة افئدتهم وفقاً لما أوتوا من قوة فكر شكّلتها البيئة التي يعيشون فيها. والقرآن ذاته، بإعلائه شأن عقلانية الإنسان، وبآياته التي تعبّر عن رسالاتها مجازاً أو قصصاً أو رمزاً، يفتح أمام المؤمنين آفاقاً تتيح لهم اشتقاق افكار جديدة يستعينون بها في تلبية مقتضيات الزمان والكون. لذلك فإن حكماء الأمة ظلوا دائماً على حذر من جمود الفكر.

ويرجّع التاريخ أصداء القوة الهائلة التي تنطوي عليها روح الرسالة الإسلامية، وهي رسالة تسمو على الحدود الضيقة للتفسيرات الحرفية التي تسعى إلى تثبيت فهم المرء للدين في سياقات زمانية مكانية معينة. لذلك فإن علماء كل عصر واتقياءه سعوا إلى فهم متجدد للرسالة مع تطبيق أساليب للتفسير اقرّ مجتمعهم شرعيتها.

وإن قوة القرآن والأحاديث النبوية باعتبارها مصدر الإلهام النهائي للمسلمين الذين يساورهم القلق على ما سيؤول إليه وضع الأمة في عالم سريع التحول، هذه القوة صوّرها سمو الأغاخان تصويراً بليغاً امام مؤتمر دولي عن سيرة الرسول عقد في كراتشي في مارس/ آذار سنة ١٩٧٦، وشارك فيه باحثون ومفكرون مسلمون. قال سموّه في خطابه الرئيسي:

«في مواجهة هذا العالم المتغير، الذي كان يوماً بالنسبة إلينا عالماً فسيح الأرجاء ولا يعدو اليوم أن يكون جزيرة مكتظة بساكنيها، وإذ يجابهنا تحد أساسي بأن نفهم زماننا، ويحاصرنا أسطول غريب من سفن ثقافية وايديولوجية افلتت من مراقئها، اجدني اتساءل. هل لدينا فهم واضح وراسخ ودقيق لما سيكون عليه المجتمع الإسلامي في الأزمنة المقبلة؟ وإذا كان الجواب، كما أعتقد، يكتنفه الشك، فأنّى لنا أن نستجليه إن لم يكن في القرآن الكريم وفي سيرة خاتم الأنبياء؟

إن حياة الرسول عليه السلام تمدنا بكل ما نحتاجه من مبادىء رائدة لحل مشكلتنا هذه بأقصى قدر من النجاح يؤهلنا له ذكاء الإنسان وفطنته. فقدوته التي سنها بكماله وولائه، بأمانته وسخائه، بجهده ووقته، وبرحمته بالفقراء والضعفاء والمرضى، وباخلاصه في صداقته، وبتواضعه عندما يحالفه التوفيق، وبشهامته عند النصر، وببساطته، وبحكمته التي مكّنته من رؤية حلول جديدة لمشكلات لم تكن لتحل بالأساليب التقليدية، وذلك دون النيل من المفاهيم الأساسية للإسلام ـ ما من شك في أن هذه كلها أسس ومبادىء لا بد أن تمكّننا ـ إن نحن فهمناها على حقيقتها وفسرناها بصدق واخلاص ـ من أن ندرك ما ينبغي أن يكون عليه مجتمع إسلامي ديناميكي وحديث حقاً في السنين القادمة».

وفي مذهب الشيعة، تنبني ممارسة شعائر الدين وسلوك المرء في حياته اليومية على اعطاء عقل الإنسان دوراً صادقاً ينهض به بتوجيه من إمام الزمان الذي يزود اتباعه بما يلزمهم من قيادة لخوض غمار عملية التغيير الحاصل في العلاقة بين الزمان والمكان وممارسة شعائر الدين. فالإمام يساعد المؤمنين على بناء جسر بين الدين وبين مجتمع متطور، جسر تثبّت أركانه مبادىء أخلاق الإسلام.

ومن النتائج الموفّقة في تاريخ الإيمان بالجدوى العالمية لرسالة الإسلام، القدرة الذاتية للتقاليد الإسلامية على التعايش المبدع مع البيئة المتطورة في مجتمعات متعددة وثقافات وأماكن ولغات متنوعة. وأهل السنة وأهل الشيعة يقبلان كلاهما ـ أن التنوع البالغ في الثقافات والممارسات

والعادات والتقاليد التي تتخلل أرجاء الأمة طولاً وعرضاً هو مصدر من مصادر قوتهم.

إن هذا التطور في الزمان والمكان قد أفضى إلى إثراء متبادل للفكر والثقافة في الإسلام وما جاوره من تقاليد. فقد ساعد على ازدهار طائفة متنوعة من الاشكال الأدبية والتعبّدية والفلسفية التي اتخذت وسيلة للتعبير عن المذهب والعقيدة. وما دام الجوهر لم يضار، فقد حظي هذا التنوع الخصب بالاحترام باعتباره مرآة تنعكس عليها حيوية التراث. وقد اثبتت التجارب أن المحاولات المتزمّتة لاقتلاع الزخارف الثقافية من ممارسة شعائر الدين او من تعابيره أو أعرافه، لا تسفر إلا عن تغريب المؤمنين. ذلك أنه ما من دين يمكن أن يمارس في فراغ اجتماعي أو ثقافي.

وفي الشيعة يتمثل دور إمام الزمان في الأخذ بيد المؤمنين نحو الجوهر والابتعاد بهم تدريجياً عن الالتباسات التاريخية وعن الشوائب الثقافية الدخيلة التي اضفيت على ممارسة التراث أو الافصاح عنه ولكن طال عليها الأمد ففقدت جدواها كوثار ثقافي. ويتمثل التفويض الأساسي لإمام الزمان في وضع الشريعة في سياقها الصحيح من حيث الزمان والمكان وفي القيام بالعملية المصاحبة، عملية دعم اركان الدين.

ومؤدى ذلك أن كلا من السنة والشيعة يمثّل تفسيراً مشروعاً للرسالة الإسلامية، وكلا منهما يوفر منظوراً إسلامياً يرى من خلاله العالم الذي يستلهم هذه الرسالة.

وفي قلب هذه الرؤية يَمْثُل الإنسان الفرد الذي أوتي عقلاً يسعى به إلى معرفة أصوله، ويتأمل فيما يحيط به، ويسبر أغوار قوى الطبيعة التي سخّرها الله له والعقل الذكي يحتفي بألوهية خالقه ويفوض أمره إليه، ويتوخى العدل في رعاية مخلوقات الله، ويكبح جماح نفسه في سبيل إخاء بشري أسّس على التوافق والسلام والتسامح، فالغرض من المجتمع في الإسلام هو مساعدة الفرد على أن يحقق كامل امكانات شخصيته. وعلى الرغم من انحرافات تقع بين الحين والحين، فإن للتاريخ معنى من حيث انه يشكّل تأكيداً للسعي نحو ذلك المثل الأعلى الذي يجعل من الإنسان أفضل مخلوقات الله على ما جاء في القرآن الكريم.

يقول النبي محمد عليه الصلاة والسلام وأيضاً عليّ كرم الله وجهه «من عرف نفسه فقد عرف ربه». إن في خلق السماوات والأرض وفي ظواهر الطبيعة لآيات لأولي الألباب، آيات لأناس يفهمون ويسبحون بحمد ربهم ويتأملون عجائب الخلق بأفئدتهم وألبابهم.

وحَثُّ الإنسان على التامل والتفكر كثير الورود في القرآن.

وعلى ذلك فإن الحق في الاجتهاد الشخصي أمر كرسه الإسلام. وقد كرس

ولاءه لهذا الاجتهاد الفردي شيعة عليّ والمذاهب الباطنية في الشيعة والسنة على السواء. وتقع على كاهل إمام الزمان مسؤولية صون هذا الحق وتسخيره للسمو بنفس المؤمن ولإقامة نظام اجتماعي يناسب ظروف الزمان والمكان، الأمر الذي يتيح للفرد أن يحيا حياة مليئة في نطاق مبادىء الدين وأخلاقياته.

والتاريخ، على الرغم من صروف الأيام، إنما هو تفتح لرؤية الكون كما يلهمها الإسلام، ورائد هذا التفتح في مذهب الشيعة الإسلامية هو إمام الزمان الذي ورث سلطة النبي وغدا أميناً على تراثه.

وقد كان الأئمة الإسماعيليون، على امتداد فترات طويلة من تاريخهم، حكاماً زمنيين أيضاً. فقد شهدت خلافة الفاطميين في مصر ازدهاراً رائعاً للحضارة يعززه اهتمام بالتعليم باعتباره مفتاح تنمية عقل الإنسان. واجتذب الجامع الأزهر، الذي أسسه الفاطميون فكان واحداً من أقدم جامعات العالم، علماء مرموقين من شتى الأرجاء بصرف النظر عن عقائدهم أو أجناسهم. ويشير لويس ماسينيون إلى هذه الفترة بوصفها «المائة عام الإسماعيلية للإسلام». وكان هذا العصر مصدر إلهام للكتّاب والعلماء والفنانين والمعماريين وكبار رجال التجارة والصناعة، وكان هؤلاء جميعاً شركاء في جهد جماعي يستهدف تحسين نوعية الحياة. وأخيراً، آل عهد الفاطميين في مصر إلى نهايته وقد مزّقته انقسامات عميقة على إثر نزاع أسري فعجز عن مقاومة أعداء أقوياء وفدوا من الخارج.

وفي تلك الأثناء كان الحكم الإسماعيلي قد رسّخ أقدامه في المرتفعات الشمالية لبلاد فارس. ومن هناك شرع الإسماعيليون في انشاء دولة قوية متماسكة تضم شبكة من المعاقل المتناثرة على مساحة تمتد من شرقي فارس إلى سورية. وعلى الرغم من انشغالها بمقتضيات البقاء في مواجهة قوى عارمة، لم تمس الدولة الإسماعيلية حق الفرد في الاجتهاد، وظلت أراضيها ملاذاً آمناً يستهوي قلوب الباحثين والعلماء أياً كانت عقيدتهم. وبعد عهد حافل بالأحداث دام ١٦٦ عاماً، اجتاحت الدولة جحافلُ المغول الذين توجهوا بعد ذلك إلى عاصمة العباسيين في بغداد فعاثوا فيها تدميراً.

وعلى الرغم من هذه النكسات المفجعة ومن خطر الاضطهاد الذي ظل يلاحق الإسماعيليين، تمكنت دولتهم من صون قدرتها على التكيف بتوجيه أئمة تعاقبوا على تولي مقاليد حكمها بالوراثة. وأنشئت مراكز نشاط جديدة في شبه القارة الهندية وفي أفغانستان والمناطق الجبلية من هندوكوش وأعالي نهر الأكسوس، وفي عدد من مناطق آسيا الوسطى تقع الآن داخل حدود الاتحاد السوفياتي والصين.

ويتراوح عدد أفراد الطائفة الإسماعيلية اليوم بين ١٢ و١٥ مليون نسمة يقيمون في أكثر من ٢٥ بلداً وينتمون إلى تشكيلة واسعة من الثقافات واللغات والأجناس والجنسيات.

وقد حققت المجتمعات الإسماعيلية المختلفة، في ظل قيادة الإمام الحالي سمو الأمير كريم أغاخان الرابع، وسلفه السير سلطان محمد شاه أغاخان الثالث، شعوراً متجدداً بالوحدة والتلاحم في بنية مؤسسية متينة تدعمها جهود متواصلة من الانماء والتطوير لتحقيق التقدم والازدهار لأعضاء الطائفة ومواطنيهم في شتى بلاد إقامتهم.

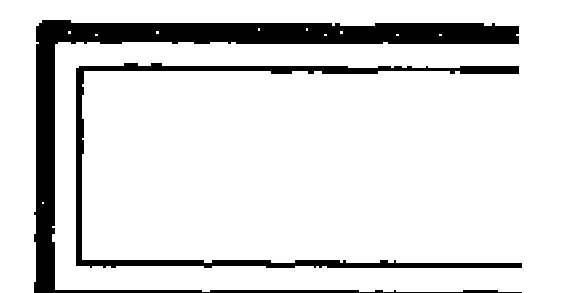
وحتى عهد قريب، كانت دراسة تاريخ الإسماعيليين ومذهبهم تعاني من روايات معادية ألّف معظمها أعداءالطائفة وغيرهم ممن نسجوا على منوالهم. ويذكر من هؤلاء مؤرخو العصور الوسطى ومن عاصروهم من علماءالكلام ومروجي البدع وهواة الجدل، وكذلك مؤرخو الأحداث الأوروبيون المعاصرون للصليبيين والذين روّجوا لحكايات من بنات أفكارهم. ومن حسن الطالع أن اكتشف مؤخراً مؤلفات اسماعيلية أصيلة كانت محفوظة في الهند وايران وسورية واليمن فساعدت على بعث الحياة في الدراسات الإسماعيلية وفضح ما في كثير من الروايات السابقة من تشويه وتزييف.

ومع ذلك فإن هواة الجدل ما زالوا مصرّين على نهجهم: ولا شك انهم سيظلون كذلك دائماً. وفي حين أن انتماءاتهم يكتنفها الإبهام والغموض، فإن حافزهم إلى ذلك هو بث روح الفرقة وعدم الاستقرار في أمة تعاني بالفعل من الاضطراب وهي في أمس الحاجة، أولاً وفوق كل شيء، إلى الوحدة والسلام والانسجام لكي تتمكن من مواجهة تحديات القرن الوشيك وما يليه من قرون بثقة وثبات إقدام. وهذا الكتاب هو محاولة للإسهام فيما يبذل في الوقت الحاضر من جهود بحثية جادة تسعى إلى بلوغ الأصالة.

الدكتور فاقير محمد هونزاي
الاستاذ بلبل شاه

باحثان في مؤسسة
الدراسات الاسماعيلية في لندن



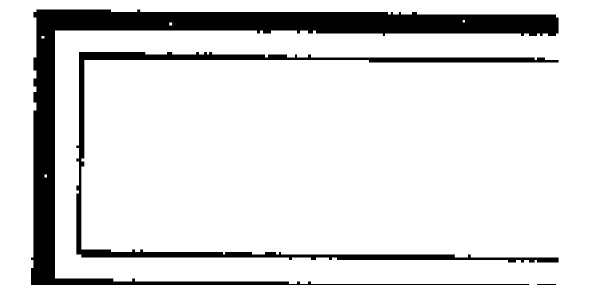


أمّا بعد، فإنه لمّا يضاعف عزيمتنا كباحثين، ويغشي قلوبنا بالطمأنينة، كطلاّب علم، أن نجد الإنسان العـربي في عصرنا هذا، وقد اخذ يجدّ في طلب العلم، ويسعى في دروب التطور، غير عابىء إلاّ بأهداف يقصدها وقصاراه التحرر من الأوهام السائدة والرواسب المتحجّرة حتى يصل إلى المعرفة المجرّدة والحقيقة الناصعة.

ولعمري فإن هذا الإنسان لقمين بتشجيعنا وحدبنا ومن حقه علينا أن نكفل له حرية التفكير والسعي والعصمة من الأقدار الجائرة فلا تستبد به ومن الأساطير الرثّة فلا تسد عليه الآفاق.

هذا ولا أعرف أعظم من الحقيقة هدية تقدّم إلى طالب علم، ولا أبهى من النور يضاء أمام خابط في ليل دامس ولا أجلّ وأشرف من الواقع وقد بزغ فهتك حجب العصور.

المؤلف



مقدمة

عندما عزمت على تأليف هذا الكتاب التاريخي وضعت نصب عينيّ هدفاً، هو الخروج به من المجال الضيق إلى الفضاء الرحيب، فاجعله ، بذلك، مرجعاً تاريخياً عاماً أو دائرة معارف، تضمّ كل ما يود طالب العلم الإحاطة بخبره من تاريخ الإسماعيلية. ولكن كان عليّ - والحال هذه - أن اذكر حقيقة أن هكذا أعمال ينوء بها الفرد الواحد فيتضافر عليها، ويقوم بامرها، عدة من رجال الاختصاص، بدعم ومؤازرة من دول او هيئات او مؤسسات على علاقة مباشرة بالموضوع. ولكنني كنت أعلم ايضاً أن من شأن «الدعم الرسمي أو شبه الرسمي» - إن جاء - أن يغلّ يد الباحث المؤرّخ فيجرح حياده ويلزمه بآراء ومواقف لا يراها ولا يقفها، فما كان منّي إلا الخروج إلى حريتي الفكرية، مضطلعاً بالعمل الشاق هذا وحدي، متوكلاً على الله ملهم الصواب والعاصم من الزلل.

والإسماعيلية، موضوع، استهوى المؤرخين والباحثين، قديمهم ومعاصرهم، فكتبوا وافاضوا، فعدل بعضهم واجحف الآخر، ووفّق نفر وخاب نفر، وتعصب قوم لأهواء قديمة،وضلّت جماعة في غامض النصوص ومبهمها، ولكن آثار هؤلاء جميعاً، ليس في متناول طالب العلم او الباحث عن الحقيقة، بل إن جمعها بات ضرباً من المستحيل، فكان لا بد من وضع هذا الكتاب المؤلف من اربعة أجزاء، تبسط تاريخ الإسماعيلية وعقائدها أمام الباحث على أيسر سبيل وحسبي من ذلك أن اكون قد أدّيت واجب العلم وواجب البلاد بخدمة تراثنا وتاريخنا، وواجب الأخوة من طلّاب العلم والمعرفة والمنقبين عن الحقيقة دون هوادة.

عارف تامر

سلمية ١٩٨٨

الاسماعيلية في المصادر العربية

كتب الكثير من المؤرخين في الاسماعيلية وتاريخها، ولكن ندر أن تيسّر لأحد منهم، اختراق حجب الستر والتقية، فيقف على نصوصها وينزّه قلمه عن التعصب والأخذ بأقوال المغرضين من المناوئين للدعوة الاسماعيلية كبني العبّاس وسواهم. ولعل ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) هو أول من كتب عن الاسماعيلية وتبعه غريب بن سعيد القرطبي (ت ٣٧٠ هـ) فذيّل تاريخ الطبري واستعرض ما فيه وزاد عليه ما كتبه عن قرامطة البحرين ولكن دون ربط بين الحركتين ودون تعريف بهما، فجاء ما كتبه ضحلاً غير ذي نفع.

أمّا المسعودي (ت ٣٤٤ هـ) فلقد أتى في كتابيه **«التنبيه والاشراف»** و **«مروج الذهب»** على ذكر الاسماعيلية ولكن الرجل كان أسير خياله واستنتاجاته وخصوصاً فيما تعلّق بقرامطة المشرق وفاطميي المغرب. وأمّا حمزة الأصفهاني (ت ٣٥٠ هـ) فلقد قصر كلامه على نشاط الاسماعيلية العسكري دون تعرض لعقيدتهم بشيء.

وكتب هلال الصابيء (ت ٤٤٨ هـ) ومسكويه (ت ٤٢١ هـ) فأفاضا وأفادا وكتب ابن رزام ولكنه تخيّل وتقوّل فجاء كلامه بعيداً يجانب الحق والحقيقة وتبعه في ذلك نظام الملك (ت ١٠٩٢ م) وابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) وأبو الفداء (ت ١٣٣١ م) ورشيد الدين (ت ١٣١٨ م) فحذوا حذوه أسلوباً ومضموناً. وأمّا شهاب الدين النويري (ت ١٣٣٢ م) فلقد استقى ما عنده ـ كما إدعى ـ من ثقاة وكتب بتجرد وعن فهم وخصوصاً عن عهد «الستر» في «سلمية» وعن نسب الفاطميين، ولكن قد يكون المقريزي (ت ١٤٤١ م) أكثر المؤرخين توفراً على الحقيقة ودقة وقصداً في القول وأخصّ بالثناء

ما جاء في خططه وفي اتعاظ الحنفاء عن الفاطميين في المغرب ومصر والزمن السابق عليهما. وأمّا المتكلّم الكبير أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ) فلم يتوان عن التفصيل في كلامه عن الاسماعيلية، تفصيلاً غنياً مفيداً، على رغم ما بينه وبينها من بعد عقائدي. وكتب الملطي (ت ٣٧٧ هـ) في الاسماعيلية ولكن كبير عنايته توجه للتفنيد والدحض وليس للعرض والشرح والايضاح.

أمّا أبو منصور البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) والشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) فلقد أسهما في الحديث وأخذا بقسط من التفصيل في ذكر المصادر وافر، وإلى هؤلاء جميعاً نضيف جمال الدين بن الجوزي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) الذي قدّم صورة عامة وموجزة للحركات الباطنية، ومحمد بن عبد العزيز الكشي (ت ٢٤٠ هـ) في كتابه «**معرفة أخبار الرجال**» وإن يكن ما كتبه هذا الأخير قد جاء دون تخطيط.

وكتب النجاشي (ت ٤٥٠ هـ) عن الاسماعيلية فأضاف جديداً وقرب الأمر إلى الأذهان، ومثله فعل النوبختي (ت ٩٩٢ م) في كتابه «**فرق الشيعة**» حيث تعرض للإسماعيلية بتجرد واعتدال ـ كما إدعى.

وإلى هؤلاء ثمّة أسماء كالاسترابادي وابن خلدون والسيوطي وابن القلانسي وابن النديم والنيسابوري وابن خلكان وابن حوقل وثابت ابن سنان وابن عذاري المراكشي، تعرّض أصحابها إلى موضوع الاسماعيلية وأجمعوا على اعتبارها من أعظم الحركات الفكرية التي انبثقت في العالم الإسلامي.

هذا ولا يجوز إغفال ذكر الأمير المختار عز الملك المسبحي صاحب كتاب «**أخبار مصر**» فهذا المؤرخ كما سيرد ذكره، قد عاش في ظل الدولة الفاطمية وكتب عنها بحياد المؤرخ ونزاهته، ومثله القاضي محمد بن سلامة الشافعي الذي عاصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وكتب «**المختار في الخطط والآثار**» فأفرد للاسماعيلية صفحات تميزت بالدراية والفهم العميق والاعتدال وقد اقتبس القلقشندي والمقريزي عنه بعضاً من أفكاره. كما لا يجوز إغفال ذكر ابن منجب الصيرفي (ت ٥٤٢ هـ) وكتابه «**الإشارة إلى من نال الوزارة**» وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) وكتابه «**رفع الأصر عن قضاة مصر**» ولا بيبرس المنصوري الداودار (ت ٧٢٥ هـ) ففي كتابه «**زبدة الفكرة**

في **تاريخ الهجرة»** كل شيء عن العقائد الاسماعيلية إلى جانب القضاء.

يبقى ذِكْرُ ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ) وكتابه **«أخبار مصر»**، وابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي وكتابيه **«الفخري في الآداب السلطانية»** و **«الدول الإسلامية»** وقد تطرق على صفحات كليهما إلى الاسماعيلية وذِكْرُ ابن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧ هـ) وكتابه **«المسالك والممالك»**، والماوردي (ت ٤٥٠ هـ) وقد خصص قسماً من كتابه للبحث في شؤون العهد الفاطمي، وابن إياس (ت ٩٣٠ هـ) وكتابه **«بدائع الزهور»** وابن تغري بردى (ت ٨٧٤ هـ) وكتابه **«النجوم الزاهرة»** وأخيراً من القرن الماضي علي باشا مبارك (ت ١٣١١ هـ وكتابه **«الخطط التوفيقية»**.

غير هؤلاء، كابن العديم وابن العبري وسواهما، فعددهم كبير وهم وإن اقتصروا في ذكرهم للإسماعيلية على إشارات عابرة، إلا أن كتاباتهم لم تخل من قيمة وفائدة.

المصادر العربية الحديثة

قد يكون الدكتور طه حسين، عميد الأدب العربي، والعلامة أحمد زكي باشا، ومحمد كرد علي من الأوائل الذين فتحوا باب البحث في الاسماعيلية على مصراعيه، في عصرنا هذا، وكانت رسائل أخوان الصفاء مادتهم الأساسية الأولى، ولكن أبحاثهم جاءت ضعيفة قوامها الاستنتاج، وهم معذورون فالمصادر الاسماعيلية لم تكن في متناول الباحثين في تلك الآونة.

تلا هؤلاء الدكتور حسن ابراهيم حسن، فكتب أقوم الكتب عن تاريخ الاسماعيلية والدولة الفاطمية ومثله فعل الدكتور محمد كامل حسين الذي اختص بالاسماعيلية وتوفّر على تدريسها في جامعة القاهرة وكتب ما أراه قمة في هذا الميدان حيث تبعه طه أحمد شرف ويحيى الخشاب والدكتور محمد مصطفى حلمي الذي تميَّز في كتاباته بفهم، للنصوص الفلسفية، عميق، كما كتب عن الاسماعيلية من الوجهة السياسية والاجتماعية عطية مشرفة فكان موضوعياً ومعتدلاً.

ومن هؤلاء، فلقد كتب عادل عوا ومحمد يحيى الهاشمي وجميل صليبا الذي أخطأ فنسب كتاب **«جامعة أخوان الصفاء»**

للمجريطي، وعباس عزاوي وعبد العـزيز الـدوري وعبد اللطيف الطيبـاوي وزكي نقـاش وكانوا جميعاً على جانب من الانصاف والفهم والتجرد الذي لا ينكر.

أمّا عبد الرحمن بدوي ومحمد عبد الله عنان فلقد جرفهما تيار التعصب الديني الذميم فانجرفا وجاء ما كتباه مليئاً بالسباب والشتم والافتراء، ودليلاً على الحقد والجهل والمحل والاستسلام إلى ما طواه الزمان من قديم الاحن والعداوات ونشرها والخروج على الأدب والعلم والنزاهة.

المصادر الاسماعيلية

النكبات المتتالية التي أحاقت بالمكتبات الاسماعيلية، كنكبة «سلمية» على يد القرامطة ونكبة مصر على يد صلاح الدين الأيوبي الذي أتلف مكتبة الفاطميين وكانت تضم ملايين المجلدات، ونكبة طرابلس الشام على يد الصليبيين الذين نهبوا مكتبة «آل عمّار» وأتلفوا ما لم يحملوه معهم إلى بلادهم وأخيراً نكبة «ألموت» التي أباد مكتبتها هولاكو، ناهيك بما فعله الأتراك بآثار الاسماعيليين في بلاد الشام، كل هذا يجعل من العسير القول عن عناية الاسماعيليين بالتاريخ، فما تبقّى من كتبهم في المكتبات الخاصة يوحي بأنهم قد قصروا اهتمامهم على الفلسفة والعلوم والآداب ولا أعرف سوى كتب قليلة العدد تَعْرُضُ للتاريخ ككتاب «**سيرة جعفر الحاجب**» التي نقل فيها مؤلّفها محمد اليماني وقائع انتقال عبدالله المهدي إلى المغرب وقيام الدولة الفاطمية وكتاب «**افتتاح الدعوة**» وكتاب «**المجالس والمسايرات**» للنعمان بن حيُّون المغربي الذي يؤرخ فيهما لفترة طويلة من تاريخ الدولة الفاطمية، وكتاب «**عيون الأخبار**» وكتاب «**نزهة الأفكار**» لإدريس عماد الدين وهما من المصادر الاسماعيلية القيّمة، وإلى هذا وذاك فثمّة مذكرات المؤيد في الدين، داعي الدعاة، التي أرّخت لفترة من عهد المستنصر بالله طويلة، وكتاب «**فصول واخبار**» لنور الدين أحمد وهو كتاب قيّم جداً وعندي منه نسخة مخطوطة فريدة ونادرة.

ثمّة أيضاً «**سيرة جوذر الكاتب**» التي كتبها رجل مغمور اسمه منصور الجوذري العزيزي وكان قد دخل في خدمة جوذر سنة ٣٥٠ هـ وصار ثقته وموضع سرّه حتى مات جوذر فاتصل بالخليفة المعزّ لدين الله فعينه مكان جوذر.

يقصّ هذا الكتاب سيرة جوذر الصقلّي الذي دخل في خدمة عبد الله المهدي بالله أول خلفاء الفاطميين في المغرب، وكيف أن المهدي أهداه إلى وليّ عهده القائم بأمر الله، فترسّخت أواصر الودّ والثقة بين القائم وبينه حتى أن القائم بأمر الله وكان بعد ولياً للعهد، استخلفه على قصره بمن فيه وما فيه عندما خرج إلى إحدى الحروب التي خاضها،

ثمّ لمّا توفي المهدي خصّ الخليفة القائم بأمر الله جوذراً دون سائر أهله ورجال الدعوة برتبة الوصاية على ولي العهد المنصور بالله وقد ظلّ الأمر سرّاً مدة ثلاثة اعوام حتى أذاعه القائم بأمر الله على الملأ. ويروي الكتاب كيف ارتفعت درجة جوذر في عهد القائم بأمر الله الذي أوكل إليه أمر بيت المال والنظر في خزائن الكساء وأسفره فيما بينه وبين الناس، فصار له من النفوذ والسلطان مما جعل الناس تهابه وتوقّره، ولكنه كان محبّاً للخير عطوفاً على الفقراء، والضعفاء والمحرومين، ثم لمّا توفي القائم بأمر الله كتم المنصور بالله الأمر فظلّ سرّاً بينه وبين جوذر فلقد مضى المنصور بالله في تلك الأيام إلى حرب الخوارج مستخلفاً جوذراً على دار الخلافة، حتى إذا عاد من الحرب نعى أباه، وأكرم جوذراً فأعتقه ولقّبه «مولى أمير المؤمنين» وأمره أن لا يكنّي أحداً في رسائله وأن لا يقدّم على اسمه اسم أحد من الناس إلاّ اسم الخليفة واسم ولي العهد، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولي عهده، إمعاناً منه في تكريمه.

ويروي الكتاب كيف مكث جوذر يتقلّب في نعمة أسياده حتى إذا أراد الانتقال إلى مصر للحاق بسيده الخليفة الفاطمي الرابع «المعزّ لدين الله» أدركته منيته سنة ٣٦٢ في مكان يدعى «مياسر» بالقرب من برقة.

هذا ما جاء في سيرة جوذر التي لا تنحصر أهميتها بالتأريخ لمرحلة أولى من تاريخ الفاطميين في المغرب أو بالترجمة إلى أحد رجال دولة الفاطميين، ممن أغفل المؤرخون ذكره، بل تتعدّى ذلك لتعرض خبر الانتفاضات العنيفة التي قامت في المغرب، وخبر العلاقة بين صقلية والدولة الفاطمية، فضلاً عن تقديم صورة لما كان يجري في البلاط الفاطمي آنذاك، فالكتاب يروي كيف طلب المنصور بالله إلى جوذر أن يراقب أبناء عمومته ويرصد تحركاتهم عندما توجه هو إلى حرب الخارجين على الدولة.

أمّا كتاب «**سيرة جعفر الحاجب**» فعلى سقم لغته وركاكتها فإنه يروي خبر انتقال عبد الله المهدي من سلمية إلى المغرب وقد رافقه المؤلف محمد اليماني في رحلته، وأما كتاب «**استتار الإمام**» ففيه ذكر أسماء العديد من الدعاة الذين عاشوا في «دور الستر» ويؤكد أن بعضهم أدرك قيام الدولة الفاطمية في المغرب كأبي غفير وأبي

سلامة وأبي الحسن الترمذي وجياد الخثعمي وأحمد بن الموصلي وأبي محمد الكوفي وغيرهم.

وأمّا كتاب «**فصول وأخبار**» فما زال مخطوطاً وفيه قضايا تتعلق بأدوار الأئمة ومراتبهم كانت خافية على المؤرخين.

المصادر الاسماعيلية الحديثة

يعتبر عبد الله المرتضى، أول اسماعيلي وضع كتاباً عن الاسماعيلية في عصرنا الحاضر وقد سمّاه «**الفلك الدوار في سماء الأئمة الأطهار**» وجاء بعده مصطفى غالب، فحقق وكتب العديد من الكتب الاسماعيلية وجلّها تميّز بالجهد الشاق.

أمّا محمد حسن الأعظمي فعلى رغم كل ما كتبه فإنه لم يفلح في تعريف الاسماعيلية وتقديم فكرة ذات غذاء فكري عنها، وأما حسين همذاني فكتابه ومباحثه عن تاريخ الاسماعيلية في اليمن من أقوم المصادر التاريخية ولا يمكن ان ننسى ابنه «عباس» هنا فلقد سار هذا على آثار أبيه.

أمّا آصف بن علي أصغر فيضي، فهذا العلامة لو لم يكن من أمره سوى أنه قدّم لنا كتاب «**دعائم الإسلام**» لكفاه ذلك فخراً، ومثل ذلك نقول في السيد زاهد علي الذي شرح وقدّم ديوان الشاعر ابن هانيء الأندلسي فدلل على تمكن من اللغة وتضلّع بالأدب والفلسفة. وأخيراً نشير إلى العديد من الأطروحات الجامعية والمقالات والمحاضرات التي كتبها طلاب اسماعيليون جاءت مفيدة ومدخلاً إلى المدينة الاسماعيلية.

المصادر الأجنبية والمستشرقون

بدأت الكتابة بلغات أجنبية عن الاسماعيلية، بالفعل، في مطلع هذا القرن، عندما نشر ستانيسلاس غويارد Stanislaus Guyard بعض مقتطفات عن اسماعيلية آسيا الوسطى، وعثر غريفّيني Eugenio Griffini سنة ١٩٠٥ م على عدد من مصنفات الاسماعيلية في اليمن وقد أجمل ذكرها في مقال عام ثم جاء دوزي Reihart Dozy وتوماس ارنولد Thomas Arnold وسيلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy وشارل ديفرميري Charles Defrémery ومامور برنس M. Prince وموريس برايس M. Price وبروكلمان Brockelmann ومينورسكي Minorsky وهودغسون Marshall G. S. Hodgson وبراون Browne ونيكلسون Nicholson فكتبوا عن الحركة الاسماعيلية وذيّلوا مصادرها وعلّقوا عليها فجاء بعض ما كتبوه رائعاً ومن الأهمية بمكان.

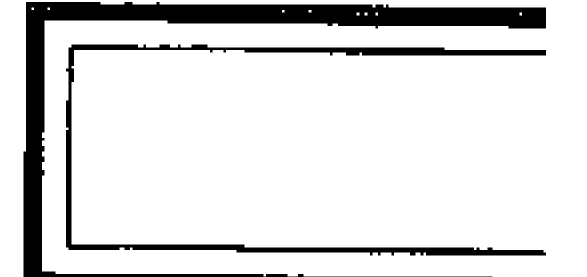
أمّا أبرز هؤلاء في هذا المجال فهو ايفانوف W. Ivanow الذي وجّه اهتمامه إلى اسماعيلية بلاد فارس فعبّد الطريق أمام من تلاه وكشف أموراً غامضة وكل ما تعلّق بدولة «الموت» الاسماعيلية النزارية، وتلاه برنارد لويس B. Lewis الذي اختصّ بتاريخ اسماعيلية بلاد الشام.

ومن المستشرقين البارزين الذين وجهوا عنايتهم إلى تاريخ الدولة الفاطمية سترن Stern أما ماسينيون Louis Massignon فربما كان أول مستشرق اهتم بموضوع القرامطة، وأما هنري كوربان Henry Corbin فقد توجه إلى الفلسفة الاسماعيلية وتميّزت كتبه بالموضوعية والفهم العميق للنصوص ومعاني التأويل.

وأخيراً نذكر تومبسون Thompson وديتريصي F. H. Dieterici وغولدزيهر Goldziher وكراوس Paul Kraus وماكدونالد Macdonald وكازانوفا Casanova فلهؤلاء كتابات لا تخلو من فائدة.

وأما ما صدر في الآونة الأخيرة عن الاسماعيلية باللغات الأجنبية فهو كثير ولكنه جاء تتمة أو نقلاً عن المصادر التي سبقته وقد يكون من المبكر جداً الآن اثبات اسماء أصحابها مع أسماء من ذكرنا قبل أن ندرسها ونصنّفها بالقدر الكافي.

مَاقبلَ
الإسْلام



المجتمع الجاهلي

عاش العرب قبل انبثاق رسالة الإسلام السمحاء في «جاهلية» أقل ما يقال عنها: أنها كانت متخلفة في نظمها وأفكارها ومبادىء حياتها، تسيرها وتتحكم بوجودها القبليّة الموروثة ويسودها أقوام اتخذوا من الأصنام أرباباً يحرقون لها البخور وينحرون أمامها القرابين، وعن قبائل يتسابق أفرادها على وأد بناتهم وهم في صحرائهم القاسية يتقاتلون على الكلأ ومناهل المياه، وعلى النفوذ والسيادة، جاعلين من الغزوات والغارات مبدأً عاماً لحياتهم، وقانوناً يستمدون من مواده وجودهم وبقاءهم.

كان المجتمع الجاهلي قبل شروق فجر الإسلام مطوقاً من النواحي كافة بجيوش التخلف والجهل، وكان يشكو من ضياع القيم، وفقدان الروحية، فلم يكن لديه ما يصح أن يسمى بحق كياناً خلقياً، أو سبيلاً واضحاً للسمو بالفرد أو الجماعة إلى هدف يطهره من نوازع الشر، ويحمله على إقامة الروابط الاجتماعية على أسس أخلاقية متينة وبعيدة كل البعد عن المنفعة والأنانية.

وقد كانت الحياة القبيلية، أو بلغة أصح الحياة العنصرية والتي تتفرع منها الاقليمية والعشائرية والعائلية، تسيطر على ذلك المجتمع البدائي سيطرة تفرض عليه الاستسلام لفوضى اجتماعية طاغية، ولانحراف غريب بواقعه، فأنظمة الاقطاع، وقوانين العشائرية، وما يتفرع عنها كانت تخيم بجيوشها على ذلك المجتمع المضطرب، فتحول هدوءه إلى اضطراب، وازدهاره إلى انحطاط، وسموه إلى هبوط.

ولكننا عندما نذهب بتطلعاتنا إلى البعيد البعيد، أو حينما نحاول سبر أغوار القضايا المغلقة نرى لزاماً علينا أن نعود إلى أنفسنا لنسألها

ونحن بأمس الحاجة إلى المزيد من المعرفة: هل كانت عقول أبناء هذه القبائل العربية مغلقة كلياً، وآفاق نفوسها مسدودة عموماً؟

إن الجواب عن هذا السؤال يوضح أن عناصر الفضيلة، وكرم الأخلاق، والصدق، والمروءة، وعزة النفس، والحفاظ على الجار، وتأدية الأمانة كلها كانت صفات حيةً في أعماقهم، ومتيقظة في وجدانهم... هذا إلى جانب عقل كان يرنو إلى قبس منتظر ينير سبيله، ويضفي عليه الضياء، ويلحقه بالمعرفة الإنسانية، وبدم جديد يغير واقعه وحياته ووجوده، ويخرجه من الظلمات إلى النور، حيث العزة والكرامة.

وتشاء الأقدار... وبعد انتظار طويل، ومخاض عسير أن يخصّ الله الجزيرة العربية بالعهد الفتي، والغيث الروي، فيظهر قبس الإسلام من خلال الظلام حاملاً نفحات الأمل والرجاء والاستبشار. وبظهوره أخذت تلوح في الأفق تباشير الحياة الكريمة، والاستقرار، والاطمئنان. وبين عشية وضحاها انقلب المجتمع الغارق في الجاهلية إلى مجتمع متطور أخذ يسير في دروب النور والكمال، وانمحت التعاليم الوثنية من أفكار الكثيرين بسرعة مذهلة، وزال كل أثر من آثار الجاهلية المتطرفة... ولكن كل هذا لم يحصل إلا بعد حروب دامية سقطت في ساحاتها الضحايا البريئة، وكانت النتيجة أن رسخت فكرة الخير والفضيلة، وعبادة إله قدير، وإطاعة رسول كريم أمين.

ومهما كان من أمر، فالرواسب النفسية التي خلفتها الجاهلية والوثنية لم تكف عن عملها في تسميم المجتمع، وبث عناصر الفوضى في كيانه. وكل هذا كان يظهر لكل ذي عينين. فالتغلب على النهضات الاصلاحية، والرسالات السماوية لم يكن يتمّ بسهولة.

ممّا لا مجال للريبة فيه أن النبي العظيم محمد (ص) جاء برسالة تدعو إلى اصلاح مجتمع طغى عليه الفساد، وجاء يبشّر وينذر الأصدقاء والأعداء بالدين الجديد، حاملاً بيديه قبس الخير والصلاح، داعياً إلى الانضواء تحته، والاستظلال بظله.

والرسول الكريم، هذا المصلح الاجتماعي الكبير ينحدر كما هو معروف من بيت عريق في السيادة... بيت عرف عن أصحابه بأنهم

ينحدرون من اسماعيل بن ابراهيم الخليل جد العرب... إذن فالعرب مجبرون بحكم وجودهم في تلك الرقعة من الأرض العربية التي عمّرها اسماعيل على السير وراء القائد الحكيم والنبي العظيم دون معارضة، لا سيما وقد حمل لهم كل الخيرات والطمأنينة والحياة الأفضل.

كان عليهم أن يسلموا أمورهم إليه طوعاً واختياراً، فأفراد هذه الأسرة النبيلة اشتهروا بالصدق والاخلاص والتفاني في سبيل الواجب، وبالحفاظ على الأمانة والوفاء وخدمة الأماكن المقدسة. ولكنها النفوس التي تعودت التصدي للخير وللحق.... النفوس التي آثرت الذل والخنوع ورضيت بالمهانة هي لم تتغير منذ فجر التاريخ.

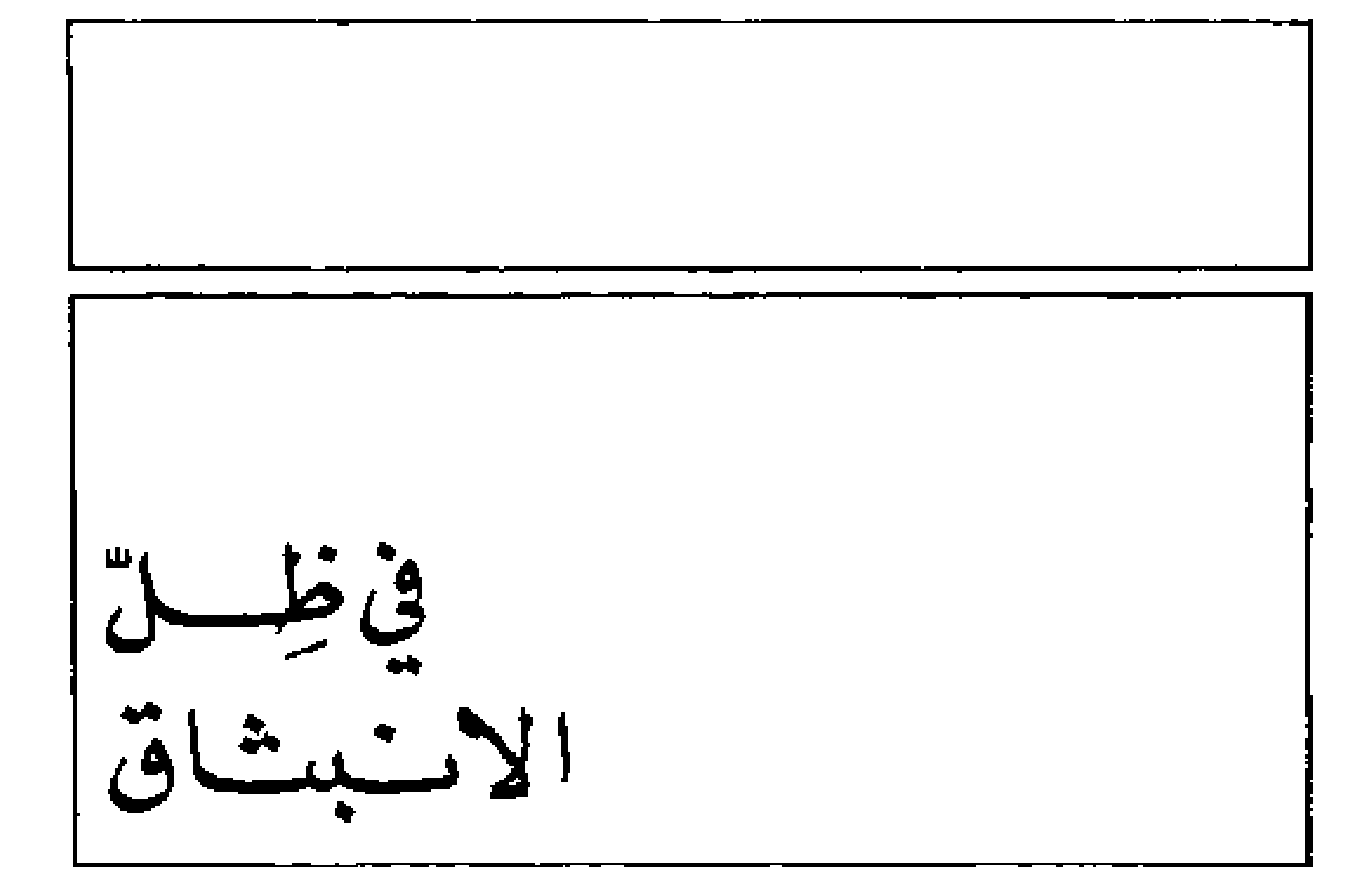
وأبرز من اتسم إسلامهم بالزيف بعض القرشيين من طلقاء مكة، وهؤلاء أسلموا بعد الفتح... وأنه لا يستطيع أحد أن يماري في أن الإسلام الذي اعتنقه هؤلاء لم يكن صادراً عن ايمان في القلب، وإننا نرى أن هذا الفريق قد أخذ يتربص فيما بعد للمسلمين ويكيد لهم، وأنه ظل على كفره، يضع العصي أمام العجلات، ويقف للدعوة بالمرصاد محاولاً ايقاف عطائها. ومن تأثيرات هؤلاء ارتداد بعض الاعراب عن الإسلام، وادعاء النبوءة من قبل آخرين، كالأسود العنسي، وعلقمة بن علاثة، وأم رفل سلمى بنت مالك، ثم استفحال أمر مسيلمة وطليحة وغيرهما. وكل هذا معناه أن رواسب العقيدة القديمة الموروثة ظلت في صراع مع الدين الجديد... وكثيراً ما كانت الدعوة الباطلة تقف حجر عثرة في سبيل الاصلاح والخير، ولكن إلى حين.

ومن الملاحظ أن الشرقين الأوسط والأدنى في أوائل القرن السابع للميلاد كانت تتقاسمهما امبراطوريتان عظيمتان متنافستان هما: الامبراطورية البيزنطية، والامبراطورية الفارسية:

فالبيزنطية كانت عاصمتها القسطنطينية وهي اغريقية مسيحية في ثقافتها وديانتها، ورومانية في إدارتها وحكومتها، ولكن السخط كان على حكامها قائماً بسبب الضرائب الجائرة والانحراف والفساد، وكانت الكنائس ورجال الدين في صراع مستمر مع الامبراطور صاحب المذهب الرسمي.

أما الفارسية فكانت تتخبط في أنظمة غير مستقرة وتعاني نقصاً في تطبيق القوانين والعدالة الاجتماعية وكان يرافقها بروز سلسلة من الهرطقات الدينية الخطرة التي كانت تهدد وحدة الامبراطورية الدينية والسياسية.

وأخيراً، فمن سنة ٦٠٢ م إلى سنة ٦٢٨ م نشبت آخر حرب بين البيزنطيين والفرس وهي الحرب التي انتهت بهزيمة الفرس، ولكنها تركت كليهما محطماً واهناً أمام النور الذي كان موشكاً على الظهور في الصحراء العربية.


في ظِـــلّ
الانــبثاق

التبشير بالدعوة

كان محمّد بن عبدالله بن عبد المطّلب متحنّثاً كعادته في غار في جبل حراء الواقع شمالي مكّة، عندما سمع صوتاً يأمره أن: ﴿ **اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم...** ﴾[1].

ومنذ تلك الليلة، «ليلة القدر» عام ٦١٠م، انطلق محمّد لينذر «عشيرته الأقربين» ومكة وما حولها ويدعوهم إلى نبذ الأصنام وإلى الاعتصام بالواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ولد، الله خالق السماوات والأرض، الذي يجزي كل امرىء بما كسبت يداه، خيراً بخير وشرّاً بشرّ، يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود عن والده شيئاً.

استقبل بعض المكّيين الرسالة والرسول بالاستهجان أولاً ثم الاستهزاء والنبذ بالألقاب ثم بالإساءة والإيذاء ولكن محمّداً لم ينكص على عقبيه، بل مضى في سبيل ما بعثه به ربّه، قدماً، رافضاً ما عُرِضَ عليه من ملك ومال، ممّا أوغر الصدور عليه، وألّب وجهاء مكّة وكبارها على الدعوة، إنكاراً منهم لما جاءت به، وخوفاً على مصير مكّة وتجارة قريش، منها.

كانت خديجة زوج الرسول أول من آمن به وتلاها علي بن أبي طالب وأبو بكر وهما أول من أسلم من الرجال ثم بدأت الدعوة تنتشر بين العبيد والمستضعفين، الأمر الذي زاد من حقد أثرياء مكة على

---

(١) القرآن الكريم، «سورة العلق»، الآية ١ ـ ٥.

الرسول، فأخذوا ينكّلون بمن تحت أيديهم من أتباع الدعوة الجديدة حتى أمر محمد أتباعه بالهجرة إلى الحبشة فخرجوا في هجرتين.

ثمّ دخل عمر بن الخطاب، وكان من أشد القرشيين وقيعة في المسلمين، دخل في الإسلام فكان دخوله نصراً كبيراً، وإن لم يحل دون محمّد والقرار الكبير الذي اتخذه عام ٦٢٠ م، بترك مكّة والهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) بلد امّه آمنة، إثر لقائه في عكاظ بجماعة من الخزرج الذين سمعوا منه تعاليم الرسالة وطابت نفوسهم بها.

وفي سنة ٦٢٢ م خرج الرسول من مكّة خفية، متوجهاً إلى المدينة، فاستقبله أهلها استقبالاً كريماً، وسمّاهم الأنصار واستقرّ في يثرب دار هجرته عزيز الجانب، مكرّماً، يعمل على تنظيم الدعوة وبثّها ونشرها في كل مكان.

وفي العام ٦٢٤ م خاض المسلمون أول معركة ضد المكيين فانتصروا عليهم انتصاراً معجزاً، في وقعة بدر الشهيرة، فلقد كانوا قلّة ولكن ﴿ **لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة..** ﴾[٢] بيد أن أهل مكّة سرعان ما ثأروا من المسلمين في وقعة أُحُد التي سقط فيها ثلّة من أعلام المسلمين وفرسانهم كحمزة بن عبد المطلب عمّ النبي، فضلاً عن الإصابة التي تلقاها النبي في وجهه، ولكن المعركة هذه لم تكن لتغيّر من الواقع الذي كرسته بدر شيئاً: لقد صار الإسلام قوة لا يستهان بها ولم يعد عقيدة قوم يدافعون عن أنفسهم أو يفرّون.

وفي سنة ٦٢٧ م هاجم الأحزاب، وهم المكيون وجماعات من البدو ومن مرتزقة الحبشة، المدينة ولكن الخندق الذي أشار به الصحابي سلمان الفارسي على الرسول، عصمها فانسحب المغيرون ومضى المسلمون لتصفية الحساب مع اليهود الذين ناصروا المشركين، وكان بنو النضير أول من أجلي ثم تلاهم بنو قريظة فيهود خيبر.

وفي سنة ٦٣٠ م، عاد محمد إلى مكّة ففتحها وأمر بأصنامها فأزيلت و ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾[٣] ثم خطب

---

(٢) القرآن الكريم، «سورة آل عمران»، الآية ١٢٣

(٣) القرآن الكريم، «سورة الإسراء»، الآية ٨١.

في أهل مكة وسألهم ما يظنون أنه فاعل بهم فأجابوه أنه أخ كريم وابن أخ كريم فعفا عنهم وقال: **اذهبوا فأنتم الطلقاء**.

وفي السنة التالية وتسمّى «سنة الوفود» دخلت القبائل في «دين الله أفواجاً» وفي السنة التالية ٦٣٢م حجّ الرسول آخر حجّة له وهي «حجّة الوداع» فبعدها بثلاثة أشهر انتقل إلى الرفيق الأعلى (ص).

في تلك الحجّة الأخيرة، مال الرسول بأصحابه إلى مكان يدعى غدير خمّ فخطب فيهم وقال:

«أيها الناس إنّما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني مسؤول وأنكم مسؤولون، فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنّك بلغت وجهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً، فقال (ص): «أليس تشهدون أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق وناره حق وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا بلى نشهد بذلك، قال اللهم أشهد» (الحديث).

ثم حضّ على التمسّك بكتاب الله ووصّى بأهل بيته، فقال:

إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض. وقال في حقّ علي كرم الله وجهه لما كرر عليهم ألست أولى بكم من انفسكم ثلاثاً وهم يجيبونه (ص) بالتصديق والاعتراف، ورفع (ص) يد علي كرم الله وجهه وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبّه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره وأعن من أعانه واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار. (السيرة الحلبية بلفظ الطبراني، ج ٣ ط ١٢٨٠ هـ وكنز العمال ج ١٢ ط حيدر آباد الدكن، مكرراً).

حديث الغدير هذا، ويسمى أيضاً «حديث الثقلين» تعتبره الشيعة نصّاً ووصية من الرسول الكريم للإمام عليّ بالخلافة من بعده، التي آلت، على رغم ذلك، إلى أبي بكر الصديق ومن بعده إلى عمر بن الخطاب، فعثمان بن عفان كما هو معروف. لكن السلطة الروحية ظلت للإمام علي.

الفريق المعارض، لا يرى في الحديث نصّاً ولا وصية، بل إشادة بمناقب الإمام وهي لا ينكرها منكر ولا يجحدها جاحد، ونحن لا نودّ هنا، الخوض في هذه المسألة التي لطالما عانى المسلمون ما جرته عليهم من فرقة وبلاء، بل نخلص إلى ما يعنينا أمره في بحثنا هذا، وأعني بذلك الشيعة.

﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه فوكزه موسى فقضى عليه...» ﴾[٤].

الشيعة إذن تقابل العدو، والشيعة لفظ لم يكن وقفاً على موسى ولا على عليّ، بل ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾[٥]، ويعني عند الزمخشري: «من شيعته، ممن شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعهما، او شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة الكاذبين...» (الكشاف ج ٢/٦٠٤).

وجاء في التاج للزبيدي: «وشيعة الرجل اتباعه وأنصاره، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة» وقال الأزهري: «معنى الشيعة: الذين يتبع بعضهم بعضاً وليس كلهم متفقين». وفي الحديث «القدرية شيعة الدجال» أي أولياؤه.

«واصل الشيعة الفرقة من الناس على حدة وكل من عاون إنساناً وتحزّب له فهو شيعة. ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث، بلفظ واحد ومعنى واحد. وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولّى علياً وأهل بيته (رض) حتى صار اسماً لهم خاصاً فإذا قيل فلان من الشيعة عرف أنّه منهم وفي مذهب الشيعة كذا، أي عندهم، أصل ذلك المشايعة، وهي المطاوعة والمتابعة.... الخ» (تاج العروس ج ٢١ فصل الشين المعجمة مع العين ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣/ ـ الكويت).

هذا بعض ما نعرف عن لفظ الشيعة لغة، ونحسبه كافياً، ولكن السؤال الآن هو: في أيّ زمان نشأت الشيعة، أي حزب علي ومن والاه وذريته وأهل بيته من المسلمين؟

تتضارب، هنا، الآراء وتذهب كل مذهب، فالبعض يقول بأن الشيعة اجتمعت أول مرة يوم السقيفة على تقديم علي على من عداه من الصحابة، ويذهب فريق آخر فيقول بأن الشيعة قد تكونت يوم الدار الذي كان من نتيجته مصرع الخليفة الراشدي الثالث عثمان،

---

(٤) القرآن الكريم، «سورة القصص»، الآية ١٥.

(٥) القرآن الكريم، «سورة الصافات»، الآية ٨٣.

ويذهب فريق ثالث إلى القول بأن الشيعة ولدت يوم وقعة الجمل، وقال فريق بولادتها في حرب صفين. أمّا الشيعة نفسها فتذهب إلى القول بأن التشيع كان موجوداً حتى على عهد الرسول وفي أيامه.

الخلافة

يقول الشهرستاني: «وأعظم خلاف في الأمّة خلاف الإمامة، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان...» (الملل والنحل ج ١ ص ٢١/٢٢ ط ـ المثنى).

ثلاثة أحزاب تنازعت فـادّعـت أحقيتها بالخلافة: المهاجرون والأنصار وأصحاب النصّ والتعيين، أي الشيعة:

تخلّف علي ونفر من الصحابة لتجهيز الرسـول لدفنـه، واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فانطلق أبو بكر الصديق بالمهاجـرين إليهم فوجدوا خطيب القوم يقول:

«.. أمّا بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبيّنا وقد دفت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا وتحصنونا من الأمر...».

فقام أبو بكر وقال:

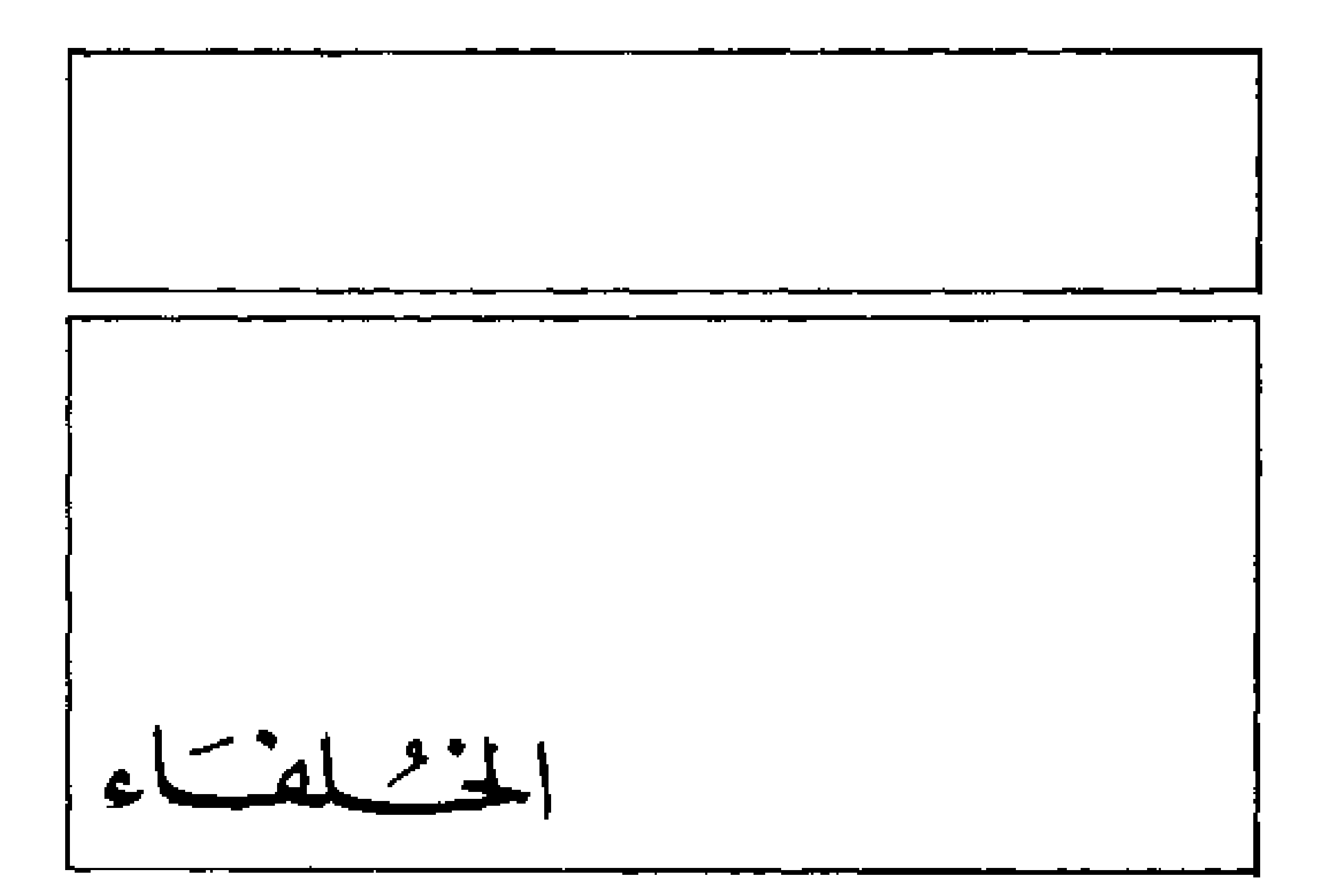
«أما بعد، فما ذكرتم من خير فأنتم أهله، وما تعرف العرب هذا الأمر إلّا لهذا الحيّ من قريش: هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئت».

وأخذ بيد عمر بن الخطاب ويد أبي عبيدة بن الجراح، فكثر اللغط وهنا قال عمر: «ابسط يدك يا أبا بكر» فبسط يده فبايعه وبـايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار. (باختصار عن السيرة لابن هشام ج ٤ ط السقا والأبياري وشلبي ص ٣٠٩ فما تلاها).

لم يبايع عليّ وتطوّر الخلاف في الإمامة فصار عليّ الذي تكون به الخلافة «**أهو النص من صاحب الشريعة أم هو اختيار أهل الحل والعقد من المسلمـين لمن يلي امـرهم؟ وهل يجب عـلى المسلمين أن يكون لهم خليفة يقيم الحدود ويسدّ الثغور ويجهّز الجيـوش للجهاد ويـولي القضـاة والحكـام ويحمي بيضـة المسلمين؟ أم لا يجب عليهم ذلك مطلقاً؟ أم يجب عليهم في حال دون حـال؟**».

الدين لا ينبغي أن يظنّ ظان أن الرسول (ص) أهمله أو أغفله أو فوضه إلى العامة أو أرسله إرسالاً «**ومؤدّى الكلام أن الإمامة**

سلطة دينية تقاس بالنبوة، وليست شأناً شورياً يتفق المسلمون عليه، فالأمة قد تجْمِعُ على الخطأ أو على الكفر، ومن هنا كان لا بد من إمام معصوم فلا بدّ للشريعة من حافظ معصوم، يؤمن من جهته التغيير والتبديل والسهو، ليتمكن المكلفون من السير إلى قوله، وهذا هو الإمام».


الخلفاء

الخلفاء الراشدون

١ ـ أبو بكر الصدّيق

«عبد الله بن أبي قحافة» ٥٧٣ م ـ ٦٣٤ م = ١٣ هـ، أول الخلفاء الراشدين ١١ ـ ١٣ هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤ م، أبو عائشة زوج النبي الكريم محمد (ص) ومحمد بن أبي بكر ربيب الإمام علي.
حارب أهل الردّة، وقضى على مسيلمة الكذاب، وحضر أكثر معارك النبي ووجه أسامة بن زيد إلى الشام لفتحها وخالدا بن الوليد إلى العراق. توفي في المدينة.

٢ ـ عمر بن الخطاب

توفي عام ٢٣ هـ = ٦٤٤ م، هو ثاني الخلفاء الراشدين ١٣ ـ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤ م. لقّب بالفاروق لعدله، وفي عهده تم الانتصار على الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية. اغتاله مولى فارسي بطعنة خنجر.

٣ ـ عثمان بن عفان

قتل في بيته عام ٣٥ = ٦٥٦ م، ثالث الراشدين قرشي أموي ومن أثرياء مكّة، أسلم على يد أبي بكر، تزوّج رقية بنت النبي ثم أم كلثوم، فلقّب بذي النورين. جمع القرآن الكريم.

٤ ـ علي بن أبي طالب

استشهد سنة ٤٠ هـ = ٦٦١ م، ربيب النبي وابن عمّه وزوج ابنته فاطمة ولا نسل للنبي إلّا منها، أحد أبطال الإسلام، وأبلغ العرب وأقضاهم، ولي الخلافة سنة ٣٥ هـ = ٦٥٦ م وكان عهده عاصفاً،

قامت في وجهه حركة البصرة التي انتهت بموقعة الجمل والحركة الأموية، ضربه خارجي بسيف مسموم على رأسه في المسجد فمات متأثراً بجراحه.

الأموِيّون
وَالعَبّاسيّون

الدولة الأموية

اتخذت الدولة الأموية الحاكمة منذ قيامها من العنصرية العربية قاعدة للحكم، وأساساً للوجود. فكانت لا تعتمد إلا على العناصر التي تتحدر من أصل عربي، وذلك بالرغم من خضوع شعوب وقبائل مسلمة غير عربية إليها، وتطور الأمر لديها لدرجة أنها لم تعد تُعنى بغير العرب على اعتبار أنهم أفضل الأقوام، وأكثرهم أهلية وجدارة لتولي المناصب وحمل المسؤوليات. وهكذا جعلت منهم الولاة ، والقواد، ووزراء الدولة، والعمال، وحكام الأقاليم، وأمراء المقاطعات فضلاً عن أنها منحتهم الأفضلية في السيطرة على الاقتصاد، واستلام زمام الأسواق التجارية والمهنية الزراعية، وكل هذا أكسب العناصر العربية الجاه الرفيع، والنفوذ الواسع، والمكانة العليا لدى الخاصة والعامة، ولكن في مقابل ذلك انبثق حسد الموالي وغيرتهم ونفورهم من هذا الحكم، وأخيراً التصدي له بعد أن فُقد كل أمل بالإصلاح الذي وعدوا به، وبإيجاد المساواة والعدالة. وانضموا إلى جماعة الشيعة المعارضين وعلى رأسهم «العلويين» الذين كانوا يتمتعون بمكانة كبرى، ونفوذ ديني واسع وخاصة لدى العامة... فاتحدوا بهم، واتخذوهم اتباعاً ورفقاء درب في مسيرتهم، وأعدوا العدة لإسقاط الحكم الوراثي المغاير لقواعد الإسلام، وتعاليم القرآن.

كانت منطقة العراق، وخاصة مدينة الكوفة وما جاورها من القرى والصحارى مأهولة إلى جانب القبائل العربية بجنسيات وعناصر إسلامية غير عربية، وكان مبدأ «التشيع» لآل البيت النبوي قائماً ونشيطاً إلى جانب الدعوات الفكرية والدينية الأخرى التي راج

سوقها، واتسع نطاقها بحيث لم تقف معارضتها للدولة عند حدّ من الحدود، بل تجاوزت حتى وصلت إلى عاصمة الدولة دمشق. وتشاء الظروف أن تتحول تلك المجتمعات، وأن تثمر هذه الدعوات، فتتحول بين عشية وضحاها إلى قاعدة كبيرة للمعارضة، انضوى تحت لوائها كل ناقم وحاقد من مختلف الأجناس فضلاً عن زعماء كبار كانوا على جانب كبير من الجرأة والثقافة. بحيث تمكنوا في فترة قصيرة من تهيئة الأفكار، وإيضاح المواقف، وإعطاء صورة صحيحة للعامة عن الفساد المهيمن على المجتمع، وعن الأخطاء التي ترتكب من قبل الحاكمين، وعن شبح الظلم والإرهاب المخيمين على أرجاء الدولة.

ولم يكن لدى هؤلاء المعارضين الناقمين أطرف من الحديث عن النظام الوراثي للخلافة الذي ابتكره الأمويون، وجعلوه أساساً لحكمهم، ضاربين عرض الحائط بنظم الإسلام وقوانينه، وتبرز على المسرح جريمة مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء، وما رافقها من الأساليب اللاأخلاقية التي تجلى منها الحقد والظلم وخاصة عندما ساقوا نساء هذه الأسرة النبوية من العراق إلى دمشق، وهنّ حافيات عاريات مكبلات بالأصفاد، وأمامهن على الرماح رأس الحسين، ورؤوس شباب آل علي فكان كل هذا من الأسباب التي أذكت نار الفتنة وحركت الجمر الراقد تحت الرماد. ولكن الظروف والعوامل الأخرى وأبرزها انشقاق المعارضة ساعدت الدولة الأموية على ترسيخ سلطتها وخصوصاً عند حدوث الانقسام بين الحسينيين والحسنيين والآلي هاشميين من آل البيت وجميعهم كانوا من أقطاب المجموعة الشيعية المعارضة للحكم الأموي.

وكان المجتمع الإسلامي خلال الحكم الأموي يتوزع على عدة طبقات اجتماعية أدت فيما بعد إلى خلخلة كيان الدولة وانهيارها وانتقال الحكم إلى العباسيين وكان من أبرز هذه الطبقات الاجتماعية، إلى جانب الطبقة العليا التي تتألف من الأسرة الحاكمة والقواد، طبقة الموالي، وهم المسلمون من غير العرب الذين قبلوا دعوة الإسلام طوعاً أو كرهاً ثم طبقة «الرقيق» «وأهل الذمة»

وكان الموالي يشعرون، أبان الحكم الأموي بأنهم مضطهدين وليسوا متساوين في الحقوق وكان حقدهم يتزايد يوماً بعد يوم على السلطة الأموية مما دفعهم إلى مناصرة معارضي هذه السلطة وبشكل خاص

المعارضة الشيعية التي كانت ناشطة في العراق والخوارج في فارس. وبينما تشاغل العرب، باقتناء المزارع وبناء القصور وتكديس الأموال، انصرف الموالي إلى التعمق في دراسة العلوم والمعارف الثقافية سعياً للتفوق على أقرانهم المحدثي النعمة من أركان الدولة الأموية.

وكان أبناء طبقة «الرقيق» يعانون من شتى أنواع الاضطهاد والاستعباد بخلاف ما جاء به القرآن الكريم. وبينما كان الشرع الإسلامي يدعو ويوصي بإصلاح شأن العبيد ومنع استرقاق المسلم له، فإن العبد الرق لم يكن من حقه أن يعتق بمجرد دخوله في الإسلام، مما أدى إلى قيام تجارة ناشطة للرقيق أدت إلى اختلاط الأعراب والأغراب. فكان لذلك الاندماج أثر بعيد في تكوين جيل يختلف في تصرفاته وتطلعاته وحياته عن الأجيال السابقة.

أما الفريق الثالث من أهل الذمة أو أبناء الديانات السماوية وأتباع الشرائع المنزلة الذين شملهم أمان الإسلام من يهود ونصارى فهؤلاء منحوا قسطاً وافراً من الرعاية. وتمتعوا بمطلق الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج، وخضوعهم إلى قوانين الدولة السائدة، وابتعادهم عن الأجواء الصاخبة والمشحونة بالتوتر والنقمة على الحكم القائم.

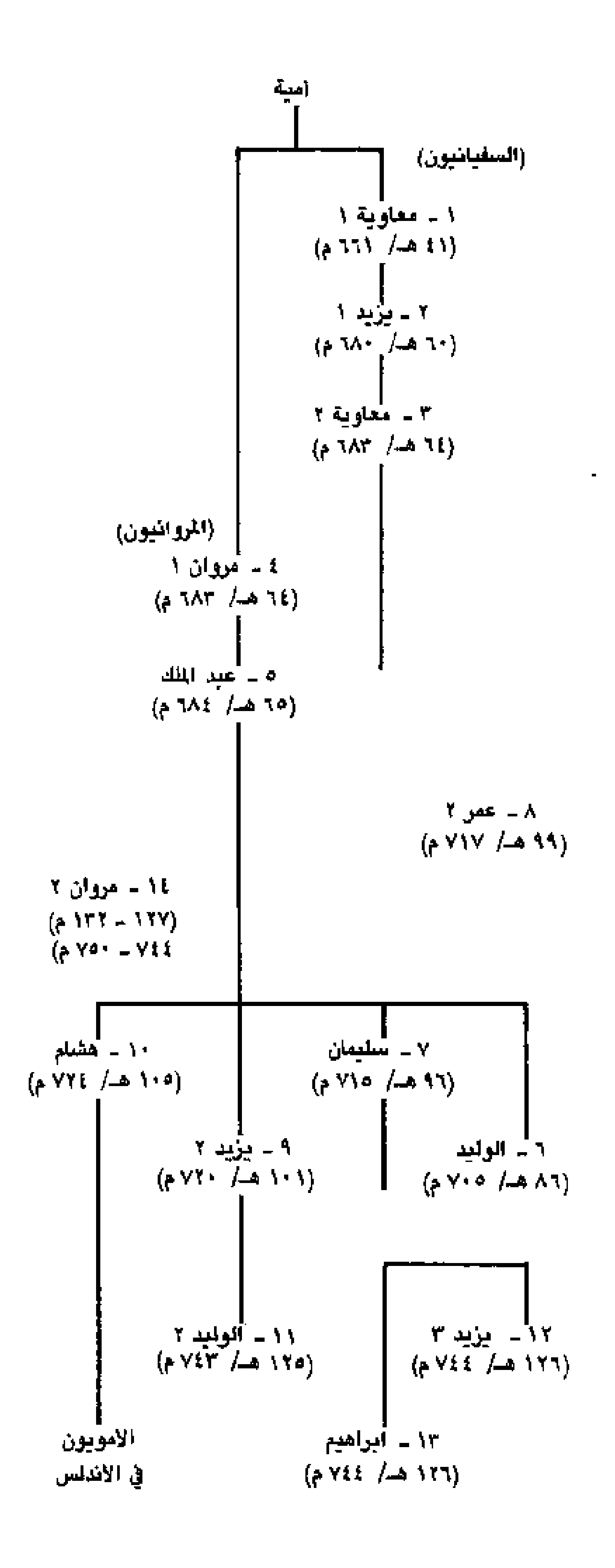
إن العرب عندما حلّوا في الأمصار كفاتحين كانوا يحملون رسالة القرآن الكريم والإسلام، وهذا وحده ترك أثراً في العقول والأفكار، وجعل منها أداة طيعة للتعاليم الإنسانية وللدين الجديد الذي برزت فيه العدالة العريضة والخير والجمال.

إننا نرى، ونحن أمام هذا الواقع أن البلدان التي كانت خاضعة للدولة الأموية لم تتوان عن اللحاق بركب الأمم المتحضرة التي سبقتها أو تغلبت عليها. فنقلت عنها الكثير من الآراء والأفكار والمبادىء، وساعدتها الدولة الحاكمة على ذلك. وأخيراً تولت بنفسها نقل التراث الأممي العريق. وبالفعل كان الأمويون مهرة في النقل، وعلى مستوى كبير من الاجتهاد لتلقي العلوم، وللتزود بالغذاء العقلي. وإننا بصراحة نقول: إنهم في أواخر عهدهم، حرثوا الأرض، ومهدوها، وغرسوا النواة. وبعد أن طلعت شجرة الفكر جاء

العباسيون فقطفوا الثمار بعد أن وسعوا دائرتهم الفكرية باعتمادهم على ثقافات الإغريق والفرس والهند والسريان، فجعلوا منها أساساً لتقدمهم، وشعاراً لتطورهم . وهذا ما يوحي إلينا بأن عصر الأمويين العلمي كان عصر استعداد وغرس وحضانـة، بينما كـان عصر العباسيين عصر جني واقتطاف الثمار.

الخلفاء الأمويون

الرقم	الخليفة		التاريخ
١	ـ معاوية بن ابي سفيان	(الاول)	(٤١ ـ ٦٠ هـ/ ٦٦١ ـ ٦٨٠م)
٢	ـ يزيد بن معاوية	(الأول)	(٦٠ ـ ٦٤ هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٤ م)
٣	ـ معاوية بن يزيد	(الثاني)	٦٤ هـ/ ٦٨٣ م)
٤	ـ مروان بن الحكم	(الأول)	٦٤ هـ/ ٦٨٣ م)
٥	ـ عبد الملك بن مروان		(٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م)
٦	ـ الوليد بن عبد الملك	(الأول)	(٨٦ ـ ٩٦ هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥ م)
٧	ـ سليمان بن عبد الملك		(٩٦ ـ ٩٩ هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧ م)
٨	ـ عمر بن عبد العزيز		(٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠ م)
٩	ـ يزيد بن عبد الملك	(الثاني)	(١٠١ ـ ١٠٥ هـ/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤ م)
١٠	ـ هشام بن عبد الملك		(١٠٥ ـ ١٢٥ هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣ م)
١١	ـ الوليد بن يزيد	(الثاني)	(١٢٥ ـ ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ ـ ٧٤٤ م)
١٢	ـ يزيد بن الوليد	(الثالث)	١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م)
١٣	ـ ابراهيم بن الوليد		(١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م)
١٤	ـ مروان بن محمد	(الثاني)	(١٢٧ ـ ١٣٢ هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٤٩ م)


أمية
(السفيانيون)
١ ـ معاوية ١
(٤١ هـ/ ٦٦١ م)
٢ ـ يزيد ١
(٦٠ هـ/ ٦٨٠ م)
٣ ـ معاوية ٢
(٦٤ هـ/ ٦٨٣ م)
(المروانيون)
٤ ـ مروان ١
(٦٤ هـ/ ٦٨٣ م)
٥ ـ عبد الملك
(٦٥ هـ/ ٦٨٤ م)
٨ ـ عمر ٢
(٩٩ هـ/ ٧١٧ م)
١٤ ـ مروان ٢
(١٢٧ ـ ١٣٢ م)
(٧٤٤ ـ ٧٥٠ م)
١٠ ـ هشام
(١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م)
٧ ـ سليمان
(٩٦ هـ/ ٧١٥ م)
٩ ـ يزيد ٢
(١٠١ هـ/ ٧٢٠ م)
٦ ـ الوليد
(٨٦ هـ/ ٧٠٥ م)
١١ ـ الوليد ٢
(١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م)
١٢ ـ يزيد ٣
(١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م)
الامويون
في الاندلس
١٣ ـ ابراهيم
(١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م)

برز العباسيون على المسرح، ولكن بشكل محدود، وأعلنوا عن حقهم بالخلافة الإسلامية باعتبارهم من الهاشميين، ولكن كل هذا ظل مقتصراً على فئة قليلة من الناس، ثم أنهم غرروا بالعلويين وزينوا لهم بأنهم سيكونوا لهم سنداً في مطالبهم للوصول إلى منصب الخلافة ـ وبهذا تمكنوا من توحيدهم وضمهم إلى صفوفهم، وفي ذلك الوقت اختاروا لحركتهم مركزاً مهماً في قرية «الحميمة» الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت في فلسطين، وكانت على خط القوافل التجارية السائرة من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب، فضلاً عن أنها كانت ملتقى طريق الحجيج.. ففي هذه القرية وضعوا الخطوط الأولى لثورتهم، وفيها وزعوا الأدوار والمهمات. وبعد فترة قصيرة تمكنوا من إحراز الأنتصار الأول عندما نجحوا في استقطاب أهل خراسان الذين بادروا إلى إشعال نيران الثورة الأولى بقيادة أبي مسلم الخراساني الذي زحف على رأس قوة كبيرة قوامها قبيلة الأزد وفلاحي الفرس والموالي، واحتل بلدة «مرو» كخطوة أولى.

ومن الطريف أن إبن سيار عامل الأمويين على خراسان آنذاك كتب إلى الخليفة مروان بعدما رأى هذه التحركات العباسية، طالباً منه إرسال نجدة للقضاء على الثورة التي اندلعت في كل مكان من أنحاء منطقته، ولكن النجدة لم تأتِ، وفات الأوان.. مما دعاه في خاتمة المطاف إلى إرسال هذه الأبيات إلى الخليفة الأموي الأخير:

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تُذْكَى وإن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجّب ليت شعري أأيقاظ أميّة أم نيام

مشى أبو مسلم الخراساني من «مرو» دون توقف، وعندما اقترب من الكوفة أنذر أهلها ثم دخلها دون قتال، وأخذ في مساجدها البيعة لأبي العباس، ونادى به خليفة للمسلمين، ولكن الخليفة الأموي مروان جرّد جيشاً جراراً وزحف للقاء الجيش العباسي الزاحف بقيادة عبد الله بن علي عم الخليفة العباسي، فالتقيا على ضفة الزاب

الكبير اليسرى، ودارت المعركة المشهورة التي اندحر فيها الجيش الأموي، متراجعاً نحو أرض الشام، ولكن عبد الله لحق به، وما زال في أثره حتى حاصره في مدينة دمشق التي استسلمت بعد أيام من سنة ٧٥٠ م ولكن الخليفة الأمويّ فرّ منها فأرسل القائد العباسي ثلّة من الجند أدركته في بوصير من أعمال مصر، فقتل هناك في ٥ آب ٧٥٠ وبمصرعه انتهت الأسرة الأموية الحاكمة، ولم يقم لها فيما بعد أي ملك، سوى الدولة الأموية التي انبثقت في الأندلس.

وتسلم العباسيون شؤون الخلافة الإسلامية، فبنوا بغداد، وجعلوها عاصمة لدولتهم، وتربعوا في قصورها ينهون ويأمرون، ولكنهم لم يأخذوا من الماضي دروساً، ولا من الزمن عبراً وعظات وخرجوا على العهد الذي قطعوه على أنفسهم للعلويين، وبدلاً من أن يمنحوهم الخلافة التي أراقوا في سبيلها دماءهم وقدموا لأجلها خيرة شبابهم، سرقوها منهم، ورسموا لأنفسهم خطة ملاحقة هؤلاء، وإغلاق الأبواب بوجوههم، ووضع السيف على رقابهم.

هذا من جهة... ومن جهة ثانية فإنهم عملوا على إيجاد جو من التفاهم بين العرب والموالي والفرس وعناصر الدولة المختلطة دونما تمييز في مقتضيات الحياة إلا بحسب الخدمات والكفاءات، كما دعوا إلى إصلاح الأوضاع الزراعية والاقتصادية، والنهوض بالمجتمع الفاسد، ورفع شأن الطبقات الفقيرة، إذ من دون ذلك لا سبيل إلى استقرار الأمور وتوطيد الأمن في دولتهم الفتية.

ولابد من التنويه بأنهم قبل أن يتسلموا مقاليد الحكم كانوا يتظلمون ويندّدون بما أصاب العلويين من ظلم وإرهاب من قبل الأمويين، ويعلنون على الملأ أسفهم، ونقمتهم ومشاركتهم الآلام، معتبرين أنهم أصحاب الحق بتولي مقاليد الخلافة والقيادة، ولكن ثبت فيما بعد أن هذه الأقوال لم تكن صادرة عن نيات طيبة، فلم تلبث المعارضة أن أخذت تستيقظ في جسم الأمة تدريجياً، وعادت المظالم تسفر عن وجهها من جديد وتسرب الفساد إلى مختلف الأرجاء وأصبحت الأكثرية الساحقة من الرعية تترحم على الدولة الأموية وهكذا وقع العباسيون في نفس الموقع الذي كانوا يشكون فيه لدى أسلافهم

الأمويين لابل تفوقوا عليهم عسفاً وجوراً فقد انغمس الخلفاء في ملذاتهم وهيمن على مقاليد الحكم القواد والغلمان حتى قال أحد الشعراء بالخليفة المستعين بالله.

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما يقول الببغا

أو كما قال الخليفة المعتمد في وصف حاله:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ مجتمعاً لديه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

ويبدو لنا أن الثورة العباسية على حكم الأمويين تعتبر أول حركة انقلابية في تاريخ الإسلام، بل أول ثغرة انفتحت في كيان الأمة الإسلامية. وهذه الثورة كان لها من الأهمية في تاريخ الشرق ما للثورتين الإفرنسية والروسية في تاريخ الغرب. فالانقلاب الذي وقع لم يتم نتيجة لمؤامرة في البلاط أو ثورة فردية على أسلوب الحكم، بل تحقق بفعل دعوة علمية وتنظيم فكري ناجحين عبَّرا عن استيلاء عناصر الشعب صاحب النفوذ من الدولة الحاكمة، وهي أمور مُهِّدَ لها خلال فترة طويلة من الزمن، فجاءت هذه الحركة مثل معظم الحركات الثورية نتيجة لائتلاف مصالح مختلفة جمعت بينها رغبات مشتركة في إسقاط نظام الحكم القائم، غير أنه كان مقضياً عليها بالتفكك إلى جماعات متضاربة، وكتل متنافرة حتى يتحقق النصر، وقد رأينا أن أول مهمات العباسيين المنتصرين انحصرت في سحق جناح الحركة المتطرف أي: جماعة العلويين، والفئة التي اعتقدت أنها أوصلتهم إلى سدة الحكم فعمدوا إلى قتل أي شخص تقع أعينهم عليه من أهل بيت النبوة العلويين، كما قتلوا أبا مسلم الخراساني القائد العام للثورة مع جماعة من أقرانه، وبذلك أكسبوا الصراع إلى صبغة عنصرية فصار بين «سامي» الجزيرة العربية «وآري» بلاد فارس لأن نجاح العباسيين كان معناه انتصار الفرس على العرب، وتأسيس امبراطورية فارسية جديدة تتقنع بقناع إسلامي عربي شفاف تأخذ مكانها بدلاً عن الامبراطورية العربية جسماً وروحاً.

ولم يصف الجو للعباسيين وهم في غمرة الملك والسلطان، فقامت الانتفاضات في أرجاء عديدة من مملكتهم. وكان أول الغيث قيام ثورة

شعبية في بلاد الشام اتخذت لها شعاراً مبطناً وهو المطالبة بحكم الأمويين. ومن جهة ثانية قام محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي ابن أبي طالب الملقب بـ «النفس الزكية» بحركة مرسومة للقضاء على الدولة العباسية تحت شعار «آل البيت» وحقهم بالخلافة، وكان قد أعلن عن نفسه في القدس بأنه «الإمام المنتظر». وتحركت ثورة أخرى مناهضة في مناطق تركيا بقيادة اسحق الترك، وهو من أتباع أبي مسلم الخراساني، ولكن المنصور العباسي تمكن من القضاء عليها، وتحرك آخر واسمه «أستاذ سيس» (٧٦٧ ـ ٧٦٨ م) في خراسان وتبعه «المقنع» في ثورة عنيفة أيضاً في طول خراسان وأواسط آسيا، وكانت عاصمتها بخارى. ومن الجدير بالذكر أنها دامت أكثر من عشرة أعوام.

ويجب علينا، ونحن في صدد التحدث عن هذه التحركات، أن نشير إلى ثورة «بابك» المسلحة الحمراء التي انبثقت عنيفة جائرة، فأقضت مضاجع العباسيين، واستطاعت الصمود إلى فترة طويلة، وقد ذكر التاريخ أن قائدها استطاع أن يلحق الهزيمة بأربعة من قواد المأمون العباسي.

أما ثورة «الزنج» فكانت من أعنف الثورات التي عرفها التاريخ بل أشدها قسوة وضراوة، وظهرت الإمارات الفارسية لتستقل عن الدولة العباسية، تاركة لها اسم الخليفة وحده يردده أئمة المساجد في صلواتهم كل أسبوع.

وتمكن الزيديون من إنشاء جبهة معارضة في جنوبي قزوين لم تلبث أن أخضعت خلفاء بغداد لنفوذها وخطلتها بالاستيلاء على سلطة الحكم التنفيذية، وأعني بها دولة البويهيين.

ويجب ألا يغرب عن البال أن «العلويين» أصبحوا لقمة سائغة للعباسيين يقتلونهم في كل مكان على الشبهة، ولم يستطع «النفس الزكية» وأخوه إبراهيم النجاة من سيوفهم. ومن المشهور أن رأسه قد حمل إلى الخليفة المنصور في سنة ١٤٥ هـ. ولولا فرار إدريس بن عبد الله إلى المغرب ويحيى إلى المشرق لما بقي أحد منهما حياً.

أما الشيعة الذين نادوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق

والذين عرفوا فيما بعد بالإثني عشرية. فهؤلاء قد ذاقوا من صنوف الأذى ألواناً، وقد تجلى ذلك عندما استحضر الرشيد العباسي موسى الكاظم وسجنه حتى مات، وظل أحفاده يلاقون الضغط والإرهاب حتى آخرهم.

وظهر «الحنفيون» أتباع محمد «بن الحنفية» بن علي بن أبي طالب، «والأبو هاشمية» أتباع ولده «أبو هاشم»، ولكنهم لم يلبثوا أن انقرضوا، وبادت دعوتهم تحت ضربات العباسيين. وفي غضون ذلك انبثقت دعوات دينية أخرى شيعية وسنية، وأكثرها تأسس في بغداد، فدعت إلى معارضة الحكم حتى قيل إن أنصار «ابن حنبل» كانوا يداهمون بيوت الأمراء، وذوي اليسار، فيكسرون أواني الخمر، ويحطمون الآلات الموسيقية، ويضربون المغنين، ويهينون القيان والفتيات تحقيراً، وتحدياً للحكم القائم الضعيف حتى بلغ الأمر بالخليفة أنه بات يخشى على نفسه الأذى إذا خرج أو ظهر للناس.

وأخيراً رجّت بلاد الخلافة الإسلامية في أثناء الحكم العباسي حركة دينية سياسية فكرية انبثقت من مدينة «سلمية» السورية، فكانت من القوة والتنظيم بحيث هددت كيان الدولة العباسية زمناً طويلاً، وكان من أهدافها إخراج المجتمع الإسلامي من انكماشه وجموده، والتوجه به إلى عالم فسيح من الحرية والتطور في ظل ثورة تقوم على الإيمان «المطلق» وعلى أساس عقائدي يستند إلى العقل. فالقائمون على هذه الحركة، توفقوا أخيراً بعد أن أحكموا التنظيم والإنشاء إلى إقامة خلافة «فاطمية» إمامية شيعية في المغرب ثم في مصر وبلاد الشام، فجعلوا منها دولة إسلامية مناوئة للعباسيين، تعمل في السر والعلانية على إسقاطهم. أما ثورة القرامطة، فكانت حصيلة جهاد وتنظيم استمرّا فترة قصيرة. وأخيراً، بلغت من القوة مبلغاً هددت معه بغداد مرة والقاهرة مرة أخرى، الأمر الذي يحلّها في المرتبة الأولى بين الثورات العالمية.

أما في الحقل الخارجي. والعلاقات مع الدول فقد ظهر البيزنطيون على مسرح الأحداث. وأخذوا ينفذون برنامجهم العدائي ضد العباسيين، فتوغلوا في داخل بلادهم، وشكلوا خطراً على الحمدانيين، كما هددوا شمالي العراق وبلاد الشام، ومهدوا لاحتلال أنطاكية

وكيليكيا، والرها، وديار بكر، وميافارقين، ونصيبين، وبلاد الشام الجنوبية وسواحلها.

وعلى العموم، فقد كانت حالة العراق العامة في فوضى طاغية، فاشتد الفقر والمرض، وعظم الغلاء، ومات الكثيرون جوعاً، بينما ظل العباسيون في قصورهم يمثلون المغامرات الجنونية، ويقضون الليالي العابثة المجونية، وكل هذا كان موضوع أحاديث الناس في أنديتهم، ومجتمعاتهم، وكانت تناله ألسنتهم بالنقد والتجريح مما أدى في نهاية المطاف إلى تجميد نشاط الخليفة، وجعله مجرد رمز خاو لا شأن له ولا حول. وهكذا استشرى الضعف والفساد في أرجاء الدولة بعد أن أعطى النظام الطبقي السائد النفوذ والثروة والجاه إلى الجمهرة من شيوخ الفرس وحدهم، فما كان من الرعية وأكثريتها من العرب إلا أن نهضت لتدافع عن مصالحها، ولتزيل الفروقات الطبقية التي كانت تعتبر مخالفة لأبسط قواعد الإنسانية. وقد كان أيضاً لنظام الضرائب الجائر أثره في تدهور الوضع الاقتصادي فبسببه ازداد ظلم الملاكين الكبار للفلاحين الصغار بشكل مخيف، وانتشر الفقر، وعمت البطالة، وتضاعفت الملكيات الفردية ازدياداً مضطرداً، ولم تظهر أية تحسينات على العلاقات العامة بين العرب والموالي في شؤون وتصاريف الحياة كما كان متوقعاً لأن اعتماد الدولة كان قائماً على الموالي والفرس كما ذكرنا.... هذا بالإضافة إلى أن بعض الجماعات الدينية الجديدة التي تصطبغ بالصبغة الفارسية كانت تسعى لتحطيم زعامة العرب والحلول محلها.

الخلفاء العباسيون

١ ـ السفاح أبو العباس عبد الله بن محمد (١٣٢ ـ ١٣٦ هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤ م)
٢ ـ المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م)
٣ ـ المهدي أبو عبد الله محمد بن منصور (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م)
٤ ـ الهادي أبو محمد موسى بن المهدي (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م)
٥ ـ الرشيد أبو جعفر هارون بن المهدي (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م)
٦ ـ الأمين أبو موسى محمد بن الرشيد (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٤ م)
٧ ـ المامون أبو جعفر عبد الله بن الرشيد (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٤ ـ ٨٣٣ م)
٨ ـ المعتصم بالله أبو اسحق محمد بن الرشيد (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م)
٩ ـ الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م)
١٠ ـ المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م)

١١ - المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل(٢٤٧ - ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ - ٨٦٢ م)
١٢ - المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم(٢٤٨ - ٢٥٢ هـ/ ٨٦٢ - ٨٦٦ م)
١٣ - المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن المتوكل (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ - ٨٦٩ م)
١٤ - المهتدي بالله أبو اسحق محمد بن الواثق(٢٥٥ - ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ - ٨٧٠ م)
١٥ - المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل(٢٥٦ - ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ - ٨٩٢ م)
١٦ - المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق(٢٧٩ - ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٢ م)
١٧ - المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد(٢٨٩ - ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ - ٩٠٨ م)
١٨ - المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد(٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢ م)
١٩ - القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد(٣٢٠ - ٣٢٢ هـ/ ٩٣٢ - ٩٣٤ م)
٢٠ - الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر(٣٢٢ - ٣٢٩ هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٠ م)
٢١ - المتقي بالله أبو اسحق إبراهيم بن المقتدر (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ/ ٩٤٠ - ٩٤٤ م)
٢٢ - المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي(٣٣٣ - ٣٣٤ هـ/ ٩٤٤ - ٩٤٥ م)
٢٣ - المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ/ ٩٤٦ - ٩٧٤ م)
٢٤ - الطائع لله أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع(٣٦٣ - ٣٨١ هـ/ ٩٤٧ - ٩٩١ م)
٢٥ - القادر بالله أبو العباس احمد بن اسحق المقتدر (٣٨١ - ٤٢٢ هـ/٩٩١ - ١٠٣١ م)
٢٦ - القائم بأمر الله ابو جعفر عبد الله بن القادر(٤٢٢ - ٤٦٧ هـ/ ١٠٣١ - ١٠٧٥ م)
٢٧ - المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن محمد(٤٦٧ - ٤٨٧ هـ/ ١٠٧٥ - ١٠٩٤ م)

وعندما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد العباسيين، قامت دويلات في كل جهة من أنحاء المملكة، وهذه الدويلات كانت مستقلة استقلالاً ناجزاً بأحكامها، وجيوشها، ونظمها مع الإبقاء على الولاء للخليفة وللشعار العباسي.. وهي:

الدولة الطاهرية	٢٠٥ - ٢٥٩	هـ = ٨٢١/ ٨٧٣ م
الدولة الصفارية	٢٥٣ - ٢٨٩	= ٨٦٢/ ٩٠٣ م
الدولة السامانية	٢٠٤ - ٣٩٥	= ٨٧٤/ ٩٩٩ م
الدولة الخوارزمية	٣٠٥ - ٤٠٨	= ٩٩٥ م/ ١٠١٧ م
الدولة القراخانية الألخانية	٣٨٢ - ٦٠٧	= ١٢٥٦ - ١٣٣٦ م
الدولة الغزنوية	٣٦٦ - ٥٨٢	= ٩٦٢ - ١١٨٦م
الدولة البويهية	٣٣٤ - ٤٤٧ هـ	= ٩٤٥ - ١٠٥٥م

الدولة السامانية من الملاحظ أن أهم هذه الدول وأعظمها أثراً بالنسبة إلى العباسيين

من جهة، وإلى الفاطميين من جهة أخرى هي الدولة السامانية.

تنسب هذه الدولة إلى «سامان» جد الأسرة ومؤسسها، وكان دهقاناً يعيش في مدينة «بلخ» ثم اضطر إلى الفرار نحو «مرو» على أثر نزاع وقع بينه وبين بعض الطامعين، وهناك أسلم على يدّ واليها «أسد بن عبد الله» وهو شقيق «خالد بن عبد الله القسري». وكان أسد والياً على العراق من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي، والظاهر أنه أكرم «سامان» وتعهد بحمايته من أعدائه، ثم أعاده إلى «بلْخ» بعد أن منحه الصلاحيات والرعاية، وهذه المبادرة قدرها «سامان» وظل وفياً لصديقه أسد، لدرجة أنه سمى ولده الأكبر «أسداً» تيمناً بصديقه، وتخليداً لذكراه، ووفاءً لرعايته وبعد سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية ، وفي عهد المأمون بالذات قدم أولاد أسد الأربعة إلى بغداد، وتطوعوا في خدمة الخليفة، فعين نـوح على «سمرقند» وأحمد على «فرغانة» ويحيى على «الشاش» والياس على «هُراة»... وهكذا أفسح لهم المجال لحكم أكثر أجزاء منطقته وما وراء النهر، وفي سنة ٢٦٢ هـ عين المعتمد العباسي «نصر بن أحمد» والياً على بلاد ما بين النهرين بكاملها، وبهذا التعيين تمّ لهم إقامة دعائم الدولة السامانية الأولى.

وبعد أن حصلت هذه الأسرة على هذه المكاسب أخذت تعمل على إرساء قواعد الدولة على أساس متقدم، فعززت حكمها، ووطدت أركان دولتها، وأخذت تناضل لتثبيت دعائم وجودها، وكان أول إجراء قامت به هو اضطلاعها بمسؤولية حماية صحارى ما وراء النهر، وردّ هجمات الأتراك المتكررة، وفي فترة قصيرة تمكنت من تأمين الأمن والاستقرار والقضاء على تلك العصابات المغيرة، مع تأمين خطوط التجارة وحماية محطاتها ومراكزها، مما كان له أكبر الأثر في نفوس العبـاسيين، فمنحـوا السامـانيين الثقـة المطلقة، واعتبروهم من أخلص وأوفى حلفائهم وتابعيهم. وفي سنة ٢٨٧ هـ حاز ملكهم إسماعيل بن أحمد على ثقة خليفة بغداد، خاصة بعد أن تمكن من إلحاق الهزيمة بعمرو بن الليث الصفّار، ولهذا منحه خراسان وما يجاورها بالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين مما مكنه من بسط سلطته على أراضٍ واسعة تمتد إلى حدود الدولة البويهية في إيران والعراق، وأطراف أفغانستان وبلاد السند.

لقد كانت بخارى عاصمة لدولتهم. ومما يجب التنويه به أنها أصبحت في عهدهم كعبة يحج إليها العلماء ورجال الفكر وطلبة العلم من كل حدب وصوب للتزود من مكتبتها الزاهرة بالعلوم والطافحة بالمصادر ونوادر الكتب.

وفي الحقيقة فإن هذه الأسرة كان لها دور بارز في تشجيع العلم ورعاية العلماء، وإفساح المجال لهم للإقامة في ربوع الدولة ، والتمتع بكامل الحرية والحقوق. وفي سنة ٣٩٥ هـ بدأت علائم الضعف والانهيار تظهر على جهاز هذه الدولة إثر قيام عدة انقلابات قام بها في البلاط الساماني بعض القادة العسكريين الطامعين بالحكم، فلم تلبث خراسان أن انفصلت عن العاصمة بخارى.

وكان لابد لهذه الدولة من مواجهة النهاية المحتومة، وذلك عندما تعاون الغزنويون والقراخانيون على مهاجمتها، واحتلال عاصمتها بخارى، وطرد آخر أمير ساماني منها.

الدولة القراخانية

أما الدولة «القراخانية» أو «الأيلكخانية» فأسرتها الحاكمة تتحدر من نسل «أفراسياب» البطل التركي الأسطوري الذي ورد ذكره في «الشاهنامة» للفردوسي ، ولكن لم يتمكن أحد من تحقيق ذلك أو التأكد منه، وكل ما اتفق القول عليه: أنهم مجموعات مختلفة انحدرت من عناصر تركية قديمة لعبت أدواراً بارزة في التاريخ القديم. ومما تجدر الإشارة إليه: أنه في منتصف القرن الثاني للهجرة اعتنق هؤلاء الأقوام الدين الإسلامي، واتخذوا ألقاباً وأسماء إسلامية مختلفة، ويعتبر جدهم «بغراخان». فاتح بخارى أول من اعتنق الإسلام وسمى نفسه «عبد الكريم». من المعلوم أن القراخانيين أقاموا امبراطورية واسعة، بعد أن ساهموا بالقضاء على الدولة السامانية، ويتضح من تاريخهم أنه كانت لهم علاقات طيبة من حسن الجوار والتعاون في مجالات كثيرة مع الغزنويين الذين لم يكن يفصلهم عنهم سوى نهر جيحون.

وعلى العموم فإن تاريخ هذه الدولة كان وما زال على جانب كبير من الغموض، ولم يستطع أحد من المؤرخين إعطاء المعلومات الأكيدة، أو التفاصيل عن الحروب الداخلية والخلافات التي حدثت بين

أمرائها... وكل ما ذكر حول هذا الموضوع يتلخص بأن «الغز» الذين عرفوا بـ «التركمان» قد خضعوا لأسرة عرفت بـ «السلجـوقية»، وهذه الأسرة تسربت وانتسبت وساهمت بوجود هذه الجماعـة. فهؤلاء «الغز» هبطوا إلى بخارى، واشتركوا مع غيرهم في الحروب والاضطرابات التي أدت إلى سقوط الدولة السامانية ، وفي ذلك الوقت اتخذوا لأنفسهم طرفاً بين أمراء القراخانية، وكانت نقطة البداية بالنظر لازدياد نفوذهم ثم عبورهم فيما بعد إلى خراسان حيث تمكنوا من إرساء قواعد السلطة السلجوقية التي امتدت إلى أجزاء أخرى، حيث لعبت دوراً مهماً في التاريخ.

الدولة الغزنوية

وننتقل بعد ذلك إلى الدولة الغزنوية فنقول:
قامت هذه الدولة سنة ٣٥٠ هـ عندما توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح، ففي تلك الساعات ثار الجيش، وتمرد، وانقسم إلى فرق عديدة، كان هدف كل قائد منهم الاستيلاء على السلطة. وفي ذلك الوقت كان «الأسفهسلار التبكين» في نيسابور. فحين بلغه خبر وفاة الأمير المذكور زحف على رأس قواته، وهدفه القبض على الأمير الساماني الجـديد منصـور بن نصر، والحلول مكـانـه في حكم السامانيين، ولكنه أخفق واضطر إلى التراجع نحو «غزنة» حيث اعتصم فيها، وبعد فترة تصالح مع الأمير الجديد، وظل في غزنة» حيث اتخذها قاعدة ومنطلقاً لشن الهجمات على أراضي السند واحتلالها تحت اسم الدولة السامانية، وبعد وفاته خلفه في مركز القيادة أحد الضباط العاملين، والمقربين منه واسمه «سبكتكين»، فاستمر في القيادة تحت إمرة السامانيين، وكانت سيرته طيبـة، وخطواته موفقة، ونفوذه عظيماً لدى الجيش والرعية. وبعد وفاته في سنة ٣٨٧ هـ، تسلم ابنه محمود القيادة. وأعلن انفصاله عن الدولة السامانية متخذاً من «غزنة» عاصمة لدولته، ولقب بـ «الغازي»، ثم أخذ يتوسع، ويستولي على مقاطعات جديدة، ومن الواضح أنه حاز على ثقة الدولة العباسية حين منحه خليفتها لقب «يمين الدولة». وهذا ما جعله يتطلع إلى بغداد، ويمني نفسه بأن يحكمها باسم «سلطان» بحيث يتمكن بعد ذلك من القضاء على الدولة «البويهية» الشيعية، والحلول مكانها في حكم بغداد.

إن الدولة الغزنوية وصلت في عهده إلى أقصى مراحل القوة والتوسع، وأصبحت حدودها حتى نهر جيحون، مضافاً إلى واحة خوارزم وخراسان، ومعنى هذا إنها ظلت تحكم شرقي أفغانستان وشمالي السند حتى قيام الدولة «الغورية» التي قضت عليها سنة ٥٨٢ هـ.

الدولة البويهية

أما «بنوبويه» فينتسبون إلى رجل من «الديلم» كان يمتهن الصيد على شواطيء بحر قزوين، وكان يسمى «بويه»، وكان له ثلاثة أولاد هم: علي وحسن وأحمد. فدخلوا في خدمة «مرداويج بن زيار» الديلمي الذي تمكن سنة ٣١٥ هـ من تأسيس الدولة الزيارية في خراسان التي استمرت ثمانية أعوام في ختامها قتل أميرها «مرداويج». ومن الجدير بالذكر أن أولاد بويه أظهروا مقدرة وكفاءة في عهد مرداويج، فعين «علي» والياً على الكرج، و «حسن» على أصبهان والري وهمذان. وبعد موت مرداويج بسط «علي» يده على كرمان، فاتسعت رقعة دولتهم، وامتد نفوذهم إلى مناطق أخرى، مما جعلهم يتطلعون إلى بغداد، ويطمحون إلى السيطرة على الحكم فيها. وفي سنة ٣٣٤ هـ توفي «توزون» التركي أمير الأمراء فخلفه في منصبه كقائد عام لجيوش العباسيين «ابن شيرزاد» ولكن أحمد بن بويه تحرك من الأهواز وزحف إلى بغداد، وحين سمع الخليفة العباسي «المستكفي» به استتر خوفاً على نفسه من الأتراك، ولكن «أحمد» دخل إلى بغداد على رأس قواته، فأعاد المستكفي إلى دار الخلافة، وأبعد الأتراك عن المناصب العليا، مما حدا بالخليفة إلى إعطائه لقب «معز الدولة» كما لقب أخاه «علي» بلقب «عماد الدولة» ، ولقّب حسن بلقّب «ركن الدولة» ثم ضرب أسماءهم على السكة. وبعد أن استقرت الأمور ببغداد، وأصبح معز الدولة هو السلطان الحاكم، قام بسلسلة من الإجراءات، فاعتقل الخليفة «المستكفي»، وسحبه من كرسيه، ووضع عمامته في عنقه، ثم جره، وأخيراً سجنه. ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان يرمي إلى ضم بغداد إلى القاهرة تمهيداً لتوحيدهما في دولة واحدة، وجعلها «فاطمية» شيعية، ولكن ظروفاً طارئة، ومفاجآت غير متوقعة قامت في وجهه، وجعلته في النهاية يعدل عن هذه الرغبة.

وبعد موت المستكفي عين معز الدولة البويهي «المطيع لله» العباسي خليفةً، ولكنه جرده من كافة الصلاحيات،وجعله آلة صامتة لا شأن لها.

هذه الإجراءات العنيفة التي قام «معز الدولة» بها لم تكن لترضي جميع الناس في أنحاء الدولة، وهذا ما عجل بانبثاق انتفاضات وثورات في كل مكان، وأولها ثورة الحمدانيين في الموصل وبعدها حرب البريديين في البصرة، ثم القرامطة في البحرين والأحساء، ولكنه كان يخرج منها منتصراً.

بعد وفاة معز الدولة سنة ٣٥٦ هـ، تسلم ابنه بختيار منصبه ، ولكنه لم يكن مثل والده، بل كان مستهتراً عاكفاً على اللهو والشراب، مما أفسح المجال للعناصر التركية للقيام بالتسلل إلى المناصب العليا، وطرد الديلم منها، فحدثت اضطرابات عنيفة، وصراع بين الفريقين. وتشاء الظروف أن تسوء الأحوال إثر ذلك، وعلى الخصوص حينما تحرك ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ هـ. وهاجم بغداد، ودخلها، وتسلم أمورها، ولكن كان على هذا الأمير أن يواجه الثورات التي انبثقت في الموصل وخراسان وعمان، وفي بغداد نفسها... فتمكن من التغلب عليها جميعها مما جعل المؤرخين يعتبرونه من أعظم وأقوى رجالات بني بويه، ومن أشهر قوادهم. ومن الجدير بالذكر أنه ظل يحكم العراق حتى سنة ٣٧٢ هـ. وبعد موته تسلّم ابنه «أبـو كاليجار» منصبه وتسمّى بـ «صمصام الدولة» ولكن الأمور في عهده ساءت وأخذت بالتردّي، وذر الشقاق قرنه بين ورثة عضد الدولة، ولم يمض عليه سوى سنتين حتى قامت سبع دويلات مستقلة في العراق، والبصرة، والأهواز، وفارس، وكرمـان، والري، وجـرجان وتشـاء الظروف أن تتطوَّر الأمور، وتسوء لدرجة أن «شرف الدولة»، وهو الابن الأكبر لعضد الدولة هاجم بغداد، ودخل في قتال مع أخيه «صمصام الدولة» استمر حتى أسفر عن انتصار «شرف الدولة» سنة ٣٦٧ هـ. فاعتقل «صمصام الدولة» وأرسله سجيناً إلى إحدى القلاع وكان ذلك سنة ٣٦٩ هـ.

بعد وفاة «شرف الدولة» خلفه أخوه «فيروز» أو «بهاء الـدولة»، فاحتفظ بمركز القيادة مدة أربعة وعشرين عاماً أي حتى سنة ٤٠٣ هـ. وبعد وفاته خلفه ابنه «سلطان الدولة» ولكن نزاعاً حصل بينه وبين أخيه «شرف الدولة». وانتهى أخيراً بأن صار العراق لـ «شرف الدولة» وفارس وكرمان لـ «سلطان الدولة». وعندما تحرك «شرف الدولة» واتجه إلى بغداد، كان «سلطان الدولة» قد توفي سنة

٤١٥ هـ وأصبح اختيار الأمير الجديد من حق الجيش وحده الذي أصبحت أكثرية عناصره من الأتراك ، مضافاً إلى ذلك حدوث نزاع شديد، ومفاوضات انتهت باختيار «جلال الدولة»، فجاء إلى بغداد من البصرة. وعندما وصل إليها خرج الخليفة العباسي لاستقباله، فدخل بغداد سنة ٤١٨ هـ تحت اسم «سلطان الدولة»، وظل في منصبه حتى ٤٣٥ هـ.

وبعد وفاة «جلال الدولة» لم يتمكن ابنه الأكبر «الملك العزيز» من الحصول على ثقة الجيش، فحدثت اضطرابات حدت بأبي كاليجار صاحب الأهواز إلى الزحف نحو بغداد، فدخلها وتلقب بـ «الملك الرحيم»، فظل قائماً بمهمته حتى وفاته، ويعتبر آخر سلاطين الأسرة البويهية، فبعد موته دخل «الغز» العراق، وأقاموا الدولة السلجوقية، وكان ذلك سنة ٤٤٧ هـ.

في خاتمة المطاف... لابد من القول:

إن الأسرة «البويهية» تعتبر من الشيعة «الزيدية» وإن الأجداد المؤسسين لهذه الأسرة، تلقوا تعاليم الإسلام على يد «الحسن الأطروش». ومن الجدير بالذكر أن بعض أفرادها مالوا إلى الإسماعيلية، واعتنقوها، ولعبت دولتهم أدواراً مهمة على مسرح الخلافة العباسية، وإن عدداً من قوادها قد حكموا العراق حكماً مباشراً، وأقصوا الخلفاء العباسيين وجردوهم من كافة الصلاحيات، أما الخلفاء الذين عاصروهم فهم: المستكفي، والمطيع، والطائع، والقادر، والقائم.

الخلفاء الفاطميون

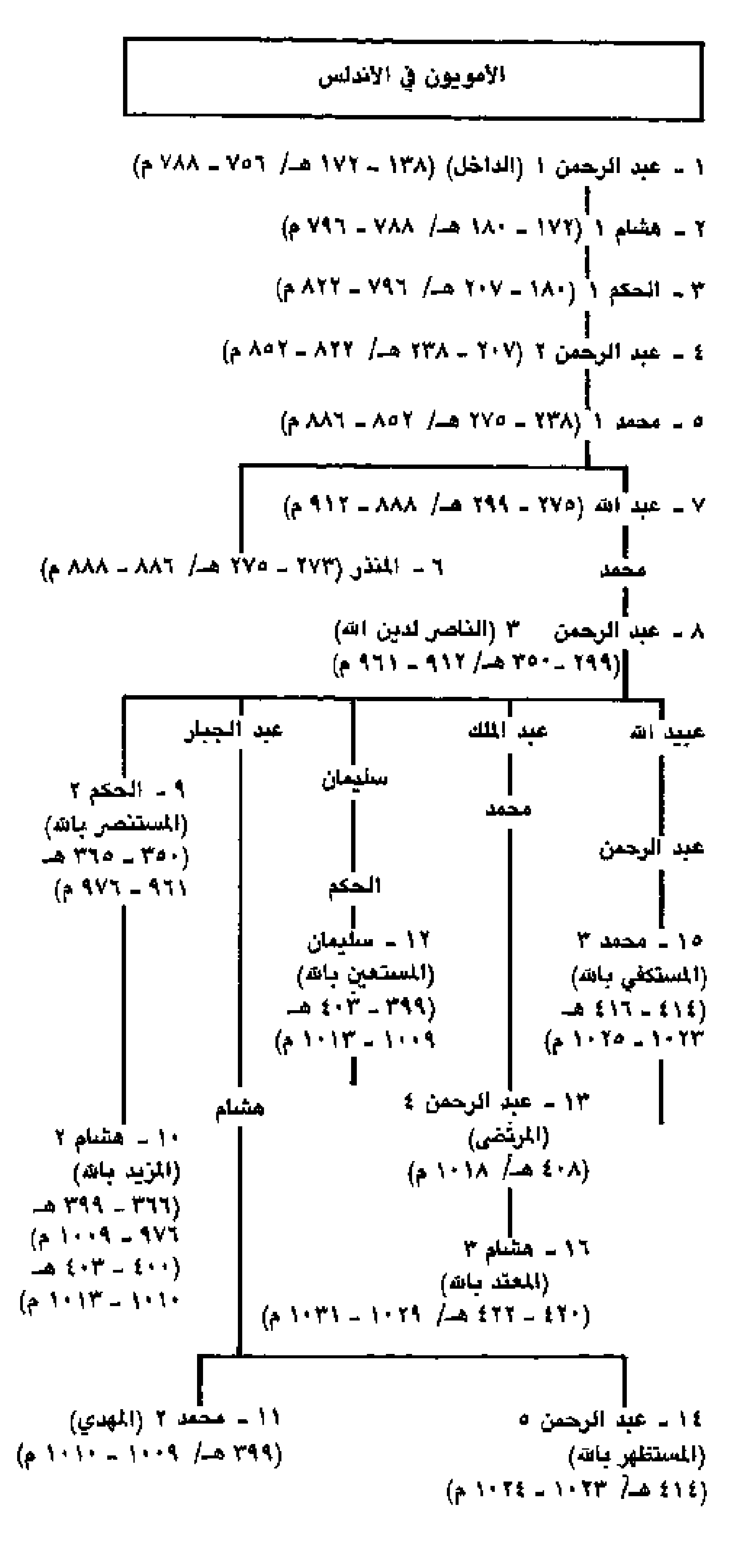
١ ـ عبد الله المهدي (٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٣٤ م)
٢ ـ القائم بأمر الله (٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٦ م)
٣ ـ المنصور بالله (٣٣٤ ـ ٣٤١ هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٥٣ م)
٤ ـ المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥ م)
٥ ـ العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م)
٦ ـ الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م)
٧ ـ الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٣٦ م)
٨ ـ المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م)
٩ ـ المستعلي بالله (٤٨٧ ـ ٤٩٥ هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٠١ م)
١٠ ـ الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ـ ٥٢٥ هـ/ ١١٠١ ـ ١١٣٠ م)

١١ ـ الحافظ لدين الله (٥٢٥ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٤٩ م)
١٢ ـ الظافر بأمر الله (٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤ م)
١٣ ـ الفائز بنصر الله (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م)
١٤ ـ العاضد لدين الله (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٧١ م)

الخلفاء الأمويون في الأندلس(*)

١ ـ عبد الرحمن «الداخل» (١٢٨ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٨٨ م)
٢ ـ هشام الأول (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٨٨ ـ ٧٩٦ م)
٣ ـ الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٧ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م)
٤ ـ عبد الرحمن الثاني (٢٠٧ ـ ٢٣٨ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢)
٥ ـ محمد الأول (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦ م)
٦ ـ المنذر (٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م)
٧ ـ عبد الله (٢٧٥ ـ ٢٩٩ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م)
٨ ـ عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (٢٩٩ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م)
٩ ـ الحكم الثاني «المستنصر بالله» (٣٥٠ ـ ٣٦٥ هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦ م)
١٠ ـ هشام الثاني المؤيد بالله (٣٦٥ ـ ٣٩٩ هـ/ ٩٧٦ ـ ١٠٠٩ م)
١١ ـ محمد الثاني (المهدي) (٣٩٩ ـ ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٠٩ م)
١٢ ـ سليمان المستعين بالله ٣٩٩ ـ ٤٠٣ ـ هـ).
١٣ ـ عبد الرحمن الرابع (المرتضى) ٤٠٨ ـ فترة انقلابات
١٤ ـ عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله ٤١٤ ـ غير مجرى حياة
١٥ ـ محمد الثالث المستكفي بالله ٤١٤ ـ ٤١٦ الخلفاء الأربعة
١٦ ـ هشام الثالث المعتد بالله ٤٢٠ ـ ٤٢٢ الأخيرين/١٠٢٧ ـ ٧١

(*) ملاحظة: لم ندرج هنا ثبتاً بأسماء سلاطين بني عثمان، بين أسماء السلالات الحاكمة الأخرى التي تسنّم أفرادها منصب الخلافة الإسلامية لأسباب أولها أنهم ما كانوا عرباً وثانيها أن الخلافة فقدت معناها الروحي فالأتراك قد غمطوا الخلافة حقها وكانوا سبب زوالها وتوقّفها، حتى قبل أن يطاح بآخر السلاطين.


الأمويون في الاندلس
١ ـ عبد الرحمن ١ (الداخل) (١٣٨ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٨٨ م)
٢ ـ هشام ١ (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٨٨ ـ ٧٩٦ م)
٣ ـ الحكم ١ (١٨٠ ـ ٢٠٧ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م)
٤ ـ عبد الرحمن ٢ (٢٠٧ ـ ٢٣٨ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢ م)
٥ ـ محمد ١ (٢٣٨ ـ ٢٧٥ هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦ م)
٧ ـ عبد الله (٢٧٥ ـ ٢٩٩ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م)
٦ ـ المنذر (٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م)
محمد
٨ ـ عبد الرحمن ٣ (الناصر لدين الله)
(٢٩٩ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م)
عبيد الله
عبد الملك
عبد الجبار
سليمان
٩ ـ الحكم ٢
(المستنصر بالله)
(٣٥٠ ـ ٣٦٥ هـ
٩٦١ ـ ٩٧٦ م)
محمد
عبد الرحمن
الحكم
١٢ ـ سليمان
(المستعين بالله)
(٣٩٩ ـ ٤٠٣ هـ
١٠٠٩ ـ ١٠١٣ م)
١٥ ـ محمد ٣
(المستكفي بالله)
(٤١٤ ـ ٤١٦ هـ
١٠٢٣ ـ ١٠٢٥ م)
هشام
١٣ ـ عبد الرحمن ٤
(المرتضى)
(٤٠٨ هـ/ ١٠١٨ م)
١٠ ـ هشام ٢
(المؤيد بالله)
(٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ
٩٧٦ ـ ١٠٠٩ م)
(٤٠٠ ـ ٤٠٣ هـ
١٠١٠ ـ ١٠١٣ م)
١٦ ـ هشام ٣
(المعتد بالله)
(٤٢٠ ـ ٤٢٢ هـ/ ١٠٢٩ ـ ١٠٣١ م)
١١ ـ محمد ٢ (المهدي)
(٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٠ م)
١٤ ـ عبد الرحمن ٥
(المستظهر بالله)
(٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٢٤ م)

الاسْماعيليّة
والإمَامة



الإمامة

لم يختلف المسلمون على أمر من أمورهم كإختلافهم في الإمامة. فإتباع الإمام علي اعتبروا أنه الوصي الشرعي، واستشهدوا على ذلك بالبيانات، والأحاديث المؤيدة، لأقوالهم. وذهب بعضهم إلى وضع هالة من التقديس والتعظيم للإمام، بل ذهب بعضهم إلى حد القول بأنها من الأسرار الإلهية، أو المظهر الربوبي، أو الألوهية المصغرة بذاتها، ويرى البعض الآخر أن الإمامة أمر محتم، وإنه لا يجوز أن يبقى المسلمون بدون إمام يسير بهم على كتاب الله وسنة رسوله ويقودهم في الطرق المؤدية إلى النجاة والخلاص.

ورغم الاتفاق حول مبدأ الإمامة في الإسلام، فإن المسلمين اختلفوا فيما بينهم حول شخص الإمام ومهمته. فالبعض يقول. إنها... أي الإمامة تثبت بالاختيار، وإجماع الأمة، أو أنّها واجبة عليها. ويذهب الشيعة في تعريفها مذاهب شتى ولكنهم اتفقوا على أنها: زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين، وأسّ الإسلام النّامي، وفرعه السامي، وإنها تمام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات وإقامة الحدود والأحكام ومنع الثغور والأطراف، ولكن كل هذا قد خضع للتعديل فيما بعد حينما أخذت الانقسامات تتوالى في قلب المجموعة الشيعية.. فقالت الفرقة الإثنا عشرية إنها واجبة إلى الله تعالى من باب اللطف، ووجوب تنصيب الإمام لإقامة الحجة على عباده.

وقالت «المرجئة»:

على الناس أن يولوا عليهم رجلاً ممن يرون أن له فضلاً وعلماً، فيحكم فيهم بالكتاب والسنة، وما لم يجده فيهما اجتهد فيه برايه.. ثم أضافوا:

إن طاعته واجبة على الناس ما أطاع الله، فإذا عصى الله فلا طاعة له عليهم، ووجب القيام ضده، وخلعه واستبداله.

وقالت المعتزلة:

لم يقدم رسول الله (ص) أحداً بعينه، ولا أشار إليه، ولكنه أمر الناس أن يختاروا بعده رجلاً يولونه على أنفسهم، فاختاروا أبا بكر.

وقالت الخوارج:

لم ندر، ولم يبلغنا أن النبي أمر في ذلك بشيء، ولا أنه لم يأمر، ولا أشار، ولا لم يشر، ولكن لابد من إمام يقيم الحدود، وينفذ الأحكام.

وقالت الزيدية:

إنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص.

بينما تقول الإسماعيلية بأن النسب شرط في الإمامة، يقول آخرون: إن النسب ليس شرطاً أصلاً، وإنها تصلح في القرشي وغير القرشي إذا كان فاضلاً ومستجمعاً للشرائط المعتبرة، وإذا اجتمعت الكلمة عليه وهو قول الخوارج وقال معظم الزيدية إنها في الفاطميين خاصة، وفي الطالبيين، ولا تصلح في غير هذين البطنين وبعض الزيدية يجيزها في غيرهم. أما الزاوندية فقد خصصوها بالعباس وولده لأنهم من بطون قريش. وأما الإمامية فقد جعلوها سارية في ولد الحسين بن علي. وجعلتها الكيسانية في محمد بن الحنفية وولده وبعضهم نقلها إلى غير ولده.

وفي هذه الصفحات لا نريد أن نعدد الأقوال التي صدرت عن فرق الشيعة العديدة بخصوص الإمامة، وبعضها قد باد ولم يبق له أي أثر، وإنما نذكر الأهم، على أن نكتفي بإيراد لمحة عن الموضوع الآنف الذكر مما لابد منه، كما نرى أنه لابد من العودة إلى ما ذكره عن هذا الموضوع أبو بكر «الرازي» الطبيب في كتابه «المحصل» حيث قال:

«منهم من قال بوجوبها، ومنهم من لم يقل. أما القائلون بوجوبها فمنهم من أوجبها على الله تعالى، ومنهم من أوجبها على الخلق. فالذين أوجبوها على الله تعالى هم «الإمامية»، ثم ذكروا في وجوبها وجوهاً عديدة، أحدها أن يكون لطفاً في الزجر عن المقبحات العقلية، والثاني أن يكون معلماً بمعرفة الله تعالى وهو قول «السبعية» الإسماعيلية، وثالثها أن يعلمنا اللغات، وأن يرشدنا إلى الأغذية، ويميزها عن السموم. وأما الذين أوجبوها على غير الله تعالى فهو قول الجاحظ والكبسي، وأبي الحسن

البصري وغيرهم. وأما الذين أوجبوها سمعاً فقط فهم جمهور أصحابنا، وأكثر المعتزلة، وإن الذين قالوا بوجوبها فهم الخوارج».

ويضيف أبو بكر الرازي:

«يجب عقلاً على الخلق أن ينصبوا لأنفسهم رئيساً. أما كيف يجب تنصيب الإمام لدى الفريق القائل بوجوبها على الله، والقائلين بوجوبها على الأمة فهي: إن جميع الشيعة ما عدا الزيدية، وبعض المعتزلة يقولون إن الإمام يجب أن يكون بالنص من النبي أو القائم مقامه، لأنه بنظرهم من أصول الدين، وإن الإمامة واجبة على الله».

وهناك طائفة من الفرق الإسلامية تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول: إن أمر الإمامة راجع إلى الأمة ، لأن الإمامة فرع من فروع الدين. أما الغلاة فقد شذوا وبعدوا حينما اعتبروها ألوهية، أو حلولية، أو ما شابه ذلك من الأقوال التي لا تنطبق على حقيقة، ولا يقرها عقل.

ومن الجدير بالذكر أنه كان من الطبيعي أن تلقى أقوال الرازي بعض المعارضة والرد العنيف وخاصة عندما وجه هجومه إلى النبؤة وخصائصها وصلاحياتها، وعندئذٍ تطوع الداعي الإسماعيلي الكبير أبو حاتم الرازي المعروف بسعة علمه وتفوقه فرد عليه رداً عنيفاً وأفحمه في كتابه المشهور «أعلام النبؤة» فاعتبر النبؤة الأصل والإمامة فرعاً منها وإنها قطعاً يجب أن تكون في أسرة «آل البيت»..

أما الإسماعيلية فقد جعلوا الإمامة إحدى دعائم الدين، وسموها «الولاية»، وقالوا: إنها أفضل دعائم الدين وأهمها بعد النبوءة «والوصاية» وإنه لا يستقيم الدين إلاّ بها.. ومما يجب أن نذكره: أن الوصاية أرقى بدرجة واحدة من الإمامة، فالإمام الذي يكون، في عهد الناطق يأخذ اسم الوصي، والوصي المرافق للرسول يكون مفضلاً وأعلى من الإمام الذي يأتي بعده ومهما يكن من أمر.. فالإمامة هي المركز الذي تدور عليه دائرة الفرائض، فلا يصح وجودها إلا بإقامتها ثم قالوا بالنص، وأن الإمامة تستمر مدى الدهر، وأنها بدأت بالتسلسل من عهد آدم الأول، وأن الكون لا يستطيع البقاء لحظة واحدة دون إمام، وأنه لو فُقد ساعة واحدة لماد الكون وتبدد، فهي تعادل درجة الإيمان، أو القلب في الجسم، أو العقل بالنسبة للإنسان، وبالإضافة إلى ذلك، فالإمام هو الذي يحل الحلال، ويحرم الحرام، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله بموجب نصوص

القرآن، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة.

وفي الاعتقادات الإسماعيلية يجب أن تنتقل الإمامة بنص شرعي، فالإمام مما يؤته من معرفة خارقة يعرف أي أبنائه جدير بها، ويعتقدون أن الإمام لا يخطىء في معرفته هذه بحال من الأحوال، وإلا لما كان إماماً... ويضيفون إلى ذلك قولهم.

> إن الله لا يترك العالم خالياً من إمام لأنه حجة الله على خلقه، والهادي بهم إلى الصراط المستقيم، والحارس للشريعة، والوارث للنبوّة، والساهر على تطبيق احكام تعاليم القرآن.. على ان كل هذه الصفات والصلاحيات لا يدخل في نطاقها معرفة الغيب أو تغيير اي شيء في الشريعة، او القول بالالوهية، أو الحلولية، او التجسيم، او التقمص، وإن للإمام صفات يجب أن تتوفر فيه وإلا بطلت إمامته، فيفترض ان يكون اعلم اهل زمانه وأصدقهم، وشجاعاً، وكريم اليد.. لأنه «المعلم» و «الإنسان الكامل».

أما الألوهية عند الإسماعيلية فقد لخصها دعاتهم، وعبروا عنها تعبيراً فلسفياً ومنطقياً وبذلك نفوا التهم والأساطير المتداولة عنهم. فقالوا إن المبدع الخالق قديم وقبل الأزل. وإن عالم الموجودات والمبدعات محدث.. لأنه إذا كان غير محدث فيجب أن يكون شيء سابق قد أحدثه، وإذا كان العالم قديم قبل الخالق استحال تعلق جبروته بالقدم ووجوده بالعدم، واقتضى موجداً أوجده.

> فهو المتعالي عن درك الصفات، ولا ينال بحس، ولا يقع تحت نظر، ولا تدركه الأبصار، ولا ينعت بجنس، او يخطر في الظنون، ولا تراه العيون أو يوصف بالحواس، أو يدرك بالقياس، أو يشبه بالناس... فهو المنزه عن ضد مناف.. أو نـد مكاف، أو شبه شيء. تعالى عن شبه المحدودين، وتحيرت الأوهام في نعت جبروته، وقصرت الأفهام عن صفة ملكوته، وكلت الأبصار عن إدراك عظمته، ليس له مثل ولا شبه.. هو غير ذي ند، وغير ذي ضد، لأن الضد إنما يضاده مناف دل على هويته بخلقه وآثاره على اسمائه بأنبيائه ، فليس للعقل في نيل سمائه مجال أو تشبيه.. إذ إن تشبيه المبدع بمبدعه محـال، هو مبدع المبدعات، ومخترع المخترعات، ومسبب كون الكائنات، ورب كل شيء، وخالقه، ومتممه، ومبلغه إلى الأفضل... جل أن يحده تفكير أو يحيط بـه تقدير، ليس له أسماء، لأن الأسماء من موجوداته، ولا صفات لأن الصفات من «ايسياته»، وإن حروف اللغة لا يمكن أن تؤدي إلى لفظ اسمه، أو أن يطلق عليه شيء

منها، لأنها جميعها من مخترعاته، وإن كافة الأسماء التي أبدعها جعلها أسماء لحدوده ومبدعاته.

وهو قديم، وقبل الأزل وصاحب مصدر الأولية بالترتيب، لأن الحد الأول انبثق منه وهو العقل الأول، وهو مبدع المبدعات، ومعلّ العلل، وباري البرايا، والدائم الوجود، والفرد المعروف بفرديته وصمدانيته، وصاحب فعل الإيجاد الأول للعدد الأول الذي هو أصل الأعداد، ويضاف إلى ذلك بأنه لا ينال بصفة من الصفات، وإنه ليس جسماً، ولا هو في جسم، ولا يعقل ذاته عاقل، ولا يحسُّ بـه محسّ، وهو ليس بصورة ولا بمادة، ولا يوجد في اللغات ما يمكن الإعراب به عنه، وهو موجود لأنه لا يصح أن يكون غير موجود، ولا أن يكون موجوداً من نوع الموجودات التي وجدت عنه، وأما الاستدلال عليه فيستخلص من وجود الموجودات وذلك لأنه لا معلول دون علة، ولا موجود إلا بما يوجب وجوده، ولما كانت الموجودات ، يستند بعضها في وجوده إلى بعض، وكان لو كان ذلك البعض، الذي يستند هذا البعض في وجوده إليه، غير ثابت في الوجود، ولا موجوداً، لكان وجود هذا البعض محالاً. فلما ثبت أنه لا وجود لهذا إلا بذاك، فلذلك كان منه العلم، بأن الذي تنتهي إليه الموجودات، التي به توجد، وإليه تستند، وعنه توجد. هو الله الذي لا إله إلا هو.

الاسماعيلية في ظل الإمامة

في هذه الصفحات، نسجل بعض أقوال أئمة الإسماعيلية في الإمامة ووجوبها ومكانها وصلاحياتها، وعرضنا إظهار ناحية مهمة في العقائد الإسماعيلية كانت وما زالت مثار أخذ وردّ، وقد يساعد هذا على وضع الأمور في مسارها الصحيح، ونفي التهم المتداولة، وإظهار الأمر على حقيقته.

ورد في كتاب «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان بن حيون المغربي حديث رواه الإمام جعفر بن محمد «الصادق» بأن قوماً أتوا جده الإمام علي بن أبي طالب فقالوا له:

أنت إلهنا وخالقنا ورازقنا، ومنك مبدؤنا وإليك معادنا... فتغير وجهه عليه السلام، وارفض عرقاً، وارتعد كالسعفة تعظيماً لجلال الله، وخوفاً منه، وثار مغضباً، ونادى بمن حوله، وأمرهم بحفير فحفر وقال: لأشبعنكم اليوم لحماً وشحماً. فلما علموا أنه قاتلهم.. قالوا: لئن قتلتنا فأنت تحيينا فاستتابهم فأصروا على ما هم عليه، فأمر بضرب أعناقهم، وأضرم ناراً في ذلك الحفير، وأحرقهم فيه وقال:

«لما رأيت الأمر أمراً منكراً أضرمت ناري ودعوت قنبراً»

وهذا من مشهور الأخبار عنه. وكان في عهود الأئمة من ولده مثل ذلك ما يطول الخبر بذكرهم، كالمغيرة بن سعيد، وكان من أصحاب الإمام محمد ابن علي (الباقر) ودعاته، فاستذله الشيطان وكفر وادعى النبوّة وزعم انه يحيي الموتى، وان الإمام «الباقر» إله، وقد بعثه رسولاً. وتبعه على قوله كثير من أصحابه سموا «المغيرية» باسمه، ولما لم يكن للإمام الباقر ما كان لجده علي بن أبي طالب ليقتلهم فإنه اكتفى بلعنهم والتبرؤ منهم.

ثم كان «أبو الخطاب» في عصر الإمام جعفر بن محمد «الصادق» من أجلّ دعاته، فأصابه ما أصاب المغيرة، فكفر وادعى أيضاً النبوّة، وزعم أن جعفراً إله، واستحل المحارم، وعطل الشرائع، وانسلخ عن الإسلام. وكان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه وقالوا: يا أبا الخطاب خفف علينا، فيأمرهم بتركها حتى تركوا جميع الفرائض، واستحلوا جميع المحارم، وارتكبوا المحظورات، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور، وقال:

من عرف الإمام فقد حلّ له كل شيء، فبلغ أمره الإمام جعفر، فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه وتبرأ منه، وجمع أصحابه فعرفهم بذلك وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه.

قال المفضل بن عمرو: دخلت يوماً على الإمام جعفر بن محمد «الصادق» فرأيته مقارباً منقبضاً مستعبراً فقلتُ له: مالك جعلت فداك؟ فقال:

سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً... أي مفضّل... زعم هذا الكافر الكذاب اني أنا الله... فسبحان الله ولا إله إلا هو ربي ورب آبائي. فهو الذي خلقنا وأعطانا وخولنا... اخرج إلى هؤلاء يعني أصحاب أبي الخطاب وقل لهم: إنا مخلوقون وعباد مربوبون.

وروي عن الإمام جعفر بن محمد (الصادق) أن سديراً الصيرفي سأله فقال له:

جعلت فداك... إن شيعتكم اختلفت فيكم فأكثرت، حتى قال بعضهم: إن الإمام ينكت في اذنه، وقال آخرون: يوحى إليه... وقال آخرون: يقذف في قلبه، وقال آخرون: يرى في منامه، وقال آخرون: إنما يفتي بكتب آبائه. فبأي قول آخذ جعلت فداك؟

فقال: لا تأخذ بشيء من قولهم يا سدير.. نحن حجج الله وأمناؤه على خلقه، حلالنا من كتاب الله، وحرامنا منه.

وروي: أن العيص بن المختار دخل عليه فقال: جعلت فداك.. ما هذا الاختلاف بين شيعتك؟ فقال: أي اختلاف يا عيص؟ قال: ربما اجلس في

حلقتهم بالكوفة، فأكاد أشك لاختلافهم وحديثهم، فأرجع إلى المفضل فأجد عنده ما أريد فأسكن إليه...

فقال: أجل.. هو كما ذكرت... إن الناس أغروا بالكذب علينا، حتى كأن الله عز وجل افترضه عليهم، لا يريد منهم غيره، وإني لأحدث أحدهم الحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله عليّ على غير تأويله، وذلك إنهم لا يطلبون ديناً، وأنتم تطلبون الدين، وإنما يحبُّ كل واحد منهم أن يكون رأساً.. أي عيص.. ليس من عبد رفع رأسه إلا وضعه الله، وما من عبد وضع نفسه إلا رفعه الله وشرفه.

وكان في عصر، المهدي بالله. بعض الأقوام من أهل البصائر في الدين، ومن أجِلَّة المؤمنين، وممن تقدم لهم العناء والجهاد. وكانوا يدعون إلى الله وإلى وليه، ولكن الشيطان استذلهم كما استذل من ذكرنا من قبلهم، فاستهواهم وأركسهم وأرداهم فختم لهم بالشقوة وقتلوا على النفاق والضلالة، وانسلخوا من الدين جملة، نعوذ بالله من الضلالة، ونسأله العصمة.

وقال الفيلسوف الإسماعيلي الكرماني في رسالته «تنبيه الهادي والمستهدي»:

«إن أعظم الفرق ضلالة هي فرقة «الغلاة» التي ضلت وأضلت غيرها فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة».

وقال الإمام المنصور بالله، وكان عالماً بالنجوم:

«والله ما نظرت فيها إلا طلباً للعلم، وتوحيد الله، وتأثير قدرته، وعجائب خلقه، ولقد عاينت من الحروب وغيرها، فما عملت في شيء من ذلك باختيار مني دلائل النجوم، ولا التفت إليه».

وقال القاضي النعمان بن حيون أيضاً:

«فإنا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون الصادون عن أولياء الله الزاعمون إنهم يعلمون الغيب».

وقال الإمام القائم بأمر الله:

«إنما يذهب إلى جهنم، من انتسب إلينا، وقال عنا أننا نعلم الغيب وما تخفي الصدور».

وهكذا فإننا نرى أن الإسماعيلية لا يختلفون عن غيرهم من المسلمين، فهم يتبرأون من الغلاة، ويحرمون ما حرمه الله، ويتجنبون المآثم والمعاصي... ويقولون بأن الإمام مكوَّن من جسم ونفس، وبعد موته يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه، فالجسم الترابي يعود إلى

التراب، والنفس اللطيفة تعود إلى ما يناسبها ويجانسها. وها هو أكبر داع من دعاتهم هو المؤيد في الدين يدافع ويعلن عن اعتقاده.

فكيف شرع الأنبياء ندفعُ ... وما لنا إلا النبي مرجعُ
بنوره في الدرجات نرتقي ... وبالكرام الكاتبين نلتقي
يا رب فالعن جاحدي الشرائع ... وارمهم بأفجع الفجائع
والعن إلهي غالياً وقالياً ... ولا تذر في الأرض منهم باقيا

ورأينا رجالاً أيضاً كانوا ممن شملتهم الدعوة، وكانت لهم البصيرة والولاية. والحظوة والأعمال الصالحة، ثم ارتكبوا العظائم، واستحلوا المحارم، وعطلوا الفرائض، واستخفوا بالدين، وصاروا إلى حال من قدمنا ذكرهم من المبدلين الضالين، فعاقبهم الإمام المهدي بالله أشد العقوبة، وأنزل بهم سوء العذاب كلاً بقدر استحقاقه، وانتحاله، وكفره، فقتل قوماً صبراً، وصلب آخرين، وأبقى قوماً في السجون مصفدين حتى هلكوا أجمعين، واغلق باب دعوته، وحجب رحمته زمناً طويلاً حتى امتحن المؤمنين وميز الخيرين من المنافقين، وكان من أمره في ذلك ما لو ذكر عنهم لكان منهم سيرة، وكتباً كثيرة.

وسمعنا ولي الله المنصور بالله يقول:

> لما قبض الله جل ذكره المهدي بالله إليه، وأفضى الأمر من بعده إلى القائم بأمر الله... ذكر يوماً بعد ذلك أمر الأئمة، والحاد من الحد فيهم، فتنفس الصعداء، وانقبض، وظهرت عليه الخشية، ونحن بين يديه، ورأينا أثر الخوف عليه، ثم قال: إنا لله، وإنا إليه راجعون... وذكر المنصور بالله عنه كلاماً لم نقف على حفظه ومعناه: التعوذ بالله من شر الناس، وما يتأولونه عليه، وينتحلون فيه.

ثم قال:

> قد كنت عندهم بالأمس ولي عهد المسلمين، فكأني بهم اليوم قد جعلني بعضهم رباً، وجعلني بعضهم نبياً وقال بعضهم: إني أعلم الغيب، وقال آخرون: يأتيني الوحي... ثم قال لنا المنصور بالله: مثل هذا فأذيعوه عنا وانشروه، واستعبر باكياً، ورأينا أثر الخشية فيه من خوف الله. وقال: مثل هذا فاذكروا وانشروا، فإنما نحن عباد من عباد الله، وخلق من خلقه، ولكن لنا منزلة أكرمنا بها بأن جعلنا أئمة عباده، وحججه على خلقه.

وورد في كتاب «المجالس والمسايرات» خطاب وجهه الإمام المعز لدين الله، إلى قاضي قضاته «النعمان بن حيون» يقول فيه:

> «إنه انتهى إليك وإلينا، قولهم إننا ندفع نبوءة محمد (ص)، وندعي

النبوءة بعده، وندفع سنته وشريعته، وندعو إلى غيرها، فلعن الله من قال بهذا وانتحله وادعاه، ومن تقوله علينا ورمانا به، ونسبه إلينا..

وقال الإمام المعز لدين الله:

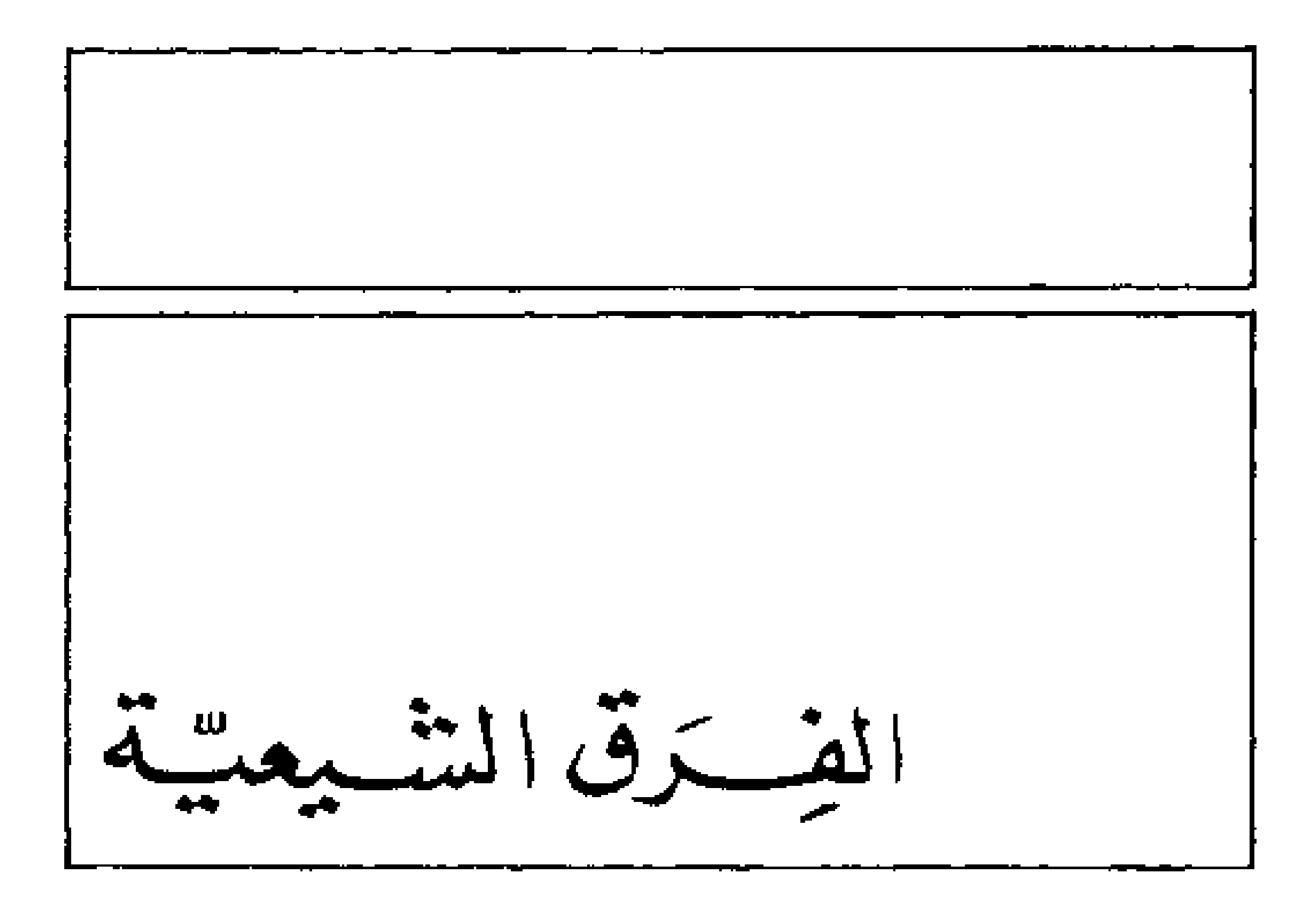
ما أَلْحَدَ فينا، ولا أراد إدخال النقص على شيء من أمرنا أحد، إلا ابتلاه الله في عاجل الدنيا ببلاء يكون نكالاً.

وقال المؤيد في الدين داعي الدعاة في «مجالسه المؤيدية»:

من دان بآلهية البشر، ممن مضى ومن غبر، خاب في الدارين وخسر، وما فيه عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تذكر، فاستعيذوا بالله من الوقوف في موقف شركهم، وإطلاق الألسن بمثل افترائهم وكذبهم..

وقال أيضاً في «مجالسه المؤيدية»:

وجانبوا الغلو فيهم، فإن الغالي هالك، وفي وادي سقر سالك، واعلموا أن أولياء الله من طينة الأرض معجونون، وللكون والفساد من حيث أجسامهم مضمونون، يمسكهم الشراب والطعام، وتلحقهم الأمراض والآلام، ويقضي عليهم عند استيفاء أيامهم الحمام،لا كما زعم الزاعمون من الجهلة الذين تسببوا في اعتقادهم السخيف إلى الراحة، وإطراح التكليف، إنهم مترددون برداء الإلهية، وفي قولهم من الخلل ما لا يعلق بقلب، ولا ينطوي على ذي لب.



الفِـرَق الشّـيعيّـة

ينسب للرسول الكريم (ص) قوله: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» وهو حديث نرى ردّه وتضعيفه فالكهانة ليست من شأن الرسول فضلاً عن أن التاريخ لم يدعمه، فالمعروف عن الفرق في الإسلام أنها نوّفت على المائة، ولم تكن حصة الشيعة بالضئيلة على الإطلاق وإن اختلف كتّاب الفرق كالاشعري والشهرستاني وعبد الجبار والمقريزي وابن حزم وسواهم في عددها. والذي نحن بصدده الآن هو ذكر الفرق ذات الصلة ببحثنا ونبذ تلك التي عفا عليها الدهر فلم يبق لها أثر يذكر.

أ. الحنفية «الحنفية» مجموعة شيعية أتباع محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية. وقد كانت لهم الصدارة في مجال الأعمال السياسية، وخاصة بعد مقتل الحسين بن علي سنة ٦١ هـ. ومن هذه المجموعة تفرقت فرق عديدة أهمها:

١ - **الكيسانية**: ظهرت الكيسانية بعد الثورة التي أشعلها المختار ابن أبي عبيد على عامل الزبير في الكوفة. ومن الواضح أن هذه الفرقة اعتبرت محمد بن الحنفية المهدي المنتظر، وأعلنت ذلك على الملأ سنة ٦٦ هـ الموافق سنة ٦٨٥ م. وأخيراً: قتل المختار المذكور، وتوفي محمد بن الحنفية ولكن أتباعه قالوا: إنه لم يمت، بل هو في الغيبة والاستتار، وسيعود ليملأ الدنيا عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، ومن اعتقاداتهم فيه قولهم: إنه مقيم في شعب من جبل «رضوى» في الحجاز مع أربعين من حججه، وهم أحياء يرزقون. ويقول الشاعر «كثير عزّة» مؤيداً ذلك، وكان من أعضاء هذه الفرقة:

ألا إنَّ الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
عليٌّ والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاءُ
فسبطٌ سبط إيمان وبرٍّ وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيّب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

٢ ـ **الابوهاشمية**: فرقة شيعية ساقت الإمامة في محمد بن الحنفية وفي ولده أبو هاشم من بعده. وبعد وفاته افترقت إلى عدة فرق، فمنهم من ساقها في أخيه علي ثم في ابنه الحسن بن علي، ومنهم من زعم أن أباهم أوصى بها قبل أن يموت إلى محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس حين كان منصرفاً من الشام، ومحمد هذا أوصى إلى ابنه ابراهيم الملقب بـ «الإمام». أما ابراهيم فقد أوصى إلى أخيه عبدالله ابن الحارث. ومن الجدير بالذكر أن أبا هاشم هو الذي تنازل عن الإمامة طوعاً لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وذلك في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، مدعياً أن ليس بين العلويين من يصلح لإقامة الدعوة العلوية أو تبوّء منصب الإمامة. ومن الواضح أن هذه الفرقة ظلّت على إخلاصها للعباسيين، وتنكرت لأبناء عمومتها الحسينيين إلى أن صرعهم أبو جعفر المنصور. وعندئذٍ عادوا واندمجوا بالإسماعيلية.

ومهما يكن من أمر... فإن عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح أوصى بعدئذ إلى أخيه أبي جعفر عبدالله بن محمد الملقب بـالمنصور، وانتقلت أخيراً إلى ولده بالنص والعهد واحداً عقب واحد إلى آخر السلالة العباسية. ومن جهة أخرى فإن أبا هاشم باغتصابه أمر الخلافة من بني عمه الحسنيين وتنازله عن الإمامة إلى العباسيين قد أضاع على العلويين فرصة الاستيلاء على الخلافة من الامويين، كما ساعد على تفككهم، ومكن العباسيين من قلب الدولة الأموية، والاستئثار بالخلافة دون العلويين.

٣ ـ **الراوندية**: هي من فروع الفرقة الحنفية التي زعمت أن أبا هاشم أوصى بالإمامة إلى محمد بن علي بن العباس في مدينة دمشق، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفرقة ساهمت بإبعاد الحسينيين، ومهّدت لقيام العباسيين بأن ساعدتهم وأفسحت لهم المجال للوصول إلى

مركز الخلافة الإسلامية. بعضهم لا يعتبرها من الفرق الشيعية لأن في مبادئها ما يدل على أنها خارجة عن الإسلام.

٤ ـ **الحارثية**: من الفرق الحنفية أيضاً التي قالت إن أبا هاشم قد أوصى بالإمامة إلى عبد الله بن معاوية الذي ينتسب إلى أبي طالب والد الإمام علي. أما عبدالله بن الحارث هذا الذي تنتسب الحارثية إليه، فكان غالباً من أهل المدائن، وقد أوجد فرقة خاصة به، ثم انضم أخيراً إلى عبدالله بن معاوية. ويظهر أن الفرقتين هما نفس الحزبية والجناحية.

٥ ـ **البيانية**: فرقة حنفية الأصل قالت: إن الإمام القائم المهدي المنتظر هو أبو هاشم، وسيعود فيما بعد، ولا وصي بعده، ولكن «بيان ابن سمعان التميمي» ادعى أنه خليفته من بعده، فقبض عليه وصلب سنة ١١٩ هـ الموافق سنة ٧٣٧ م.

٦ ـ **الكربية**: هم أصحاب ابن كرب الضرير، وحمزة بن عمار البربري. وقد زعم هؤلاء أن محمداً بن الحنفية لم يمت، وإنما هو في كهف الغيبة والاستتار، وسيعود ليملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. ومن الجدير بالذكر أن حمزة هذا قد ادعى فيما بعد أن محمد بن الحنفية **هو الله**، وأنه هو نبيه، وتذكر المصادر التاريخية أنه ظهر من هذه الفرقة رجلان كان لهما شأن، ويقال لأحدهما صائد، وللآخر بيان، ومن الجدير بالذكر أن عدداً من الفرق انبثقت عن الكربية.

٧ ـ **الحميرية**: من الفرق الحنفية أيضاً التي قالت: إن محمد بن الحنفية غائب في جبل رضوى بالحجاز، وسيعود بعد الغيبة ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وكان السيد الحميري المتوفي سنة ١٧٣ هـ قد ادعى أنه خليفة محمد بن الحنفية، والقائم مقامه.... وهو القائل:

سنين وأشهرا ويرى برضوى	بشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعين	وحفان تروح خلال ربد
تراعيها السباع وليس منها	ملاقيهن مفترساً بحدّ
أمنّ به الردى فرتعن طورا	بلا خوف لدى مرعى وورد

٨ ـ **العميرية**: هذه الفرقة انشقت من البيانية بعد موت أبي هاشم، وبعد ادعاء بيان بن سمعان بالخلافة. ومما يذكر أنها نادت بإمامة عمر بن بيان العجيلي.

ب. الحَسَنية «الحسنية» فرقة شيعية إمامية تنسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وولده فيما بعد، وقد تفرع من هذه الفرقة فرق عديدة، أجدرها بالذكر وأهمها:

١ ـ **المغيرية**: نصّب محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي الملقب بـ «النفس الزكية» نفسه إماماً، وذلك ما بين سنتي ١٠٠ إلى ١٤٥ هـ الموافق لسنتي ٧١٨ إلى ٧٦٢ م. كما ادّعى أنه «المهدي المنتظر» لما تجاوز التاسعة عشرة من عمره. وكان يبشر بهذه الأفكار والادعاءات «المغيرة بن سعيد العجلي» الذي ادعى أنه نبيه، فلما قتل محمد قال أتباعه: إنه في الستر والغيبة وسوف يعود... ومما يذكر: أن خالد القسري قتل المغيرة وأحرقه بالنار حينما علم بأمره وكان ذلك سنة ١١٩ هـ أو سنة ٧٣٧ م.

٢ ـ **المنصورية**: فرقة انشقت من الحسنية الرئيسية، فقد قالت بإمامة أبي منصور العجلي الذي ادعى أنه خليفة محمد «النفس الزكية»، وأنه أوصى له بالإمامة من بعده.

٣ ـ **المحمدية**: فرقة من فرق الحسنية التي قالت بإمامة النفس الزكية، ومن الجدير بالذكر أنها بادت ولم يعد لها أي أثر بعد مقتل المغيرة بن سعيد العجلي.

ج. الزيدية فرقة شيعية إمامية قالت بإمامة الحسن بن علي ثم بابنه الحسن «المثنى» وأخيراً بزيد وهو صاحب هذا المذهب. مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الفرقة في بدء أمرها قالت بإمامة الحسن المثنى بن الحسن ثم بابنه عبدالله ثم بأخيه ابراهيم ثم باسماعيل ثم بابراهيم طباطبا. ومن الزيدية الأم تفرع: بنو الحسن، وبنو طباطبا، والرسبيون، وبنو المطوق، وبنو تج واسمه الحسن، وولد الهادي باليمن الذي كانت له الإمارة بالديلم، وولد الناصر الحسني الذي كان باليمن أيضاً وغيرهم.

من أئمة هذه الفرقة البارزين: محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن السبط، ويقال له «النفس الزكية» وقد مر ذكره. ومن المعروف أنه خرج من الحجاز، ولقب نفسه بالمهدي، فجاءته عساكر المنصور العباسي وقتلوه، وبعد قتله عهد أتباعه إلى أخيه بالإمامة، فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي، فوجه إليهم المنصور عساكره فهزموهم وقتلوا ابراهيم وعيسى. وكان الإمام جعفر بن محمد «الصادق» قد أخبرهم ونصحهم بالإخلاد إلى الراحة والصبر فلم يسمعوا منه، وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبدالله «النفس الزكية» هو: محمد بن القاسم بن علي بن عمر، وهو أخو زيد ابن علي. ومن المعلوم أنه خرج إلى الطالقان في بلاد فارس، ودعا لنفسه بالإمامة فقبض عليه، وسيق إلى المعتصم العباسي حيث أودعه السجن إلى أن مات. وقال آخرون: إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبدالله في قتاله مع المنصور، وقد تقلد الإمامة في عقبه، وإليه انتسب صاحب «الزنج» فيما بعد.. وقال آخرون:

> إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه ادريس الذي فرَّ إلى المغرب ومات هناك وقد قام بالأمر بعده ابنه ادريس الذي اختطّ مدينة فاس بالمغرب، وكان من عقبه أدارسة المغرب الذين لعبوا دوراً مهماً في سياسة المغرب، ثم انتهت دولتهم أخيراً على أيدي الفاطميين.

والزيدية كما تدل المصادر التاريخية كانت أحوالهم غير مستقرة، فمنهم الإمام الذي ملك طبرستان، وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط، وأخوه محمد بن زيد، وهو الذي قام بالدعوة في اليمن، ومنهم الناصر الأطروش. وقد أسلموا على يده، وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر، وعمر هو أخو زيد بن علي، وقد كانت لبنيه في طبرستان دولة، ثم توصل من كان منهم بالديلم إلى الملك والتحكم في الخلافة العباسية في بغداد كما يذكر التاريخ.

ومهما يكن من أمر... فالفرقة الزيدية هي من الفرق الشيعية الإمامية، ولا تزال سائرة على النهج الإمامي حتى يومنا هذا، وموطنها في اليمن والحجاز والمحميات، وتتفرع منها فرق أربع هي:

١ ـ **الجارودية**: من الفرق الزيدية التي اتبعت «أبو الجارود» المعروف بزياد بن المنذر... وهذا الرجل ادّعى الإمامة لنفسه.

٢ ـ **السليمانية او الجريرية:** فرقة تفرعت من الزيدية، وسارت وراء سليمان بن جرير الزيدي الذي قال بأن الإمامة يجب أن تكون شورى وسبيلها العقد، ورأت في إمامة الشيخين خطأً لا يستحق اسم الكفر.

٣ ـ **البترية:** فرقة أخرى من الزيدية هم أصحاب الحسن بن صالح بن حي الذي كان يلقب بالأبتر. وهم يصححون بيعة أبي بكر وعمر ويفضلون علي بن أبي طالب ويتوقفون في الحكم على عثمان.

٤ ـ **اليعقوبية:** فرقة تفرعت من الزيدية، واتبعت رجلاً اسمه يعقوب، وكان من المجتهدين ثم لم يلبث أن ادعى الإمامة.

د. الجعفرية الإمامية

وهي المجموعة الشيعية الكبرى التي ظلت على ولائها منذ عهد الإمام علي بن أبي طالب حتى عهد حفيده الإمام الخامس «جعفر بن محمد الصادق» وقد تفرع من هذه المجموعة الكبرى فرق عديدة.

١ ـ **الجعفرية الإثني عشرية:** فرقة من الجعفرية الإمامية، قالت بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر بن محمد الصادق، وبأولاده من بعده حتى محمد بن الحسن (المنتظر)، وهو الإمام الثاني عشر من جده الإمام علي بن أبي طالب.

٢ ـ **الخطابية:** فرقة من الجعفرية الإمامية سارت وراء محمد بن زينب الأسدي الأجدع المعروف بـ «أبي الخطّاب»... وهذه الفرقة قالت بألوهية جعفر بن محمد الصادق وبنبوّة «أبي الخطّاب». وبعد موته تحولت إلى الموسوية القائلة بإمامة موسى الكاظم بن جعفر، وأخيراً انضمت إلى الإسماعيلية.

٣ ـ **النصيرية:** فرقة من الجعفرية الإمامية، قيل إن تسميتها نسبة إلى «نصير» أحد غلمان الإمام علي بن أبي طالب، وقيل إلى محمد بن نصير البصري النميري أحد دعاة الإمام حسن العسكري المعروف بأنه الإمام الحادي عشر من فرقة الإثني عشرية.

إن هذه الفرقة تذهب في خطها الإمامي مذهب الموسوية الإثني

عشرية، ولكنها تتبع «الباطنية» في عقائدها. وقد عرف أن الحمدانيين، كانوا من أركانها أو من المؤيدين لعقائدها.

٤ ـ **المباركية**: من الفرق الإمامية الجعفرية التي انتسبت إلى «المبارك» مولى اسماعيل بن جعفر، فاعتقدت بإمامته، وتوقفت بعد موته، ثم انحازت إلى الموسوية الإثني عشرية فيما بعد.

٥ ـ **الناوسية**: جعفرية تفرعت من الخطابية، فزعمت أن الإمام جعفر بن محمد (الصادق) لم يمت ولا يمكن أن يموت، وأنه سيظل القائم الحي المهدي الذي سيعود.

٦ ـ **المحمدية**: فرقة جعفرية تفرعت من الخطابية، وقالت بإمامة محمد بن أبي جعفر الصادق.

٧ ـ **المفضلية**: فرقة جعفرية سارت وراء المفضل بن عمر الجعفي، أحد تلاميذ الإمام جعفر بن محمد الصادق وهذه الفرقة انضمت إلى الفرقة النصيرية بعد وفاة «المفضل» واندمجت فيما بعد في صفوف الفرق الباطنية.

٨ ـ **المعمرية أو اليعمرية**:من الفرق الشيعية الجعفرية التي تفرعت من الخطابية، ولكن أثرها طمس منذ ولادتها.

٩ ـ **البزيغية**: فرقة جعفرية انشقت من الخطّابية بعد موت أبي الخطّاب، وقد وقفت عند إمامة جعفر بن محمد الصادق، ولم تقل بإمامة أحد من ولده. وذكر أنها انضمت فيما بعد إلى الفرق الشيعية الأخرى.

١٠ ـ **الباقرية**: فرقة إمامية شيعية سارت وراء محمد بن علي (الباقر) الإمام الرابع بعد جده علي بن أبي طالب، وقد اعتقدت فيه أنه الإمام المنتظر الذي سيعود في يوم قريب، ولم تؤمن بإمامة ولده جعفر الصادق.

١١ ـ **الشميطية**: فرقة من الجعفرية الإمامية قادها يحيى بن شميط وقد زعمت أن الإمامة لمحمد بن جعفر الصادق وحده، وليست

لأحد من أولاده من بعده، ومما تجدر الإشارة إليه أن يحيى ادعى الإمامة لنفسه فيما بعد.

١٢ ـ **العمارية**: فرقة من الجعفرية قالت بإمامة جعفر بن محمد الصادق، ولم تقل بإمامة أحد من ولده، وقد كان يتولى قيادتها عمار الساباطي ثم ولده عبدالله وكان أفطح الرجلين.

١٣ ـ **القطعية**: فرقة شيعية ساقت الإمامة بجعفر بن محمد الصادق، ولكن أتباعها قطعوا بموت ولده موسى الكاظم زاعمين أن الإمام بعده هو محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد بن علي بن موسى الرضا، ثم أنهم توقفوا عن هذا الحد، ولم يكملوا المسيرة.

١٤ ـ **الهشامية**: فرقة قالت بإمامة جعفر بن محمد الصادق، وكان الداعي فيها يسمى «هشام بن سالم الجواليقي» وهي من الفرق التي تدخل في عداد «المجسمة» أو«الحلولية» الملحدة.

١٥ ـ **الزرارية**: فرقة جعفرية سارت وراء زرارة بن أعين. وكان من «الابطحيين» أولاً ثم أصبح موسويًا فيما بعد.

١٦ ـ **اليونسية**: من الفرق الجعفرية أيضاً، ومن أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي، وكان على مذهب «القطعية» التي قطعت بموت موسى الكاظم بن جعفر الصادق.

١٧ ـ **الشيطانية**: فرقة تفرعت من الجعفرية، وقد اتبعت محمد بن النعمان الملقب بالشيطان، وكان معاصراً لجعفر بن محمد الصادق، ثم ساق الإمامة بولده موسى الكاظم وقطع بموت اسماعيل، ولكنه انتظر عودة أسباطه.

١٨ ـ **الإسحاقية**: فرقة جعفرية كانت تتبع اسحق بن زيد بن الحارث وكان من أصحاب عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب، وكان يقول بأن لعلي بن أبي طالب شراكة بنبوة محمد... وبشّر بالتعطيل والإباحية.

هـ. الإسماعيلية الإمامية

فرقة شيعية إمامية قالت بإمامة اسماعيل بن الإمام جعفر بن محمد الصادق وبإمامة أولاده من بعده. وهذه الفرقة هي موضوع بحثنا في الأجزاء التالية من هذا الكتاب.

١ ـ **القرامطة**: فرقة تفرّعت من الاسماعيلية، وقد خرجت على قاعدة الإمامة في عهد «أئمة الستر» الذي كان قائماً في مدينة «سلمية» السورية في القرن الثاني للهجـرة.

٢ ـ **الدروز**: فرقة تفرعت من الإسماعيلية، وقد توقفت عن السير الإمامي بعهد الإمام الحاكم بأمر الله وتبنت حمزة اللبَّاد الأعجمي «هادي المستجيبين» وسيده محمد بن اسماعيل.

٣ ـ **المستعلية أو البهرة**: فرقة تفرعت من الإسماعيلية بعد وفاة الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله، فأنكرت إمامة ولده الأكبر نزار وسارت وراء ولده الأصغر «المستعلي». وقد ظلت على سيرها حتى عهد الآمر بأحكام الله وهو ابن المستعلي، وتؤكد المصادر أنه مات دون عقب، ولكن أتباعه ذكروا أنه مات وترك زوجته حاملاً بولد ولد فيما بعد واسمه «الطيب» ولكن الطيب هذا استتر منذ اليوم الأول من ولادته.. كما يقول أتباعه الذين يعرفون أيضاً بالفرقة «الطيبية».

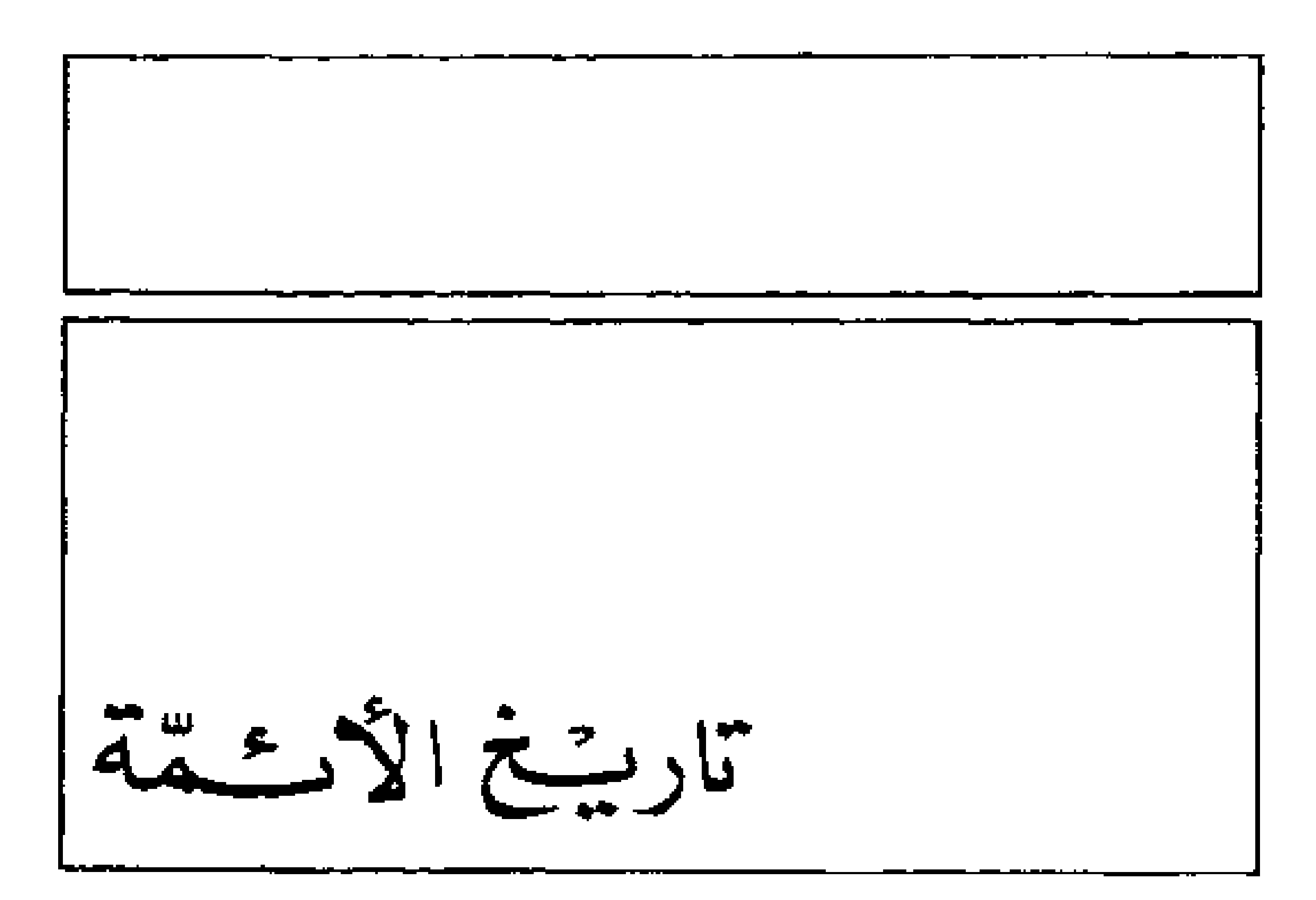
٤ ـ **الداؤدية**: فرقة تفرعت من «المستعلية» وتنتسب إلى داؤد بن عجب شاه.. الذي سمّوه «داعي مطلق»، أو نائب الإمام «الطيب».

٥ ـ **السليمانية**: فرقة تفرعت من المستعلية أيضاً، وتنتسب إلى سليمان بن الحسن الذي يطلقون عليه اسم «داعي مطلق» أو نائب الإمام المستور «الطيب» ومن الجدير بالذكر أن هذه لا تختلف عن شقيقتها الداؤدية إلا بتسلسل الدعاة المطلقين.

٦ ـ **النزارية**: فرقة اسماعيلية إمـامية قـالت بإمـامة نـزار بن المستنصر بالله.. وبأولاده من بعده وقد تفرَّع منها المؤمنيه والقاسم شاهيه.

٧ - **المؤمنية**: فرقة اسماعيلية نزارية إمامية قالت بإمامة مؤمن شاه بن الإمام شمس الدين وبولده من بعده.

٨ - **القاسم شاهية**: فرقة إسماعيلية نزارية إمامية قالت بإمامة قاسم شاه بن الإمام شمس الدين من بعده حتى آغا خان الحالي.



تاريخ الأئمّة

الأئمة العلويون

بعد هذا العرض المبسط، ننتقل إلى إعطاء لمحة موجزة عن تاريخ الأئمة الذين يتحدرون من الدوحة العلوية التي يعتبر الإمام علي بن أبي طالب رأسها وأصلها، وفي هذه الصفحات من موسوعتنا سنركز على تاريخ أربع فئات منهم، وأكثرهم لعب دوراً سياسياً، وظهر على المسرح في العهدين الأموي والعباسي وهم:

أولاً ـ الأئمة الحسنيون، وثانياً ـ الأئمة الحنفيون ، وثالثاً ـ الحسينيون، ورابعاً ـ الزيديون.

بعد ذلك سنعود إلى تاريخ الأئمة المعترف عليهم من إجماع الشيعة ابتداءً من الإمام علي بن أبي طالب حتى الإمام الخامس «جعفر بن محمد» الصادق الذي وقع في عهده انقسام الشيعة الكبير، وبعدئذٍ سنعطي لمحة تاريخية عن أئمة الفرقة «الإثني عشرية» حيث لا يبقى علينا سوى الدخول إلى المدينة الإسماعيلية بدءاً بعهد اسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق حتى النهاية، وبذلك نكون قد حققنا ما خططنا له.

وقدمنا صورة واضحة عن الإمامة في الإسلام بعد أن كنا عرضنا تاريخ الخلافة، وكل هذا اعتبرناه مقدمات تؤدي إلى «الاسماعيلية» التي هي موضوعنا.

أ. الحسنيون وهم المتحدرون من الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب.

١ ـ الحسن المثنى بن الحسن: هو الابن الأكبر للإمام الحسن ابن علي بن أبي طالب. ولد سنة ٣٤ هـ بالمدينة. أمه مليلة بنت خارجة

ابن سنان. لقبه الحسن المثنى، كان جريئاً ومغامراً، وعلى جانب كبير من الوسامة. أبلى بلاء حسناً في حرب كربلاء، وكان يتلقى النبال التي تصوب إلى عمه الإمام الحسين بصدره. يعتبر الإمام الثاني بعد والده الحسن في نظر الحسنيين.

٢ - **عبدالله بن الحسن**: ولد في المدينة سنة ٥٤ هـ. لقبه «عبدالله المحض» كنيته أبو محمد. كان شيخ الهاشميين في عصره وحجتهم. لعب دوراً بارزاً على مسرح الأحداث الإسلامية، وكان من العلماء البارزين الذين تفوقوا في الفقه والحديث، والتفسير والبلاغة. قتل في المدينة سنة ٩٧ هـ، ودفن فيها. خاصمه وناصبه العداء ابن عمه، زيد بن علي بن الحسين «زين العابدين».

٣ - **إبراهيم بن عبدالله**: ولد سنة ٨٩ هـ في المدينة، هو ابن عبدالله بن الحسن المثنى. خرج إلى البصرة يطالب بالخلافة، فطلبه أبو جعفر المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ، وقتله بسهم عابر.

مما يجب أن يذكر أن الإمام جعفر بن محمد (الصادق) ضاق به، وبمحمد بن عبدالله وهو أخوه المعروف بالنفس الزكية ذرعاً. فنصحهما بالخلود إلى السكينة، وعدم تحريك النار، وإهراق الدماء، ولكنهما لم يستجيبا، فعنفهما، وتبادل معهما كلمات جارحة، وأخيراً وقع ما توقعه فقتلا كما تنبأ الإمام جعفر، وانضم أتباعهما إلى الحسينيين.

يعتبر تخلي الإمام جعفر الصادق عن مساعدة (النفس الزكية) وأخيه، وعدم الاعتراف بزعامتهما سبباً من الأسباب التي شجعت الخليفة العباسي الهادي على قتلهما، والتمثيل بجثتيهما في موقعة «فخ» ١٦٩ هـ.

٤ - **محمد بن عبدالله**: (**النفس الزكية**) ولد سنة ٨٧ هـ. في المدينة عندما أحاطت عساكر عيسى بن موسى ابن أخي المنصور العباسي بالمدينة. كان (النفس الزكية) يدعو لنفسه بالخلافة، فلم يشأ الهرب بل خرج يباشر الحرب بنفسه، وكان معه قلة من الناس، وبالرغم من أنه عرف أنه ميت ظلّ يقاتل حتى استشهد.

كانت معركته أشبه بمعركة حمزة بن عبد المطلب، فقد رمي بالسهام

مدة بعد أن لم يتجاسر أحد على الدنو منه، وحينما دهمته الخيل وقف إلى «جزر»، فتحاماه الناس، وعندما تيقّن من الموت تحامل على سيفه فكسره... كان مقتله في المدينة سنة ١٤٥ هـ.

هو الابن الأكبر لعبد الله بن الحسن المثنى.. كان حديث الناس في عصره، ومضرب الأمثال بالشجاعة الفائقة، والرجولة النادرة. حمل رأسه إلى المنصور العباسي.

٥ ـ **إدريس بن عبدالله**: هو إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. يقال له: إدريس الأول. شهد وقعة «فخ»، وهو واد في مكة، وقد جرد لها الهادي العباسي كل جيوش الدولة العباسية للقضاء على أتباع محمد بن عبدالله (النفس الزكية). اضطر إدريس إلى الاختفاء بعد المعركة مدة ثم فر إلى مصر، ومنها إلى المغرب حيث استطاع أن ينشىء أول دولة علوية وذلك سنة ١٧٢ هـ، وقد ظلت هذه الدولة تحكم المغرب الأقصى مدة طويلة إلى أن ازالها المعز لدين الله الفاطمي.

٦ ـ **يحيى بن عبدالله**: نجا يحيى بن عبدالله مع من نجا من وقعة «فخ» فسار إلى بلاد الديلم، وفيها تعزز نفوذه، وكثر أنصاره، فندب الرشيد العباسي لقتاله الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي في خمسين الفاً غير أن الفضل صانعه ولاطفه حتى أجاب إلى الصلح، على أن يكتب له الرشيد أماناً فكتبه، وأشهد عليه الفقهاء، والقضاة، ومشائخ بني هاشم، ثم أتى إلى بغداد، فأقام بمنزل يحيى بن خالد أياماً ثم دفعه إلى جعفر البرمكي فحبسه، وأكرمه في سجنه، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن أحد الأسباب في نقمة الرشيد على البرامكة معاملة جعفر الطيبة ليحيى بن عبدالله. قتل سنة ١٧٦ هـ. في بغداد.

ب ـ الحنفيون هؤلاء هم أتباع محمد بن علي بن أبي طالب من زوجته «الحنفية». وقد نادى بالإمامة، وعمل لها.

١ ـ **محمد بن الحنفية**: ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب سنة ٤٢ هـ. هو ابن الإمام علي بن أبي طالب. أمه هي خولة بنت قيس بن جعفر الحنفي من قبيلة حنيفة. كان يكنى «أبا

القاسم، أولاده هم: الحسن بن محمد، وعبدالله (أبو هاشم)، وجعفر الأكبر، وحمزة، وعلي، وجعفر الأصغر وعون، وإبراهيم، وأشهرهم أبو هاشم. كان غزير العلم، والورع، شديد البأس، شجاعاً، ومقداماً.

ظهر في حرب الجمل، وقد أوكل إليه والده حمل الـراية، وشق الصفوف، ولكنه تقاعس فحمل والده على الأعداء، وشق الصفوف، ثم عاد ليقول له: هكذا إفعل يا ابن الحنفية.

توفي سنة ٨١ هـ. وقيل في المدينة، وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان وكان والي المدينة، وقيل إنه خرج من الطائف هارباً من ابن الزبير فمات هناك، وقيل إنه مات في بلاد «أيلة».

٢ - **عبدالله بن محمد (أبو هاشم)**: ولد سنة ٦٩ هـ، هو الابن الثاني لمحمد بن الحنفية، قبل وفاته أوصى بالإمامة إلى محمد بن علي ابن عبدالله العباسي، وكان ذلك في عهد خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي، مدعياً أن ليس بين العلويين من يصلح لإقامة الدعوة العلوية.

يعتبر المغتصب لحقوق أبناء الحسينيين، وأن تنازله عن الإمامة للعباسيين قد أضاع على العلويين فرصة الاستيلاء على الخلافة الزمنية من الأمويين، كما ساعد على تفككهم، ومكن العباسيين من قلب الدولة الأموية، والاستئثار بها دون العلويين.

مات سنة ١١٩ هـ، بأرض «السُراة»، وكان منصرفاً من الشام.

ج - الحسينيون الثلاثة:

هؤلاء الأئمة الثلاثة الذين نكتب موجزاً عن حياتهم، يتحدرون من الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب. وهم:

١ - **زيد بن علي بن الحسين**: كنيته أبو الحسن، أمه «أم ولد» أهداها المختار بن أبي عبيدة إلى والده علي بن الحسين (زين العابدين) فولدت زيداً. كان زاهداً عابداً مثل والده. وقد أثر السجود في جبينه.

جاء إلى الكوفة ومنها إلى القادسية معرضاً بالخليفة الأموي «هشام ابن عبد الملك» وهناك ألحوا عليه بالبقاء، وأعطوه العهود والمواثيق،

وكان عددهم خمسة عشر ألفاً، فأقام في الكوفة يرسخ قواعد دعوته، ويرسل دعاته إلى كل مكان.

قتل يوم الجمعة في شهر صفر سنة ١٢١ هـ/ ٧٤٠ م.

٢ ـ **يحيى بن زيد**: أمه «ربطة بنت أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية». لما دفن والده رجع وأقام في مقبرة السبيع، ولكن الناس تفرقوا عنه، فلم يبق معه إلا عشرة نفر، فذهب بهم إلى نينوى ثم إلى المدائن، ومنها خرج إلى الري حتى أتى سرخس، وهناك حمل عليه عمرو بن زرارة وقتل أصحابه كلهم. أما هو فقد أصابه سهم في جبهته كما ذكرنا رماه به رجل من موالي «عنزة» يقال له عيسى، ومما ذكر أنه صلب على باب مدينة جوزجان بخراسان سنة ١٢٥ هـ.

٣ ـ **عيسى بن زيد**: هو الأخ الأصغر ليحيى بن زيد. أمه ربطة بنت أبي هاشم بن عبدالله بن محمد بن الحنفيَّة. كان في البصرة عندما جاءت عساكر المنصور لقتاله. دعا لنفسه بالإمامة بعد مقتل أخيه. ذكرت بعض المصادر: أن الزنج قد أرادوا الانتساب إليه، والتقرب منه في أعمالهم وثورتهم.

د. الزيديون (العمد الأول)

١ ـ **إبراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن المثنى**: تعتبره الزيدية المؤسس الأول للإمامة الزيدية.

٢ ـ **محمد بن طباطبا**: أحد أئمة اليمن ولد سنة ٧٣ هـ. توفي سنة ١٩٩ هـ. وله من العمر ١٢٦ عاماً.

٣ ـ **أبو محمد القاسم الرسي ترجمان الدين بن ابراهيم بن طباطبا**: ولد سنة ١٦٩ هـ. وتوفي سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م. عمر ٧٧ عاماً. تولى الإمامة بعد موت أخيه محمد، وسمي «الرسي» لأنه مات «بالرس»، وهو واد بنجد بالقرب من «ذي الحليفة»، وهي قرية على بعد ستة أو سبعة أميال من المدينة.

٤ ـ **الحسين بن القاسم**: حكم سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م.

٥ - **يحيى بن الحسين بن القاسم (الهادي أبي الحق)**: ولد سنة ٢٤٥ هـ. توفي سنة ٢٩٨ هـ. حكم سنة ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م. خرج في عهد المأمون العباسي، وملك ما بين صعدة وصنعاء في اليمن، ووقعت بينه وبين عمال بني العباس معارك دامية. خطب له في مكة سبع سنين. كان عالماً جليلاً. ترك مؤلفات عديدة قيمة.

٦ - **محمد بن يحيى المرتضى**: اعتزل الحكم سنة ٣٠١ هـ، وتوفي سنة ٣١٠ هـ. حكم سنة ٢٩٨ هـ/ ٩١١ م.

٧ - **أحمد بن يحيى (الناصر)**: توفي سنة ٣٢٥ هـ. حكم سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٤ م.

٨ - **الحسين بن أحمد (المنتخب)**: توفي سنة ٣٢٥ هـ.

٩ - **القاسم بن أحمد (المختار)**: حكم سنة ٣٢٤ هـ/ ٩٣٦ م.

١٠ - **يوسف بن يحيى (المنصور الداعي)**:

١١ - **القاسم بن علي الألياني (المنصور)**: توفي سنة ٣٩٣ هـ/ .

١٢ - **الحسين بن القاسم (المهدي)**: حكم سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٣ م.

١٣ - **جعفر بن القاسم**:

١٤ - **الحسن بن عبد الرحمن**: حكم سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥ م.

١٥ - **الناصر بن الحسين بن محمد (أبو الفتح الناصر الديلمي)**: حكم سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩ م. قتله الملك علي الصيلحي الإسماعيلي سنة ٤٤٧ هـ.

١٦ - **أحمد بن سليمان بن محمد (المتوكل)**: حكم سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٥٠ م. توفي سنة ٥٦٦ هـ.

١٧ - **علي بن حاتم**: هزمه تورانشاه الأول الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ/ حكم سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م.

١٨ - **عبدالله بن حمزة العهد الثاني (المنصور)**: ولد سنة ٥٦١ هـ. توفي سنة ٦١٤ هـ. حكم سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م. استرد صنعاء سنة ٥٩٤ هـ.

١٩ ـ **يحيى بن حمزة يحيى الهادي إلى الحق (الثاني)**: مات سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م في صعدة.

٢٠ ـ **محمد بن عبدالله الناصر**: أقام في صعدة اليمنية حتى سنة ٦٢٣ هـ حكم سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م.

٢١ ـ **أحمد بن الحسين (المهدي الموطا)**: حكم سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م. مات سنة ٦٥٦ هـ.

٢٢ ـ **شمس الدين أحمد بن عبدالله بن حمزة (المتوكل)**: حكم سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م.

٢٣ ـ **المنتصر داؤد**: فرع من قرابة بعيدة. نسب مشكوك فيه. حكم سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م.

٢٤ ـ **أحمد الإمام**: حكم سنة ٦٤٦ هـ.

٢٥ ـ **أبو محمد الحسن**:

٢٦ ـ **يحيى بن محمد**:

٢٧ ـ **حسين بن فلان**:

٢٨ ـ **إبراهيم بن أحمد**: حكم سنة ٦٠٧ هـ.

٢٩ ـ **المطهر بن يحيى**: كان ضد «المنتصر داؤد» توفي سنة ٦٩٧ هـ.

٣٠ ـ **محمد بن المطهر**: حكم سنة ٦٩٧.

٣١ ـ **المطهر بن محمد**:

٣٢ ـ **صلاح الدين بن المطهر**:

أئمة صنعاء الزيديون:

٣٣ ـ **القاسم المنصور بن محمد بن علي بن محمد**: مات في سنة ١٠٢٩ هـ. حكم سنة ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩٢ م.

٣٤ ـ **محمد بن القاسم المؤيد**: مات سنة ١٠٤٥ هـ. حكم سنة ١٠٢٩ هـ/ ١٦٢٠ م.

٣٥ ـ **اسماعيل بن القاسم المتوكل**: مات سنة ١٠٨٧ هـ. حكم سنة ١٠٥٤ هـ/ ١٦٥٤ م.

٣٦ - **أحمد بن القاسم**: طالب بالحكم من سنة ١٠٥٤ هـ إلى سنة ١٠٥٥ هـ.

٣٧ - **أحمد بن الحسن**: مات سنة ١٠٩٧ هـ. حكم سنة ١٠٨٧ هـ. محمد المؤيد الثاني ١٠٨٧ هـ/ ١٦٧٦ م.

٣٨ - **محمد بن اسماعيل الهادي**: مات سنة ١٠٩٧ هـ. حكم سنة ١٠٩٢ هـ/ ١٦٨١ م.

٣٩ - **محمد بن أحمد بن الحسن المهدي**: حكم سنة ١٠٩٧ هـ. سنة ١٦٨٦ م.

٤٠ - **يوسف بن اسماعيل**: ادعى لنفسه بالحكم لفترة قصيرة سنة ١٠٩٧ هـ.

٤١ - **محمد بن الحسين**:

٤٢ - **القاسم بن الحسين بن أحمد**: حكم سنة ١١٢٨ هـ/ ١٧١٦ م.

٤٣ - **الحسين المنصور**: حكم سنة ١١٣٩ هـ. ١٧٢٦ م (للمرة الأولى).

٤٤ - **محمد بن علي بن الحسين (الهادي المجيد)**: حكم سنة ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٦ م.

٤٥ - **الحسين بن المتوكل (المنصور)**: للمرة الثانية، حكم ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٨ م.

٤٦ - **العباس بن الحسين بن المهدي**: حكم سنة ١١٦٠ هـ/ ١٧٤٧ م.

٤٧ - **المنصور علي**: حكم سنة ١١٩٠ هـ/ ١٧٧٦ م.

٤٨ - **أحمد بن الحسين المهدي**: حكم سنة ١٢٢١ هـ/ ١٨٠٦ م.

٤٩ - **المنصور علي**:

٥٠ - **المهدي القاسم**: حكم سنة ١٢٥٧ هـ/ ١٨٤١ م.

٥١ - **محمد بن يحيى**: عزل ثم قتل. حكم سنة ١٢٦١ هـ/ ١٨٤٥ م. في عهده استرد العثمانيون صنعاء ١٨٧٢/١٢٨٩.

٥٢ - **يحيى حميد الدين**: ثار ثم أعلن استقلال دولته في مدينة «صعدة» حكم سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠ م.

٥٣ ـ يحيى بن محمد بن حميد الدين (المتوكل): حكم في مدينة صعدة حتى ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤ م. وفي سنة ١٢٢٠ حكم بشهارة قرب صنعاء.

٥٤ ـ سيف الإسلام أحمد بن يحيى بن حميد الدين: حكم حتى سنة ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م.

٥٥ ـ بدر بن أحمد بن يحيى: ١٣٨٢ ـ ١٩٦٢ هو الإمام الحالي.. عزل إثر انقلاب عسكري ثم غادر اليمن بعد ذلك إلى المملكة السعودية. وبعد ذلك انتقل إلى بريطانيا حيث يقيم فيها مع أسرته.

الأئمة بالنص المعترف به

بعد أن قدمنا لمحة تاريخية موجزة عن الأئمة الذين ظهروا في ظروف مختلفة على مسرح الأحداث الإسلامية، دون أن يكونوا حائزين على الاعتراف الكامل بإمامتهم من المجموعة الشيعيّة الكبرى... نعود إلى عهد الإمامة الأول، فنرافق الأئمة أصحاب النص المعترف به حتى عهد الإمام جعفر بن محمد (الصادق) الذي وقع في عهده الانقسام الكبير بين المجموعة الشيعية الكبرى كما ذكرنـا، فانقسمت إلى فريقين: موسوية إثني عشرية، واسماعيلية وكل هذا سنفصله في الصفحات التالية من هذا الكتاب.

الامام علي ابن أبي طالب

«إلهي... ماذا وجدك من عرفك، وماذا عرفك من وجدك تعرفت إليك في كل شيء... عبدتك لا خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك.... بل وجدتك إلهاً تستحق العبادة فعبدتُك، ولو كُشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً... كفاني فخراً ان تكون لي رباً، وكفاني عزًّا ان اكون لك عبداً.... انت كما اريد فاجعلني كما تُريد.

«الإمام علي»

.... في عقيدتي ان ابن ابي طالب كان أول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها. وهو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها فرددها على مسمع قوم لم يسمعوا مثلها من ذي قبل فتاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم، فمن أعجب بها كان إعجابه موثوقاً بالفطرة، ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية.
مات علي بن ابي طالب شهيد عظمته. مات والصلاة بين شفتيه. مات وفي قلبه الشوق إلى ربه. ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتى قام من جيرانهم الفرس أناس يدركون الفارق بين الجواهر والحصى،
مات قبل أن يبلغ العالم رسالته كاملة وافية. غير انني اتمثله مبتسماً قبل أن يغمض عينيه عن هذه الارض. مات شأن جميع الانبياء الباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس ببلدهم وإلى قوم ليس بقومهم، في زمن ليس بزمنهم، ولكن لربك شأناً في ذلك وهو أعلم!
جبران خليل جبران

ولد علي بن أبي طالب بمكة في الكعبة بين ٦٠٠ و٦٠٤ م بعد عام الفيل بثلاثين سنة وقبل الهجرة بخمس وعشرين ولم يولد في الكعبة غيره... ولما كان والده غائباً سمته أمه «حيدرة». وعندما جاء والده سماه «علياً».
والده أبو طالب واسمه «عبد مناف بن عبد المطلب» وكان يلقب «بأبي

طالب»، وقد توفي وعمر علي عشرون سنة، أما والدته فهي: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وكان أصغر أبناء أبويه وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، ولما أصاب القحط قريشاً كفله النبي.

عندما بلغ سن العاشرة هب لنصرة ابن عمه، وكانت دعوته قد أخذت في الظهور. تزوج حوالى سنة ٦٢٣ م من فاطمة بنت النبي محمد (ص)، وانجب منها الحسن، والحسين، ومحسن، وزينب الكبرى، وأم كلثوم، وبعد وفاتها تزوج نساء عديدات منهن: خولة بنت قيس بن جعفر الحنفي وأنجب منها محمد بن الحنفية.

افتدى النبي محمد (ص) بنفسه، ونام في فراشه، وهاجر في سبيله من مكة إلى المدينة على رجليه وحيداً مدة أربع عشرة ليلة، وقاد الحملات الباسلة في سبيل الإسلام وشارك في غزوات رسخت قواعد الإسلام، ووطدت دعائمه... ومنها: بدر الأولى، والثانية وخيبر، والخندق، وحنين، ووادي الرمل، و «الطائف» و «اليمن»، كما انتصر في حرب الجمل، وصفين، والنهروان.

صلّى على النبي الكريم محمد (ص) وجهزه ودفنه. وشكا أبو الأسود الدؤلي إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب فأملى عليه «كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف....» ثم قال: «أنح هذا النحو، فعرف العلم باسم النحو» من يومها.

تسلّم شؤون الخلافة، بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ٦٥٦ م أو ٣٦ هـ ولكن عائشة زوجة النبي محمد (ص) وطلحة والزبير شقوا عصا الطاعة، واتخذوا من البصرة قاعدة لتجهيز القبائل، وإعلان الثورة والعصيان. فجاء بجيوشه وقضى على مقاومتهم في حرب الجمل المعروفة.

كما أن معاوية بن أبي سفيان أعلن العصيان على خلافته من دمشق سنة ٣٧ هـ، فزحف بقواته لملاقاة جيوش الشام، وأسفرت المعارك عن إجراء التحكيم المعروف... وتعرف تلك الحرب بحرب صفين.

طعنه خارجي اسمه عبد الرحمن بن ملجم يوم الجمعة في ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ. وتوفي يوم الأحد في ١٧ رمضان، وكان له من العمر ٦٣ عاماً.

كنيته: أبو تراب، وألقابه أمير النحل، وأمير المؤمنين، والكرار، وأسد الله، وحيدرة، وصاحب ذي الفقار.

تحدر الإمام علي من أكرم المنابت، وتسلسل من أذكى الأعراف، فوالده أبو طالب من عظماء قريش، وجده عبد المطلب أمير مكة، وسيد البطحاء، وعميد بني هاشم الذين وصفهم الجاحظ بقوله:«ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم».

اختص بقرابته من الرسول الكريم محمد (ص)، فهو ابن عمه، وزوج ابنته، وأحب عترته وأقربهم إليه، وأحفظهم لقوله، وجوامع كلمه.. قال عنه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب: «لا بقيت لمعضلة ليس فيها أبو الحسن».

حياته كانت مفعمة بالأحداث، مليئة بعظائم الأمور. قاتل المشركين واليهود، فكان فارس الحلبة. وأجرأ من برز إليها من العرب سواء السابقين أو اللاحقين. لم يصارع أحداً إلا صرعه لم يتبع مهزوماً، وكان يصفح عن عدوه... ولم ينظر إلى عورة عدو وقى بعورته نفسه.

أقواله، وحكمه، ومناجاته جمعت في كتاب «نهج البلاغة» من قبل الفقيه الشاعر الشريف الرضي، وقد وصفت بأنها: أفكار عميقة، وأحكام جزلة، وألفاظ فلسفية ذات اصطلاحات غاية في الدقة والوصف والسجع والتنميق اللفظي.

في كتاب «نهج البلاغة» يمثل الإمام علي رجل العقيدة القوية والإيمان المطلق الذي تقوده عقيدته إلى القيام بجميع شعائر الدين.

الحسن بن علي

ولد بالمدينة ليلة النصف من رمضان سنة ثلاث أو اثنتين للهجرة وتوفي بسمٍّ دسّه له معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٠ هـ. سماه والده «حرب» ولكن جده النبي محمد (ص) بدل اسمه وسماه (حسن)، وهو الابن الأكبر للإمام علي. والدته هي فاطمة بنت محمد.

«اعتبرته الشيعة الإثنا عشرية، والزيدية إماماً شرعياً، أما الإسماعيلية فاعتبرته إماماً مستودعاً(*) أي إماماً وكيلاً قائماً بالنيابة

(*) الإمام المستودع اصطلاح اسماعيلي أطلقوه على الإمام الذي يتسلم شؤون الإمامة في ظروف استثنائية طارئة تقتضي استتار الإمام الأصيل (المستقر) وعندما تزول الأسباب تعود الإمامة إلى صاحبها والمستودع لا يستطع توريث الإمامة إلى أحد من ولده وغالباً ما يكون من الأسرة الإمامية.

عن أخيه الإمام المستقر الحسين، ولهذا فهم لا يدخلونه في شجرة الإمامة، ولا في عداد الأئمة المستقرين أصحاب النص. تسلم شؤون الإمامة والخلافة لفترة قصيرة بعد وفاة والده .

زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي، وقد دست له السم في الطعام، وكان معاوية قد مناها بتزويجها من ابنه يزيد، إن فعلت.. فمرض الحسن أربعين يوماً توفي بعدها يوم الخميس في الخامس من ربيع الأول سنة ٥٠ هـ. وكان عمره ٤٧ عاماً.

كان نجيباً حليماً، وخطيباً منمقاً، ومن الجدير بالذكر أنه أوصى بأن يدفن عند قبر النبي محمد (ص)، ولكن المعارضة حالت دون ذلك فدفن في «البقيع» عند جدته فاطمة بنت أسد.

من ألقابه: (التقي، والذكي، والولي).

الحسين بن علي

ولد في المدينة المنورة في الخامس من شهر شعبان سنة ٤ هـ. سماه النبي محمد (ص) «حسيناً». والدته هي فاطمة بنت محمد (ص) كنيته «أبو عبد الله». وله ألقاب كثيرة أشهرها «الذكي». استشهد في «كربلاء» في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ. وكان قد خرج من المدينة إلى العراق ليلة الخميس ٢٨ رجب سنة ٦٠ هـ. ومعه أهله وإخوته وأبناء أخيه.

ذهب من المدينة إلى مكة المكرمة بعد اضطهاد الأمويين له في المدينة التي ولد فيها، وقضى في ربوعها زهرة طفولته وشبابه، ثم غادرها يوم الثلاثاء في الثامن عشر من ذي الحجة من العام نفسه إلى الكوفة، وكان يرمي إلى أخذ البيعة من المسلمين، واسترجاع الخلافة من الأمويين، وذلك بعد أن وصلته الدعوات الملحة من القبائل. فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل للتحقق من أمر الدعوات، فسار حتى أتى الكوفة، ونزل ضيفاً على المختار بن أبي عبيد ثم أخذ يدعو ويمهد لبيعة الحسين سراً ويأخذ العهود والمواثيق. فعلم به يزيد بن معاوية، فكتب إلى عبيد الله بن زياد والي البصرة يأمره أن يتولى الكوفة، ويوقف ابن عقيل، أو يقتله، أو يبعده . فجاء ابن زياد، وأخذ يبحث عن مقر مسلم بن عقيل، وبعد جهود اهتدى إلى مقره، وكان عند شيخ جليل من أهل الكوفة يسمى «هانيء بن عروة»، فاستدعاه

ابن زياد إليه، وأمره بتسليم ابن عقيل، ولكنه أبى. فظل يضربه بالعصا حتى أدمى وجهه، وهشم أنفه، دون أن يعترف، أو ينبىء عن ضيفه.

وعندما شاع خبر مقتل هانيء تجمع أهل الكوفة، وساروا وراء مسلم، وكان عددهم اربعة آلاف، وقصدوا احتلال قصر ابن زياد، ولم يكن فيه سوى مئة شرطي، ولكن هذا العدد من الرجال بدأ بالارفضاض واحداً بعد الآخر حتى وصل العدد الباقي معه إلى الخمسين، فخرج بهم إلى المسجد ليصلي،وبعد إتمام الصلاة، تطلع، فلم ير أحداً حوله، فهام على وجهه في سوق الكوفة غريباً أضناه الجوع والعطش حتى وقف على دار أرملة تنتظر رجوع إبنها. فاستسقى فسقته، وعاد ابنها فأوصته أن يحفظه، ولكنه سمع بالمكافأة، فأخبر عنه. وعندئذٍ جاء رجال ابن زياد، وطوقوا الدار، ولكن مسلماً هجم عليهم، وظلت المعركة بينهم دائرة ساعات عديدة. وأخيراً أخذوا يرمونه بالحجارة وبالنار من الأسطح فوقع مغشياً عليه، وكان يبكي ندماً على كتاب بعثه إلى الحسين يطلب إليه الحضور إلى الكوفة، وأخيراً: قتله ابن زياد، ورمى بجثته من القصر ثم أرسل رأسه ورأس هانيء بن عروة إلى يزيد بن معاوية في دمشق.

وسار الحسين بعد أن وصلته رسالة ابن عمه مسلم بن عقيل، فوصل إلى القادسية، وفيها نعي إليه مسلم، ونُصح بالرجوع، وكان معه أخوة مسلم، فأبوا الرجوع قبل أن يأخذوا بالثأر، وعندما وصل إلى كربلاء نشبت حرب بينه وبين رجال ابن زياد، وعلى رأسهم «الحر بن يزيد» فقاتل حتى قتل وجميع أصحابه. أما الحر فقد انحاز أخيراً إلى الحسين، وقاتل حتى قتل وحيداً مع عدد يفوقه عدة وعدداً.

يعتبر حادث مقتل الحسين من القصص المثيرة التي ينفطر لها القلب. كان له ولدان هما: علي الاكبر، وعلي الأصغر... الأول قتل مع أبيه، ومع ابن عمه القاسم بن الحسن، وابن الحسن المثنى، وابن عبد الله، وعبد الله بن الحسن... وكان معه من النساء: أم كلثوم، وزينب، وفاطمة، والرباب، ولم يسلم من الذكور إلا علي الأصغر «زين العابدين» وكان مريضاً، ويعتبر الإمام الرابع من وجهة نظر الإثني عشرية والزيدية، والثالث من وجهة نظر الإسماعيلية.

اشتهر بالفصاحة، والشجاعة، وقوة الساعد... يذكره التاريخ في عداد أبطال العرب الخالدين، وسيد الشهداء.

علي بن الحسين (زين العابدين)

هو الإمام الرابع عند الشيعة الإثني عشرية والزيدية كما ذكرنا، والثالث عند الإسماعيلية. ولد يوم الجمعة ٢٦ جمادي الآخر سنة ٣٨ هـ، في المدينة المنورة، وليس للحسين عقبى إلا من ولده هذا. أمه هي شهربانو بنت يزدجرد آخر ملوك فارس. قال ابن سعد في طبقاته «كان علي بن الحسين مع أبيه بطف كربلاء وعمره إذ ذاك ثلاث وعشرون سنة لكنه كان مريضاً ملقى على فراشه وهو الوحيد الذي سلم من الذكور مات في ملك الوليد بن عبد الملك، وقيل مات بسم دسّ له وكان له من العمر ستة وخمسون عاماً، ودفن في روضة البقيع مع عمه الحسن بن علي سنة ٩٥ هـ.

اشتهر بالزهد والعبادة، ولم يكن يوجد من يماثله في هذه الصفات، ومن هنا أطلقوا عليه اسم (زين العابدين) و (السجاد).

في عهده ظلت الكتلة الشيعية الإمامية سائرة في طريقها المرسوم، ولكن بسرية مطلقة نظراً للظروف القاسية، ولخطط الأمويين التي تقضي بالقضاء على كل معارضة من أية جهة انبثقت في البلاد الخاضعة لها. خصوصاً إذا قادها أحد رجالات البيت العلوي.

محمد بن علي (الباقر)

هو الإمام الخامس بالنسبة للشيعة الإثني عشرية والزيدية، والإمام الرابع عند الإسماعيلية الإمامية.

ولد يوم الثلاثاء في الثالث من صفر سنة ٥٧ هـ في المدينة المنورة، أي قبل استشهاد جده الحسين بثلاث سنوات.

وأمه هي: فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب. تزوج أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. كان كريماً إلى حد الإسراف، يجود بما يسد الخلة، وبما يغني من الفقر، وإذا وجب الحال بذل المال الذي يملكه في سبيل المعروف، وعمل الخير.

عرف بمدرسته العلمية التي كان له السبق في تخريج أكبر عدد من

العلماء الأفذاذ في ذلك العصر، ومن بينهم ولده جعفر بن محمد «الصادق».

لقب بالباقر نظراً لعلمه وتبحره في العلوم كافة السائدة في عصره، ومعنى بقر العلم أي أظهر كنوز المعارف وحقائق الأحكام.

مات في ملك هشام بن عبد الملك ويقال إنه مات بسم دسَّ له ودفن في روضة البقيع سنة ١١٧ هـ مع أبيه وعم أبيه الحسن بن علي.

جعفر بن محمد (الصادق)

هو الإمام السادس عند الإثني عشرية، والزيدية، والخامس عند الإسماعيلية.

ولد في المدينة المنورة سنة ٨٠ هـ. أي يوم الإثنين ١٧ ربيع الأول في بيت اشتهر بإنجابه العظماء والأعلام.

أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. أقام مع جده زين العابدين ١٢ سنة ، وفي كنف والده محمد الباقر بعد جده ١٩ عاماً درس خلالها عليه، وتطبع بصفات الفضل والخير ومحبة العلم، وقد تعلم منه أن يطعم حتى لا يبقى لعياله طعاماً، وأن يكسو حتى لا تبقى لهم كسوة.

لقب بـ (الصادق) لصدقه في مقالته وروايته، واعتبر صاحب مذهب في الإسلام، فضلاً عن تفوقه في الفلسفة وعلم الفلك، وتطبيقات الأعداد، والتقويمات الشهرية والسنوية. أما الفقه والحديث والتفسير فهو فارسها وعلمها.. واشتهر أيضاً بحنكته السياسية، ومرونته، ومداراته للحكومة الظالمة المهيمنة، فلم يعرض نفسه للأخطار.. بل رفض الخلافة حين عرضت عليه، كما رفض الاستجابة لطلب المعارضة بالتعاون معها كيلا يناله ما نال أبناء عمومته، ونراه ينصح الحسينيين والحنفيين بالركون إلى الهدوء، وهذا ما جعل الناس يرون أنه الوارث الحقيقي للإمامة، وتقربوا إليه من كل حدب وصوب لنيل رضاه وسماع إرشاداته.

مات مسموماً بالعنب بتدبير من المنصور الدوانيقي العباسي ودفن في البقيع في قبر جده الحسين بن علي وذلك سنة ١٤٨ هـ عن عمر ٦٨ عاماً.

عندما يتفرغ الباحث ـ أي باحث ـ لدراسة شخصية الإمام جعفر الصادق على ضوء التجرد والعقل، دون أية مؤثرات عاطفية أو دينية، فلا يستطيع إلا الاعتراف بأنه كان يمثل مجموعة فلسفية قائمة بذاتها تذخر بالحيوية، وبالروحية، وبالعقلية المبدعة التي استنبطت العلوم، وابدعت الأفكار، وابتكرت السنن، والقوانين والأحكام.

أجل... ليست من السهولة بمكان دراسة شخصية الإمام الصادق، فهي باعتراف أعدائه كانت خارقة ومتفوقة تهتم بجلائل الأعمال والمكرمات، وقد ارتفعت عن المستوى المحدود، وسمت ببصيرتها إلى ما وراء الطبيعة، ثم استقرت أخيراً في ظلال المثالية، والكمال، والخير.

إن القول عن الإمام الصادق إنه كان إماماً لمذهب من المذاهب الإسلامية، أو فقيهاً أو راوية للحديث، او مشترعاً، لا أراه يعطي البيان الواضح عنه، وما كان يتمتع به من صفات ومزايا، وأخلاق، وعقل، وحكمة، واطلاع.

أما الحقيقة فهي أن الصادق كان عميداً لأول مدرسة فكرية في الإسلام، والمؤسس الأول للمدرسة الفلسفية الإسلامية. فهو عندما يملي على تلميذه «جابر بن حيان» علوم الكيمياء فالمعنى أنه كان يخطط في ذلك العصر لإخراج العقل من نطاقه الضيق إلى فضاء رحيب تسيطر في أجوائه حرية الفكر والمنطق مستمراً على نهج الامام علي ومدرسته.

ومن الواضح أن مدرسة الإمام جعفر الصادق قد أنجبت خيرة المفكرين الإسلاميين، وصفوة الفلاسفة، وجهابذة العلماء. وإذا كانت هنالك حقيقة يجب أن تقال، فهي:

إن الحضارة الإسلامية، والفكر العربي مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالكثير من جهودها، ونشاطها وإن لتلاميذ هذه المدرسة الفضل على الفكر والأدب، بما قدموه من إنتاج ومؤلفات وهم: جابر ابن حيان والمفضل بن عمر، وجابر الأنصاري، ومحمد بن صدقة العنبري ـ وعمر بن نائلة، ومحمد بن سنان الزاهر، وغيرهم.

ولد الإمام الصادق في عصر صاخب بالتحركات السياسية والفكرية، ازدادت فيه النقمة على الحكام والأمراء والخلفاء، وتضاعف حب

الناس لأهل البيت. والعرب تعودوا أن ينظروا إلى المظلوم نظرات الحب والعطف، وأن يناصروا كل معارض للحكم القائم، وبالرغم من كل هذا فإن هذا الواقع لم يخرج الإمام الصادق عن اتزانه وزهده في المناصب، بل عزز رغبته بالانصراف إلى تحقيق الانتصارات الفكرية، والسهر على رعاية مدرسته وتلاميذه وتربيتهم تربية تقوم على أساس العقل والعلم.

بعد موت الامام جعفر الصادق، إنقسم الشيعة بين الاسماعيلية والاثنى عشرية. الاسماعيلية قبلت بإمامة اسماعيل، الابن الأكبر للامام جعفر الصادق. أما الإثنى عشرية فقد نادت بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر للامام جعفر الصادق.

أئمة الاثني عشرية: بعد الإمام جعفر بن محمد (الصادق) كما ذكرنا، سارت الشيعة الموسوية الإثنا عشرية وراء ابنه موسى الكاظم الذي يعتبر الإمام السابع من جده الإمام علي بن أبي طالب، وبعد ذلك تابعت السير وراء خمسة آخرين من أبنائه بالتسلسل حتى آخرهم «محمد بن الحسن» المنتظر الذي يأتي ترتيبه (الثاني عشر) ولهذا اكتسبت هذه الفرقة اسم الشيعة الإمامية الإثني عشرية.

موسى الكاظم ابن جعفر الصادق

هو الإمام السابع لدى الشيعة الإثنى عشرية. ولد في الأبواء بين مكة والمدينة سنة ١٢٨ هـ. لقبه (الكاظم)، والعبد الصالح، وأبو الحسن. اشتهر بوفرة علومه وثقافته، واحتماله الصبر على المكاره. كان مسكنه بالمدينة. استحضره المهدي العباسي إلى بغداد، وسجنه ثم أخرجه، ورده إلى المدينة، وعندما تسلم الخلافة هارون الرشيد استقدمه ثانية وسجنه، وظل في سجنه حتى مات بالسم على يد المستدي بن شاهل.
تعتبره الإسماعيلية إماماً مستودعاً قام بالإمامة ستراً على ابن أخيه محمد بن إسماعيل ولهذا فإنه يحظى عندها بالتقدير والتقديس. توفي في سجن بغداد، ودفن فيها سنة ١٨٣ هـ.

علي بن موسى (الرضا)

هو الإمام الثامن لدى الشيعة الإثني عشرية. ولد سنة ١٥٣ هـ. في المدينة المنورة، وذلك بعد وفاة جده الإمام جعفر الصادق بخمسة

أعوام. أمه «سَكَنُ» النوبية ويقال تكتم والأول اشهر وهي جارية كان والده موسى الكاظم قد تزوجها وهو يعتبر من الأئمة الذين لعبوا دوراً بارزاً على مسرح الحياة السياسية الإسلامية.

زوجه المأمون العباسي ابنته «أم حبيب» ، وأشركه في الحكم، وسماه لولاية العهد سنة ٢٠١ هـ، في بلدة «مرو». وذكر انه ضرب العملة باسمه.

كان على جانب كبير من سعة الاطلاع والذكاء... مدحه الشاعر أبو نواس بقصائد عديدة ومنها:

مُطَهَّرُونَ نقياتٌ جيُوبهُمُ	تجري الصلاةُ عليهمْ أينما ذُكرُوا
من لم يكن علَوياً حين تنسبه	فما له في قديم الدهـر مُفتَخَر
الله لَمَّا بَرا خلقاً فأتقنه	صَفَّاكُمُ واصطفاكم أيها البشر
فأنتُمُ الملأ الأعلى وعندكُم	علم الكتاب وما جاءت به السور

مات بالسم ودفن في طوس سنة ٢٠٢ هـ.

محمد بن علي (الجواد)

ولد في ١٩ رمضان سنة ١٩٥ هـ في المدينة المنورة. من ألقابه: التقي، والجواد، زوجته أم الفضل بنت المأمون، وأمه أم الخيزران، خشي المعتصم العباسي من خطره على الدولة بعدما رأى إقبال الناس عليه، وتسابقهم على محبته واحترامه، فأمر بان يدس له السم في الطعام، فمات من جراء هذه المكيدة الدنيئة، وكان ذلك في آخر ذي القعدة سنة ٢٢٠ هـ. دفن في مقبرة الكاظميين في بغداد على مقربة من جده الإمام موسى الكاظم.

علي بن محمد (الهادي)

ولد سنة ٢١٤ هـ. في المدينة. كان ابن سبعة أعوام عندما مات والده. من ألقابه (الهادي). و (التقي). عاصر المتوكل العباسي، والواثق، والمنتصر. هو الإمام العاشر لدى الفرقة الإمامية الإثني عشرية.

مات بالسم أيضاً بمؤامرة دبرها الخليفة العباسي المعتمد سنة ٢٥٤ هـ في سامراء.

الحسن بن علي (العسكري)

ولد في المدينة في ٨ ربيع الآخر سنة ٢٣٢ هـ. هو الإمام الحادي عشر لدى الشيعة الإثني عشرية. لقب بالعسكري لأن المحلة التي كان يسكنها في سامراء تسمى «العسكر». مدحه الشاعر الكبير ابن الرومي. عاصر المعتز، والمهتدي، والمعتمد العباسيين. لقي كل رعاية وتقدير من العباسيين.

مات بالسم كما مات آباؤه وأجداده، وكان له من العمر ٢٨ عاماً، بعد أن ترك ولداً واحداً هو محمد المهدي المنتظر. توفي في شهر ربيع الأول سنة ٢٦٠ هـ ودفن في سامراء .

محمد بن الحسن (المنتظر)

ولد سنة ٢٥٥ هـ. هو الإمام الثاني عشر لدى الفرقة الإثني عشرية. من ألقابه: المهدي والمنتظر. طلبه العباسيون سنة ٢٦٦ هـ. وكان عمره أحد عشر عاماً فدخل كهف الاستتار في سامراء سنة ٢٦٦ هـ. بعد هذا الإمام توقفت هذه الفرقة عن السير الإمامي، وقالت عن الإمام محمد بن الحسن إنه المهدي المنتظر الذي سيعود ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

الامامة الاسماعيلية

اسماعيل ابن جعفر الصادق

بعد أن قدمنا موجزاً عن تاريخ الأئمة العلويين منذ عهد الإمام علي ابن أبي طالب وكذلك عن الحسنيين، والحسينيين، والزيديين، والحنفيين، والإثني عشرية. صار لزاماً علينا مواصلة إعطاء لمحة تاريخية عن أئمة الإسماعيلية بدءاً بإسماعيل بن جعفر الصادق.

ولد الإمام إسماعيل بن جعفر سنة ١١٠ هـ، في المدينة المنورة. وهو الابن الأكبر للإمام جعفر بن محمد الصادق، وأحبهم إليه، وهو صاحب النص الشرعي بالإمامة كما تؤكد المصادر الإسماعيلية وغيرها وإليه تعود تسميتها.

والده هو الإمام الخامس حسب الترتيب الإسماعيلي للإمامة ، فهو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي. قيل إنه مات سنة ١٣٨ هـ. وذلك بموجب محضر رسمي شهد عليه، عامل الخليفة العباسي المنصور، كما جاء في «الملل والنحل» للشهرستاني. وقد اضطر والده إلى ذلك بعد أن كثر الطلب عليه من قبل العباسيين الذين اتهموه بالنشاط والمعارضة وتأليب الناس.

الإسماعيلية تقف من هذا التدبير موقفاً مؤيداً، فمصادرها تذكر أن الإمام إسماعيل لم يمت في حياة والده، وإنما استتر في مكانٍ ما.

ولكن المصادر الإسماعيلية تقول بـأنه تـوفي سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م لأنه اختفى لفترة في حياة والده بعد اعلان وفاته. أمـا المعلومـات عن تحركاته ونشاطاته، وثقافته، وأعماله، فقليلة وغير متوفرة. ولكن يمكن القول: إنه يكفي أن يكون قد درس في مدرسة الإمـام الصادق لنحكم عليه بأنه كان على جانب كبـير من المعرفـة والثقافـة. من جهة ثـانية عُرف عنه بأنه كان كثير التنقـل إلى بلاد الشـام، والبصرة، والكوفـة، وبلاد فارس... وهذا ما أثار نقمة العباسيين عليه.

محمد بن اسماعيل:

هـو الإمام السابع المتم للدور السادس، مـن الأئمة الإسماعيليين

«المستورين» الذين سكنوا بلاد الشام. ولد سنة ١٣٢ هـ. في المدينة المنورة، وكان له من العمر ستة عشر عاماً عند استتار والده. توجهت الأنظار إليه وهو في هذا السن المبكر، وأقبلت الوفود من كل حدب وصوب، لمبايعته بالإمامة، مما لفت أنظار العباسيين، وكان الرشيد هو الخليفة الذي يضطلع بمهمة إخماد الثورات المعارضة وخاصة «الشيعية» منها. فأصدر أمره بالقبض عليه، ولكن جاء من نصحه قبل صدور الأمر بالخروج من المدينة، فخرج سنة ١٥٩ هـ وتوجه إلى الكوفة، ولكن العباسيين علموا به، مما جعله يخرج ثانية من الكوفة تحت جنح الظلام إلى الري حيث أتباعه وأنصاره، ويجمل كتاب «فصول وأخبار» لمؤلفه نور الدين أحمد تاريخ حياته فيقول:

«بعد أن اشتد الضغط على الإمام محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوباً بأخيه الأصغر «علي»، فبقي فيها مستتراً عن العيون، بعيداً عن الإرصاد فترة من الزمن، ولما عرف أن العباسيين عرفوا بمقره سار إلى الري، واستقر عند أحد دعاته السريين المسمى «إسحق بن موسى» وكان حاكماً على الري من قبل العباسيين. وبعد مدة قال له إسحق: يا مولاي... إن العباسيين قد بثوا العيون في كل مكان، وأخشى عليك منهم، فإن رأيت أن تخرج إلى الجبل، وتعتصم بقلعة نهاوند عند تابعك منصور بن حوشب، فعمل بإشارته وبعد ذهابه قبض العباسيون على إسحق، وعذبوه عذاباً شديداً حتى إنه مات تحت السياط دون أن يدل على مكان الإمام. ولّا لم يظفر الرشيد العباسي بأية نتيجة أرسل أحد قواده المسمّى «محمد الخراساني» للقبض على الإمام. فلمّا وصل إلى نهاوند دخل مسجدها، فرأى الإمام مسنداً ظهره إلى المحراب وبين يديه رجلان يعلمهما أصول الدين، فلم يتمالك القائد نفسه حينما رأى عظمته، وجلال هيبته، من أن يتقدم وينحني أمامه، ويقبل يديه، ثم أعلمه سراً بضرورة سفره من نهاوند، لأن الرشيد يود القبض عليه، فخرج متستراً تحت جنح الظلام إلى نيسابور، ومنها إلى فرغانة، ثم إلى عسكر مكرم، وهناك تزوج من فتاة علوية والدها هو الأمير علي الهمذاني ، فرزق ولداً سماه «عبد الله» وعندما اشتد الطلب والضغط عليه من قبل المأمون اضطر إلى الذهاب إلى تدمر في بلاد الشام».

عُرف عن الإمام محمد بن إسماعيل بأنه كان على جانب كبير من الذكاء وبعد النظر والنشاط والثقافة الواسعة، وسرعة التنقل والتخفي، بدليل أنه استطاع التمويه على الخلفاء العباسيين والإفلات من قبضتهم، في وقت لم يستكن إلى الهدوء أو يتوقف عن

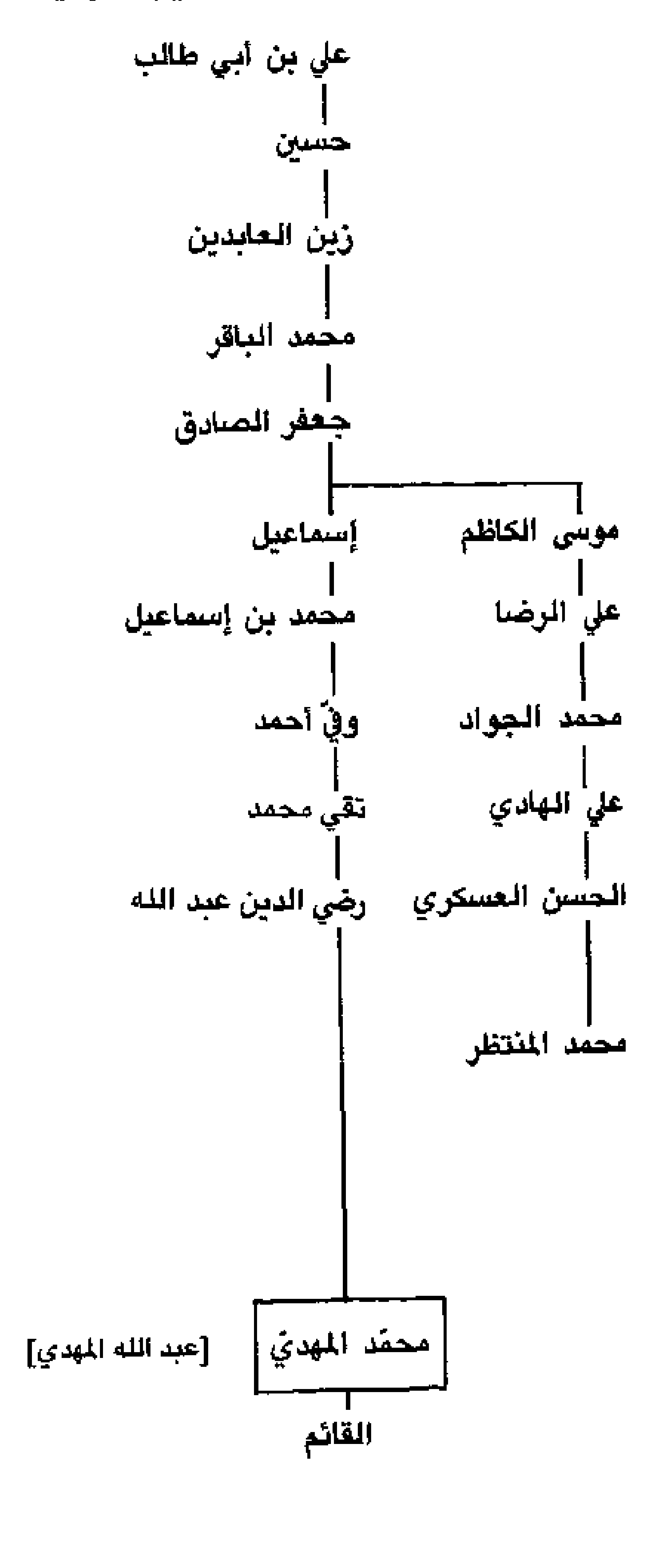
النشاط، واستقطاب الأنصار والمؤيدين ، وإقامة المراكز للدعاية، ومن الواضح انه تمكن عندما كان في بلاد فارس من بناء بلدة صغيرة استقر فيها فترة قصيرة وكان اسمها «سملا» ولكن أطلق عليها اخيراً اسم «محمد آباد».

أقام الإمام محمد بن إسماعيل في تدمر من بلاد الشام. وفي هذه البلدة التاريخية القديمة ذات الموقع المهم، والتي كانت في غابر العصور ملتقى القوافل التجارية بين دمشق وبغداد.. والتي أطلق عليها اسم مدينة الصحراء، ومقر القبائل العربية.. في هذه المدينة نزل الإمام محمد بن إسماعيل، فاتخذ لنفسه إسماً هو «القداح» و«ميمون» القارسي، وبالفعل مارس طبابة العيون، وأخفى اسمه الحقيقي عن كل الناس، وادعى أنه من أتباع الإمام محمد بن إسماعيل المستور وعلى هذا الأساس وجه اهتمامه ودعاته إلى سواد الكوفة، وبلاد الشام، والبحرين، وإلى أوساط القبائل العربية التي تنزل بوادي بلدة تدمر.

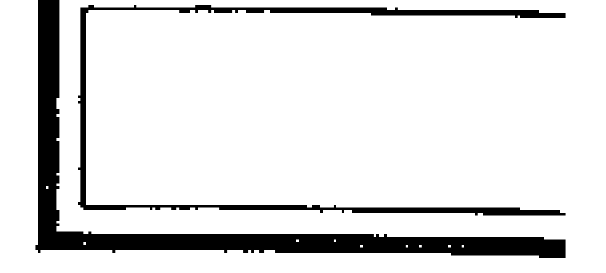
وفي هذا يتبين أثره وأثر أحفاده في الحركات الثورية والفكرية الإسماعيلية التي انبثقت في كل مكان في عهده، وما بعد عهده، وهذه الثورات لم تكن بدعة، وإنما هي نتيجة لأزمة أو ثمرة ناضجة لمجموعة من العلل والأسباب المتضاعفة التي تضافرت على إيجاد الجو الملائم لضعضعة العروش القائمة، والمذاهب المتحكمة. وكل هذا مقتبس من التاريخ الصحيح الذي يقف مع العقل والحقيقة، ولا يتأثر بما حوله أو بما سبقه، فالمصادفة محال، ولا يوجد في هذا العالم شيء إلا وهو نتيجة من جهة، وعلة من جهة أخرى.

رزق الإمام محمد بن إسماعيل من الأولاد: عبد الله، وإسماعيل، وجعفر، وعلي الليث، وأحمد، والحسين... وقد قتل العباسيون علياً وأحمد في خوارزم، وهكذا فعلوا بالحسين، أما ولاية العهد فقد عهد بها إلى ولده الأكبر عبد الله، (وفي أحمد) وعرف في بعض المصادر بعبد الله بن ميمون القداح. من ألقابه: (الشاكر، والمكتوم، والسابع، والقداح، وميمون). توفي في بلدة تدمر الشامية ودفن فيها سنة ١٩٣ هـ.

شجرة النسب الفاطمية للاسماعيلية النزارية:



الإسْماعيلية
فِكراً وتنظيماً



تنظيم الدعوة الاسماعيلية

لعب التنظيم للإسماعيلية دوراً مهماً في العالم الإسلامي، وأثّر فيه تأثيراً بعيد المدى، فكان في أكثر مراحله أداة فعالة في تغيير وإصلاح المجتمع، وإزالة الرواسب، وتفكيك الروابط القائمة على الفساد والأخطاء، وساعد على تحقيق الأهداف الكبرى والغايات المثلى وجود رجال مثقفين ثقافة عالية ملمّين بالأوضاع السائدة، وبكلّ ما يشكو منه الشعب وخاصة الطبقات الفقيرة المحرومة.

لقد كان للنظام الفكري الإسماعيلي سحر خاص، وجاذبية قوية كانت تهفو إليها نفوس العديد من الناس، فتستميلهم، وتستأثر بأهوائهم، وتبلغ بهم مبلغاً يدفعهم إلى المخاطرة والمجازفة، والإتيان بغرائب الأعمال، وقبول الطاعة التامة، والاستسلام المطلق وفي الواقع.. فإن في الكتمان والسرية والخفاء ما يستهوي الخيال، ويرغب النفوس، ويطلق الأوهام والأحلام. فكلما كان السرّ أدق وأخفى، أو كان اللغز أعوص وأغمض، كان سحر الخفاء أكثر جاذبية، وأقوى إطلاقاً للخيال، وما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعاً باكتشاف الغرائب والعجائب، ومحباً لاستطلاع الأسرار، وكشف المخبآت، واستجلاء الغوامض المحجوبة، والأسرار المستورة.

وما الولع بالحركات السرية إلا كولع البدائي بالمجهول، فهي تمثل لنا قوة غير معروفة. ولعل مصدر هذه القوة جماعة من الأفراد، اجتمعوا ليقوموا بعمل يعجز عنه الفرد بنفسه. ومما تجدر الإشارة إليه، أن الحركات السرية لا تقوم ولا تزدهر إلا عندما تضطرب الحياة الاجتماعية، ويسود الطغيان والاستبداد، ويطغى الضيق والفقر

والحرمان، فيشعر الناس عندئذٍ بحاجة ماسة إلى مقاومة الطغيان، وسرعان ما يجتمع الانصار المكبوتون، والمؤيدون، والأتباع، والأشياع، وتختلف البواعث التي تهيب بهؤلاء الأنصار إلى الاندماج في الدعوة، والانخراط في سلكها. فمن الناس من يستميله حب السيطرة والطمع في السلطة، والنفوذ، والتمجد، والاستعلاء. ومن الناس من يؤثرون العمل في الخفاء، والإدلاج في السواد، فقد يجدون في ذلك مجالاً لإظهار قدرتهم وكفاءتهم، والكشف عن مواهبهم وملكاتهم.

والتنظيم الإسماعيلي كان منعدم النظير في اجتذابه الناس من مختلفي الألوان والاتجاهات، فكان ثمة المثاليون المخلصون، والأبطال الأفذاذ، والعلماء والأمراء، والفدائيون الخلص، والأغرار المتدفعون، والمغامرون وجميع هؤلاء قاموا بضروب من الشجاعة والإقدام، وأتوا بأمثلة رائعة لإنكار الذات، وقد انضووا في حركة أقل ما يقال فيها أنها جديدة بتنظيمها، وأساليب دعايتها العجيبة التي تبرهن على إدراك عميق لنفسيات الشعوب، وعلى فهم دقيق لمصادر التذمر.

إن في ترتيبات التنظيم الإسماعيلي الذي نتحدث عنه بياناً واضحاً عن مدى الاعتناء الذي كانوا يبذلونه لاختيار «الدعاة». فعلى هؤلاء كان يقوم نجاح الدعوة، أو بالأحرى على أساليبهم العلمية وبياناتهم القائمة على الإقناع والمنطق والعقل. وكم يطيب لنا أن نوضح ذلك، ونعطي أسماء وصلاحيات هؤلاء الأعلام وذلك في عهود الأئمة، وليس في عهود النطقاء، وقد يتهيأ للإمام إقامة هذه الحدود، وقد لا يتسنى له لفقدان الساحة من أصحاب الكفاءات، أو بسبب أحوال طارئة.

وهذه هي الأسماء:

١ ـ إمام	٧ ـ داعٍ محصور
٢ ـ حجة أو باب	٨ ـ جناح أيمن أو يد يمنى
٣ ـ داعي الدعاة	٩ ـ جناح أيسر أو يد يسرى
٤ ـ داعي البلاغ	١٠ ـ مكاسر
٥ ـ داعٍ مطلق أو نقيب	١١ ـ مكالب
٦ ـ داعٍ مأذون	١٢ ـ مستجيب

١ ـ الإمام: قد يكون من الصعوبة بمكان، تحديد صلاحيات الإمام في سطور قليلة أو صفحات محدودة، ويكفي أن نعلم أنها رتبة تمثل

القيادة الزمنية والدينية العليا المطلقة، فهي أعلى سلطة في الدعوة وأرفعها بعد الناطق وبعد الوصي.. وقد سبق أن ذكرنا في الصفحات السابقة ما فيه الكفاية عن هذا الموضوع.

٢ ـ **الحجة أو الباب**: هذه الرتبة تلي رتبة الإمام مباشرة، فالحجة هو نائب الإمام عند غيابه، والظل الذي لا يفارقه، ولا حجة من دون إمام، والباب اسم آخر يطلق على الحجة، ومعناه أنه باب الأسرار، ومستودع الأعمال. وفي العادة أن يضطلع ولي العهد بمهام هذه الرتبة في حياة الإمام إلّا في الظروف الاستثنائية، وإذا كان صغيراً دون البلوغ فتعطى عندئذٍ وكالةً لأحد الدعاة الكبار أي لداعي الدعاة، وتكون مهمته تربية ولي العهد.

٣ ـ **داعي الدعاة**: هو رئيس الدعاة المباشر، والمسؤول الأول أمام الحجة عن توزيعاتهم في الجزر والأقاليم، وعن اختيارهم، وخبرتهم، وثقافتهم، وصلاحهم، وسلوكهم. وهو المسؤول عن إقامة فروع الدعوة في المناطق والأقاليم، وكثيراً ما أخضع الدعاة إلى فحوص دقيقة، وإلى مراقبة مستمرة.

٤ ـ **داعي البلاغ**: هو المسؤول عن تبليغ الأوامر وإيصالها إلى دعاة الأقاليم، وحجج الجزائر، وعن سريتها ووصولها. ويعتبر رئيس القلم، والمراسلات، والأمين العام على أسرار المراسلات والبلاغات، وله الحق بالمفاتحة والمناقشة مع الفرق الأخرى، دون أن يحتاج في ذلك إلى إذن من داعي الدعاة.

٥ ـ **الداعي المطلق أو النقيب**: صاحب صلاحية السفر والتجول في كل مكان لنشر تعاليم الدعوة ومبادئها، ولا يخضع في ذهابه أو إيابه إلى الاستئذان من أحد. ومن الجدير بالذكر أنه يرتبط بداعي الدعاة مباشرة، فيستمد منه العلوم، ويطلق عليه أيضاً اسم «نقيب» أو «ذو مصة» لأنه يمتص العلم من داعي الدعاة، كما يمتصه داعي الدعاة من الحجة والحجة من الإمام، وفي بعض الأدوار يطلق عليه «ذو مصتين»، وهي رتبة أعلى بحيث يكون له الحق بتجاوز الأعلى منه والاتصال بداعي الدعاة. ويفترض بالداعي المطلق أن يكون متمكناً من «علم الهيئة»، وقراءة الأفكار ومعرفة الخبايا من اللمحات وإمارات الوجه.

٦ ـ **الداعي المأذون**: رتبته أدنى من رتبة الداعي المطلق، فهو غير مأذون بمفاتحة أحد أو مناقشة أية فرقة أو السفر إلى منطقة أو بلد ما إلا بإذن من داعي الدعاة.

٧ ـ **الداعي المحصور**: رتبته أدنى من رتبة الداعي المأذون، فهو لا يستطيع أن يفاتح أحداً أو يبلغ أو يتكلم إلا في منطقة يحددها له داعي الدعاة، وبلغة أصح فهو «محصور» بمنطقة معينة لا يغادرها.

٨/ ٩ ـ **الجناح الأيمن، الجناح الأيسر**: هذان الحدان ملحقان بصورة دائمة بالداعي المطلق، فهما جناحاه أثناء جولاته الدعائية في الأقاليم، ويطلقون عليهما أحياناً «اليد» وجمعها «الأيادي» أي إنهما يقدمان الخدمات للداعي المطلق كما تقدم اليد الخدمات للجسم. وللجناحين الأيمن والأيسر مهمة صعبة، فإن عليهما أن يذهبا مسبقاً إلى البلد الذي يقرر الداعي المطلق الذهاب إليه، فيدرسان أوضاعه السياسية، والعلمية، والأدبية، وحالة ندواته، ومدارسه، وطبقات أهله، وعلمائه، وشعرائه، ونفسياتهم، ونواحي القوة والضعف لديهم، وميولهم، ومذاهبهم، ومكانتهم الاجتماعية. حتى إذا أحاطا بكل ذلك عادا إلى الداعي المطلق. فقدما له تقريرهما الشامل، وعلى ضوئه ينتقل الداعي المطلق إلى البلد المقرر، فتكون المعلومات أمامه واضحة، بحيث يسهل عليه عندئذٍ مفاتحة كل إنسان بما يتفق وعلمه وميوله واستعداده وقدراته. أما الجناحان فتكون مهمتهما عندئذٍ قد تحولت إلى بلدٍ ثانٍ ينوي الداعي المطلق زيارته.

١٠ ـ **المكاسر**: تُعطى رتبة «المكاسر» لكل «مكالب» تفوق وتفقه في مجال العلوم والفلسفة والفقه، وذلك بعد أن يجتاز الفحص المقرر، ويُصبح قادراً على النقاش، والسيطرة على السامع بأسلوبه الساحر وبيانه الواضح وقد تنحصر مهمته بمناقشة رؤساء الأديان المتزمتين والمتعصبين فيكسرهم ويبطل حججهم. ويتلقى المكاسر الأوامر من داعي الدعاة مباشرة.

١١ ـ **المكالب**: رتبته أعلى من رتبة المستجيب، وأدنى من رتبة المكاسر، صلاحياته تنحصر بالتجسس، وتنسّم الأخبار وكل ما يتحدث به الناس عن الدعوة ونقلها إلى «المكاسر». وقد يناط به الاتصال بالأفراد والشباب ومباحثتهم أو أخذهم إلى المكاسر

لإعطائهم الدروس. ومن الجدير بالذكر أن مهمة المكالب تشبه إلى حد ما «كلب الصيد» الذي يركض ويتعب ويعرض نفسه للموت في سبيل جلب الطرائد وتقديمها غنيمة باردة لصاحبه.

١٢ - **المستجيب**: أول رتبة تُعطى للمنتسب إلى الدعوة بعد تأدية فحص مقرر من داعي الدعاة والدعاة الآخرين.

هذه أسماء وألقاب وصلاحيات الأشخاص الذين يقومون بأعباء الدعوة لدى الإسماعيلية. وهذا «الكادر» غير دعاة الجزر وحجج الأقاليم إذ يفترض في كل جزيرة وإقليم أن تكون الدعوة مطابقة للأصل. ولكن لا بد من القول إنه قد تأتي ظروف استثنائية لا يتمكن الإمام من إقامة الدعوة بكامل أعضائها وعناصرها، وعندئذٍ تظهر الوكالات والنيابات بحيث تبقى حتى تزول الأسباب.

وكتب الدعوة قد رسمت الخطة الأساسية التي يجب على الداعي سلوكها لتلقين مبادىء الدعوة للمقبلين عليها، في خطى متئدة حتى لا تضيع البذور في أرض سبخة، وحتى لا ينحرف عن السبيل أو ينعكس عليه القصد، فيصاب التنظيم بالخيبة والخذلان. وقد أوضح الإمام المعز لدين الله ذلك بقوله:

«ينبغي للداعي اختيار أمر من يدعوهم من الراغبين، وتعرف أحوالهم واحداً واحداً، وتميز كل منهم ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه، ويحمله عليه، ومقدار ما يحمله من ذلك، ومدى قوته وطاقته، ومتى يوصل ذلك إليه، وكيف يغذوه به، وامتحان الرجال، وتعرف الأحوال، ومقدار القوى، ومبلغ الطاقات والقدرات».

وهكذا رسم للدعاة خطة تنظيم العلاقة بين الدعاة والمستجيبين، والمتقلبين، والطريق الذي يجب عليهم سلوكه بمدعويهم، فأوجب عليهم الظهور بمظهر الوقار والهيبة ليكون ذلك مدعاة إلى تفاني المدعوين في الالتفاف حولهم، وطلب من الداعي أن يكون حسن الصوت، خفيض الجناح، لين الجانب، حسن العشرة، جميل المخالقة من غير تجبر ولا تكبر، بل يكون التواضع سيماه، والوقار همته.

وهكذا كان للإسماعيليين في البلاد التي يدعون فيها لنظامهم الفكري تشريع خاص في معاملتهم أهالي تلك البلاد، كما كانت لهم ثقافة

وفلسفة مقررة ومدروسة، وذات منهجين: المنهج العلني، والمنهج السري. فالمنهج العلني يقوم به الوزراء والحكام بالنسبة إلى عامة الشعب. أما المنهج السري فيقوم به الإمام ودعاته وحججه.

ومن التعاليم التي كانت تعطى للدعاة... أن يبدأوا باصلاح أنفسهم، فهم أحق الناس بالورع، والصلاح والتقوى والعفاف، والعمل بكل صالحة، واجتناب كل مكروه. وقد أجمل الإمام جعفر بن محمد (الصادق) في قوله لدعاته:

«ينبغي للداعي أن يتهيَّب عند أهل دعوته، وأن لا يعودهم الجرأة عليه، ولا يبسطهم كل البسط لديه، فيهون عندهم، ويصغر أمره لديهم، فإنه كلما كان أهيب عندهم، كانوا أكثر انتفاعاً به، وأحرى عنده، وليكن تهيبه ذلك بحسن الصمت، وخفض الجناح، ولين الجانب، وحسن العشرة، وجميل المخالقة، من غير تجبر عليهم، ولا تكبر في أمره عليهم، بل يكون التواضع سيماه، والوقار همته.
وينبغي للداعي أن يكون مهيباً في غير تكبر ولا صلف، متواضعاً لا لمهانة ولا لضعف، فإن اجتمع له أمره، وأستحكم، واتصل له مراده، وانتظم وعده في أهل دعوته وعظم، فليحسن إلى محسنهم، ويقربهم على درجاتهم، وينزلهم على طبقات أعمالهم، ولا يهمل أمرهم. وليدع عقوبتهم على ما يتضح له من ذنوبهم، ويصح له من إساءتهم.

وأوجز الإمام السادس عشر، «الحاكم بأمر الله» لدعاته الأوامر، والوصايا، والأحكام.... وحدَّد داعي الدعاة خاصية مهمته بقوله:

«وخُذ العهد على كل مستجيب راغب، وشد العقد على كل منقاد ظاهر... ممن يظهر لك إخلاصه، ويقينه، ويصح عندك عفافه، ودينه، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه (....).
وكفَّ كافة أهل الخلاف والعناد، وجادلهم باللطف والسداد، واقبل منهم من اقبل إليك بالطوع والانقياد، ولا تكره أحداً على متابعتك، والدخول في بيعتك (...) ولا تلق الوديعة إلَّا لحافظ الودائع ولا تلق الحبَّ إلَّا في مزرعة لا تكدى على الزارع، وتوخَّ لغرسك أجلّ المغارس، وأوردهم مشارع ماء الحياة المعين، وتقربهم بقربان المخلصين، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات. واتلُ عليهم مجالس الحكم. وصُنْ الأسرار إلَّا عن أهلها، ولا تبذلها إلَّا لمستحقها، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله، ولا تستقل أفهامهم بتقبله، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول، ودلّ على اتصال المثل بالممثول، فإن الظواهر أجسام، والبواطن أشباح (...) وأن لا قوام للأشباح إلَّا بالأرواح، ولا

قوام للأرواح في هذه الدار إلّا بالأشباح، ولو افترقا لفسد النظام، وانتسخ الايجاد بالإعدام، واقتصر من البيان على ما يحرس في النفوس صور الإيمان، ويصون المستضعفين من الافتتان، وانة عن الإثم ظاهره وباطنه وكامنه، وعالنه. واتخذ كتاب الله مصباحاً تقتبس انواره، ودليلاً تقتفي آثاره (...) واضمم نشر المؤمنين، واجمع شمل المستجيبين (...) وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول، وما يظهر لك من جودة المحصول (....) وألن لهم جانبك، واحن عليهم والطف، وابسط لهم وجهك واقبل عليهم واعطف (...) ولا تسمح لأحد منهم في التطاول بالدين، ولا الإضرار بأحد من المعاهدين والذميين (...) وإذا ألبس عليك أمر وأشكل، وصعب لديك مرام واعضل، فانهه إلى حضرة الإمامة.....» اهـ.

تسلسل أئمة الاسماعيلية

كما مر معنا من قبل، وقع إنقسام اساسي بين الشيعة بعد وفاة الإمام جعفر الصادق. فكان هناك من اتبع الابن الأصغر للإمام جعفر الصادق، الإمام موسى الكاظم، والذين عرفوا بالأثنى عشرية. وكان هناك من دان بالولاء واتبع الأبن الأكبر للإمام جعفر الصادق، الإمام اسماعيل، والذين عرفوا بالاسماعيلية. وبعد الإمام اسماعيل، تبعه أبنه الإمام محمد بن اسماعيل، الذي كان الإمام السابع. وقد خلفه ابنه وفي أحمد.

عبدالله بن محمد ابن اسماعيل أو «وفيّ أحمد»

هو الامام الثامن بالترتيب الاسماعيلي. ولد سنة ١٥٩ هـ. في بلدة محمد آباد الفارسية. من ألقابه: الرضي، والمستور، والناصر، والعطّار، وعبدالله الأكبر... عاصر الرشيد والمأمون العباسيين، وعرف بين الناس باسم «عبد الله بن ميمون القدّاح».

قال عن نفسه بأنه حجة الامام المستور المسمّى «عبد الله بن محمد ابن اسماعيل» ولكي يصعب تميزه سمّى حججه «الأربعة الحُرُم» باسمه وكل ذلك بغرض إخفاء شخصيته.

بعد وفاة والده محمد بن اسماعيل، لم تطب له الاقامة في بلدة تدمر فغادرها الى بلاد فارس، وأقام في نيسابور فترة قصيرة، خرج بعدها الى بلاد الديلم. وكان يصحبه شقيقه «الحسين».. وهناك تزوج بفتاة من الأسرة العلوية، وولد له منها ولد هو أحمد الذي أصبح ولياً للعهد.

ومن دعاته أيضاً: أبو الفقير، أبو سلمة، أبو الحسن الترمذي، وجياد بن الخشعي، وأحمد بن الموصلي، وأبو محمد الكوفي.

لم يتوقف في فارس نشاطه، ولم يستكن للملاحقات والضغوط العباسية القاسية، بل كان يتنقل من بلد الى آخر لنشر التعاليم، وتعيين الدعاة، وإقامة المراكز والحلقات. ولكن الظروف شاءت أن تظهر بوادر خلاف كبير بين الدعاة، فاضطربت الدعوة، وأخذ

الخلاف يتفاقم ويزداد يوما بعد يوم، مما حمله على إغلاق باب الدعوة، وإيقاف النشاط، ثم غادر بلاد فارس دون أن يُعلم أحداً بالمكان الذي توجه اليه...

هذا الحدث الرهيب، أقام الدعاة وأقعدهم، فتنادوا من كل جهة، وتناسوا خلافاتهم وادركوا أنهم ارتكبوا أخطاء كبيرة وعقدوا اجتماعات متوالية لإعادة الأمور الى طبيعتها، واتخذوا قراراً بايفاد سبعة من الدعاة، وأناطوا بهم مهمة التفتيش عن الامام فتفرقوا في كل جهة. ويقول «محمد اليماني» في سيرة جعفر الحاجب، وأيده «نور الدين أحمد» في كتاب «فصول وأخبار»:

وصل الداعي أبو الفقير الى ضواحي بلدة معرة النعمان وهو أحد الدعاة السبعة الذين عهد إليهم بالتفتيش على الامام عبد الله، وبينما كان خارج بلدة معرة النعمان رأى أحد بائعي العطور يسير على الطريق. فتقدم منه وسأله: الى أين أنت ذاهب؟ فأجابه العطار: إني ذاهب الى «دير عصفورين» لأبيع هذا العطر الطيب الى أحد القديسين الذي يقيم في الدير، وكان قد طلبه مني منذ يومين... فسأله أبو الفقير عن صفاته فقال: إنه رجل ذو هيبة، ووسامة، ووقار، ودين، وقد جاء منذ مدة خمسة أشهر الى هذا الدير، فأقام فيه منقطعاً للعبادة وللتأليف. فقال له: هل تحسن إليّ بمرافقتك، فلا بد أن يكون من الأولياء الصالحين الذين أحتاج إلى بركاته، وقد أشفى على يده من مرضي المزمن.. فقبل العطار طلبه... وعند وصول أبي الفقير الى باب الدير ألقى نظرة على الامام فعرفه، وبدون أن يشعر به عاد عن الباب مسرعاً، ثم ذهب حيث التقى برفاقه بعد جهود مضنية، فأعلمهم عن مقر الامام، فجاءوا إليه، وأعلنوا له عن ندمهم، وطلبوا إليه العفو والغفران، فقبل إلا أنه اشترط عليهم الذهاب الى بلدة «سلمية» للإقامة فيها، فقبلوا طلبه وجاءوا معه حيث استأجروا له منزلاً.

عاش الامام عبد الله بن محمد في سلمية بسرية مطلقة، ولكنه لم يتوان عن ارسال دعاته الى كافة الجهات كما أنه أخذ بتأليف كتاب «رسائل اخوان الصفاء، وخلاّن الوفاء».

في عهده غلب اسم «قرمطي» على كل اسماعيلي في بلاد الشام، وذلك تحقيراً وانتقاماً، ولكن الناس تهافتوا من كل حدب وصوب على

الانتساب الى الدعوة الاسماعيلية السرية، وخاصة سواد العراق، والبحرين، وبلاد الخليج، ومناطق القبائل العربية في بلاد الشام والعراق.
توفي الامام وفيّ أحمد عام ٢١٢ هـ في سلمية ودفن في مدينة مصياف ولا يزال ضريحه قائماً حتى اليوم.

أحمد بن عبد الله ابن محمد بن اسماعيل أو «تقي محمد»

هو الامام التاسع من جده علي بن أبي طالب، وثالث الأئمة الاسماعيلية المستورين. عرف بين الناس بأنه أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح. ويقول عن نفسه أنه أحد دعاة الامام المستور «أحمد بن عبد الله».
ولد في مدينة سلمية سنة ١٧٩ هـ، واتخذ منها مقراً له ولدعاته السريين الذين كانوا في عهده في كل مكان.
تثقّف على يد والده الامام عبد الله بن محمد، وأكمل رسائل اخوان الصفاء التي وضع والده عبد الله خطوطها الأولى.
اعتمد التجارة مهنة له، واتخذها ستاراً لاخفاء مهمته وشخصيته خاصة عند تنقلاته. لقّبه أتباعه بالوفي. عاصر المأمون العباسي، واشترك في إثارة الناس عليه، كما شاهد الثورات الداخلية التي هبّت من حوله.
كان يقضي فصل الصيف في مدينة مصياف. وقبل موته أوصى أن يدفن فيها. في عهده بلغت الدعوة الاسماعيلية أوج عزها وازدهارها، وأقبل الناس من كل فوج على الانتساب إليها.
أدرك ثورة بابك الخرمي وشاهد نهايتها.. ووجّه دعاته فتمكنوا من ضم فلولها الى الاسماعيلية، ومن هنا اختلط الأمر على بعض المؤرخين فذهبوا الى القول بأن الخرمية هي الاسماعيلية، وهو قول مضحك وتافه. توفي في مصياف عام ٢٢٥ هـ.

الحسين بن أحمد ابن عبدالله الملقب بالأهوازي أو رضي الدين عبد الله

هو الامام العاشر من جده علي بن أبي طالب. ولد في بلدة

«مصياف» سنة ١٩٨ هـ، ولكن إقامته ونشاطه كانا في سلمية. ذكر أنه كان يمتلك ثروة طائلة، وقرى عديدة ومزارع. من ألقابه. «التقي» و «الأهوازي». كان على علاقة وثيقة مع الأسرة العباسية التي تقطن سلمية دون أن يعرفوا شخصيته الحقيقية ونسبه.

عُرف بين الناس باسم الحسين الأهوازي. وقال عن نفسه: إنه داعٍ لإمام مستور من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق اسمه «الحسين بن أحمد». كان كثير التنقل، والذهاب الى بلاد فارس، والبحرين، والحجاز، وكان يحضر مواسم الحج، ويشرف على شؤون دعوته في الأقاليم.

التقى في الكوفة بقاسم بن فرح بن حوشب الملقب بمنصور اليمن وعلي بن الفضل وكانا يدعوان للحسن العسكري إمام الشيعة الإثني عشرية، فتمكن من التأثير عليهما، وأحضرهما إلى سلمية، ثم جهزهما بعد أن درسا عليه النظام الفكري الاسماعيلي وأرسلهما إلى اليمن سنة ٢٦٨ هـ. كما تم في عهده إرسال أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب.

في عصره دب الوهن في الدولة العباسية، وأحدقت الثورات، والاضطرابات من كل جانب، وتولَّى ابن طولون شؤون مصر، وأوكل اليه أمر تنظيم بلاد الشام.

حقق أكبر الانتصارات في مجال الدعاية، وبلغت الاسماعيلية في عهده أعلى مستوى من الانتشار في الأقطار الاسلامية، وكل هذا بفضل سهره، وبعد نظره، ودقته في التنظيم والإدارة.

مات في سلمية سنة ٢٨٩ هـ، ودفن في مقام جده عبد الله بن محمد المعروف بمقام الامام اسماعيل.

مما تجدر الاشارة إليه أن الامام الحسين بن أحمد لقي أثناء وجوده بسواد الكوفة حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط. وبعد أن توثقت بينهما أواصر الصداقة تمكن من التأثير عليه، وإدخاله في دعوته، كما التقى بمهرويه بن زكرويه السليماني فأصبح من قادة القرامطة الذين لعبوا دوراً مهماً في التاريخ، ومثله أولاده.. وكل هذا سنفرد له فصلاً خاصاً عندما نتحدث عن الحركة القرمطية.

رسَائِل
إخْوَانْ الصَفَاء

تشكل رسائل اخوان الصفاء وخلاّن الوفاء لغزاً مبهماً بالنسبة إلى الباحثين كما تبدو لهم سراً من أسرار العقائد الاسماعيلية عسر فهمه، وكنز فكري ثمين أغلقت الأبواب دونه، وتضاربت الأقوال عنه، حتى أصبح مثاراً للجدل وللتخمين. ومادة للاستنتاج العقلي قلما يؤدي الى نتيجة تميط اللثام عن الحقيقة الضائعة، أو توصل الى هدف ينير السبيل، ويكشف عن الحقيقة المحتجبة وراء ستور الكتمان.

ولعلّ مؤلف رسائل اخوان الصفاء تعمد إخفاء اسمه عن عامة الناس حرصاً على حياته المهددة من خلفاء بني العباس، ومبالغة في كتمان هدف رغب ألاّ يصل الطالب الى معرفته بسهولة، وزهداً في شهرة كان يعتقد انها زائلة، وطمعاً في ثواب أمل أن يناله.

دراسة كتاب «رسائل اخوان الصفاء» ليست من الأمور السهلة في تاريخنا العربي، فهذه الموسوعة العلمية، أو الكتاب القيم لفت انتباه، وأنظار فريق كبير من العلماء والباحثين والمستشرقين منذ بدء النهضة العلمية الحديثة، وكان جميع الذين تجولوا في مرابعه الواسعة، قد أجمعوا على القول بأن مادته هي أغزر مادة في الفلسفة، وأقوم حجة في عالم العقل.. بل هو أثمن تحفة فكرية ضمّت بين دفتيها البديع، والايجاز، والحكمة، والفنون، من فلك، وعدد، وموسيقى، وفنون، وهندسة، ورياضيات، وطب، وأدب، وقصة، وتربية، وعلوم أخرى أنتجها العقل الاسلامي في عصر مبكر من عصور الإسلام، وزادوا فقالوا إن هذه الرسائل تمثل الرقي العقلي، والتطور الفكري، وتعتبر من أقدم المصادر في الفلسفة الاسلامية

التي تعبر عن الثقافة الواسعة، وتعالج المعضلات الفلسفية، وأغنى موسوعة بالعلوم والآداب الناطقة بسهولة الأسلوب، ومرونة الاستدلال.

ولقد سبق لي أن ذكرت في أكثر من دراسة عن رسائل اخوان الصفاء، بأنه يتعذر على أي باحث إيفاء موضوع اخوان الصفاء حقه، وكشف ما غمض عنهم، ما لم يضع نصب عينيه المصادر الاسماعيلية، فهذه المصادر تؤلف عنصر الموضوع، والمادة الأساسية التي تقيم ارتباطاً أساسياً بفصوله وحيثياته وقد يكون من المفيد أن نذكر:

أن هذه المصادر كانت مفقودة، وبعيدة عن متناول أيدي العلماء بالأمس. أما اليوم فظهورها من كهف تقيتها، منذ أعوام معدودة، أعطى القضية الغامضة بعض الجلاء. وأعتقد أن الباحثين القدماء لهم العذر، فهم قد عجزوا، ولم يقدر لهم الاطلاع على المصادر أو التعمق في دراسة الرسائل، ومقابلة نصوصها الفلسفية مع نصوص أخرى.

يقول المستشرق «كازانوڤا»: «أؤكد أن آراء الاسماعيلية توجد كلها في رسائل اخوان الصفاء». وقال ماكدونالد: «إن الاسماعيليين لم يكونوا عصابات من اللصوص تنشر الرعب بأساليبها الشنيعة، ولكن كلا الفرعين الشرقي والغربي قد عكف على العلم، وربما وجد في حصونهم الجبلية أشد أنواع العناء في طلب العلم الصحيح».

وقال الدكتور «عبد اللطيف الطيباوي» وهو ممن درس وتفهم موضوع اخوان الصفاء: «لأراني إلاّ مصيباً في القول، بأن فلسفة الإسماعيلية جميعها مبثوثة في رسائل اخوان الصفاء، فعليه من الجور أن يُرمى الاسماعيليون بالكفر والانحطاط الخلقي كما جاء في فتوى ابن تيمية».

هذا، وإني لعلى يقين من أن أبا حيان التوحيدي قد ارتكب خطأ كبيراً عندما ذكر أن زيد بن رفاعة، والبستي والمقدسي والزنجاني والمهرجاني والعوفي هم الذين ألفوا الرسائل المذكورة في القرن الرابع للهجرة. فهذا القول لا يستند إلى حقيقة. لأن الوقائع والمصادر الاسماعيلية لا تقره. وتؤكد بأن مؤلف الرسائل هو الامام

المستور وفي أحمد الامام الثامن. ولكن ثبت بأنه مات قبل أن يكمل الكتاب. وعندما جاء ولده تقي محمّد قام بإنجازه وخاصة «الرسالة الجامعة». أما الأشخاص الذين ذكرهم التوحيدي فهم من دعاة الاسماعيلية أصلاً ومن جمعية اخوان الصفاء التي كانت قائمة في عهود الاسماعيلية القديمة كافة.

لقد وضع الامام وفي أحمد وابنه تقي محمّد احدى وخمسين رسالة، وذلك لحكمة تأويلية تقضي بأن تكون هذه الرسائل دائرة علمية ناموسية، صورة مطابقة لما في الدائرة العلمية. كما وأن في الدائرة العلمية بياناً لما في الدائرة الناموسية الدينية. وهكذا فإن العدد/ ٥١/ جاء مطابقاً لعدد ركعات صلاة الفريضة وصلاة السنة كما جاء في الرسائل.

واعلم يا أخي أنّا قد عملنا إحدى وخمسين رسالة في فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم: كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج، لكيما إذا نظر فيها إخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا، وفهموا بعض معانيها وعرفوا حقيقة ما هم مُقِرّون به من تفضيل أهل بيت النبي، صلى الله عليه وسلم، لأنهم خُزّان علم الله، ووارثو علم النبوات؛ وتبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة.

فأعيادنا أيها الأخ هي أشخاصٌ ناطقة وأنفسٌ فعّالة تفعل بإذن باريها ما يُوحيه إليها ويُلهمها من الأفعال والأعمال. فاليوم الأول من أيامنا والعيد الفاضل من أعيادنا هو يوم خروج أول القائمين منا، ويكون اليوم الموافق له لنزول الشمس برج الحَمَل لمجيء الربيع والخِصب والنعمة ونزول الرحمة والظُّهور والانتشار، وهو يوم فرح وسرور لنا ولجميع إخواننا.

واليوم الثاني هو يوم قيام الثاني الموافق يومُ قيامِه يومَ نزول الشمس أولَ السَّرَطان في تناهي طول الليل وقِصَر النهار إذ كان فيه تصرُّم دولة أهل الجَور وانقضاؤها وهو فرح وسرور واستبشار.

واليوم الثالث هو يوم قيامة ثالثنا الموافقُ لنزول الشمس أولَ الميزان واستواء الليل والنهار، ودخول الخريف، وهي مقاومةُ الباطلِ الحقَّ، وكون الأمر على خلاف ما كان عليه.

ثم اليوم الرابع يوم الحزن والكآبة يوم رجوعنا إلى كهفنا وكهف التَّقيَّة والاستتار، وكون الأمر على ما قال صاحب الشريعة: «إن الإسلام ظهر غريباً وسيعود غريباً فيا طوبى للغرباء» فيكون الأمر على مثل ما نحن

عليه في وقتنا إلى وقت البروز والخروج والرجوع بعد الذهاب كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاءِ إلى برج الحَمَل.

وفي رسائل الإخوان نصوص عديدة تنص وتذكر: «دولة أهل الخير» التي هي الدولة الفاطميّة. أما عن ترتيب نظامهم الفكري وفلسفتهم فيوجد أكثر من نص، وأننا عندما نورد بعض هذه النصوص، فلكي نعطي القارىء فكرة تتمثل فيها الحقيقة:

واعلم أن «دولة أهل الخير» يبدأ أولها من قوم خيار فضلاء يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ودين واحد، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً ألاّ يتجادلوا، ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضاً، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون».

وجاء أيضاً:

«إنّ من خواص اخواننا الفضلاء، انهم العلماء بأمور الديانات، العارفون بأسرار النبوّآت، المتأدبون بالرياضيات الفلسفية، فإذا لقيت أحداً منهم، وآنست منه رشداً فبشره بما يَسُرّه وذكره بـاستئناف دور الكشف، والانتباه، وانجلاء الغمة عن العباد بانتقال القران من برج مثلثات النيران إلى برج مثلثات النبات والحيوان في الدور العاشر الموافق لبيت السلطان وظهور الأعلام».

وجاء:

«فصار ذلك سبباً لاختفاء إخوان الصفاء، وانقطاع دولة خلّان الوفاء إلى أن يأذن الله بقيام أولهم، وثانيهم، وثالثهم، في الأوقات التي ينبغي القيام بها».

وجاء:

«واعلم أنه ما من جماعة تجتمع على أمرٍ من أمور الدين والدنيا، وتريد أن يجري أمرها على السواء، وتكون سيرتها على الرشاد إلا ولا بد لها من رئيس يرئسها ليجمع شملها، ويحفظ نظام أمرهـا، ويراعي تصرف أحوالها، يرمّ على الانتشار جماعتها، ويمنع من الفساد صلاحها، وذلك أن الرئيس أيضاً لا بد له من أصل يبني عليه أمره ويحكم به بينهم، وعلى ذلك الأمر يحفظ نظامهم، ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا، والحكم بيننا العقل الذي جعله الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه الذين هم تحت الأمر والنهي».

وجاء أيضاً:

«وكذلك فعلت الأمة الضالة، والفئة الطاغية، والعصبة الباغية من أئمة الضلال الداعية إلى النار، منعوا أولياء الله، وأهل بيته الذين أذهب عنهم

الرجس، وطهرهم تطهيراً، أن يسعوا في الأرض بالصلاح العام، والنفع التام، ممّا استذلوهم به من المذلة والهوان، وألجموهم عن النطق بالحكمة والكلام بما فيه صلاح الأمة بالخوف الذي لحقهم، والامتحان الذي شملهم منهم، كما تلجم البهائم بلجم الحديد الثقال، والارسان لتقاد حيثما قيدت، وتمتنع من الكلام بما أرادت فهي تشكو إلى ربها العالم بأسرارها بقلوب نقية، وأرواح سليمة، ونيات جميلة، عسى أن يرحمها، ويفرّج عنها، ويزيل كربها، ويسمع دعاءها ويعضدها، ويأخذ لها بحقها ممن ظلمها، وتعدى عليها، وهو ولي إجابتها، ومعونتها، ونصرتها إذا قام قائمها، وانتبه نائمها الذي طال نومه صبراً واحتساباً على ما ناله في جنب الله، وطاعته، حتى يأذن له ربه ويؤيده بملائكته، فعند ذلك يقوم، فيأخذ بحقه، وينجز له وعده، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً، ويفك البهائم الأسيرة، والأشخاص الذليلة من اسر العبودية، وقيد المملكة، ورق الذل، ويجعل الذين أهانوهم في مثل ما كانوا فيه جزاءً بما كانوا يعملون، ويحق الله الحق بكلماته، ويظهر دعوة إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، ويجمع شملهم بظهور النفس الزكيّة، والروح الطاهرة المطمئنة، فعند ذلك يطهُر الارض من انجاس الجاهلية».

وكما قلنا فإن رسائل إخوان الصفاء هذه تمثل الحياة العقلية في ذلك العصر، كما تمثل الحياة الفكرية بشكل أقوى من تمثيلها للحياة السياسية ويمكن القول أنها مرآة انعكست فيها الحياة العقلية انعكاساً مباشراً، ونحن نرى فيها كل هذا واضحاً جلياً... نرى أن العقل الإسلامي في ذلك العصر قد بدأ بفهم ما ينقل إليه من فلسفة اليونان، وحكمة الهند، وآداب الفرس، والآداب العربية والإسلامية وغير ذلك من الديانات السموية وغير السموية، وقد جمع ذلك كله ورتبه، ولاءم بينه، وحاول أن يكوّن منه مزيجاً واحداً مؤتلفاً هو خلاصة الثقافة التي يجب على الرجل المستنير حقاً أن يظفر بها، ويأخذ منها بالحظ الأوفر. ولا نضيف شيئاً جديداً حينما نقول: إن رسائل إخوان الصفاء هذه أشبه ما تكون بدائرة معارف فلسفية علمية جمعت كل ما لم يكن بد من تقديمه للرجل المثقف حقاً في ذلك العصر، وفي هذا العصر، وقد جمعت ذلك كله على شيء من النظام الذي يمثله الفهرست الذي قدم بين يديها... وهذا النظام يجب أن ينظر إليه من وجهين: أحدهما الوجه الفلسفي الصرف، وهو من هذه الناحية متـأثر بمـا عرف المسلمـون عن فلسفة الفيثـاغوريين، والأفلاطونيين القدماء، والمحدثين، وأرسطو، ولهذا التأثير ظهور في تقسيم الكتاب إلى أربعة أجزاء:

فالجزء الأول: يضم أربع عشرة رسالة في الرياضيات على اختلافها، في العدد والهندسة والفلك ثم في الفنون العملية، ثم في المنطق. وهذا الجزء فيثاغوري، وافلاطوني في أوله، وفي آخره متأثر بأرسطو، كما يظهر من منطقه وترتيبه، وأسمائه.

والجزء الثاني: أرسطوي الصبغة يتناول الطبيعيات كلها على النحو الذي تناولها أرسطو، فيبدأ بالهيولي، والصورة، والزمان، والمكان، والحركة، ثم ينتقل إلى الآثار العلوية، ولا يزال يتدرج حتى يصل إلى المعادن، وبعدها إلى النبات، وإلى الحيوان، ثم إلى الإنسان، وأخيراً يختمه بعلم النفس.

والجزء الثالث: مؤلف من عشرة رسائل فيما وراء الطبيعة، وهو ظاهر التأثر في هذه الضروب الثلاثة من الفلسفة اليونانية، ونستطيع أن نقول: انه يضم خلاصة آراء فلاسفة الإغريق، ففيه من الفيثاغوريين، وفيه من الأفلاطونية الحديثة، وفيه من الأسطوريين.

أما الجزء الرابع: فهو يتناول الإلهيات، وما يتصل بالديانات، والشرائع، والتصوف، وهو مزاج التأمت فيه كل العناصر المؤثرة في الفلسفة الإسلامية سواء منها الشرقي والغربي والفلسفي والعلمي والديني والأدبي والفني والخرافي أيضاً.

هذه الأجزاء الأربعة وعدد رسائلها احدى وخمسون رسالة ليست في حقيقة الأمر إلاّ مقدمة ومدخلاً إلى رسالة «الجامعة» التي هي خلاصة العلم، وغاية الغايات التي ينتهي إليها إخوان الصفاء، وهذه الرسالة يجب أن لا تعرض على أحد حتى يكون قد أخذ بحظه من هذه الرسائل. وإخوان الصفاء يشبهون أنفسهم برجل حكيم جواد كريم له بستان فيه من كل لذة، وفيه بهجة لا تعادلها بهجة، ولكنه لا يسمح للناس بالدخول إلى هذا البستان حتى يعرض عليهم نماذج ممّا فيه، فهم ينظرون إليه، ويدنون منه ثم يذوقون، ويشمون، ويلمسون، حتى إذا آنسوا، واطمأنوا، ثم رغبوا، واشتهوا أدخلوا إلى هذا البستان. ويشبهون رسالتهم «الجامعة» هذه بالدواء الذي يشفي الجسم عندما يكون متهيأً لقبوله، ويقتل إذا لم يكن الجسم متهيأً للقبول.

إن هذه الرسائل مفيدة للذين تخصصوا بدراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية، لأنها كما ذكرنا تمثل عصراً بدائياً من عصور الفلسفة في

الإسلام. وإني أجزم بأن قراءة هذه الرسائل بعناية وتدّبر ستكشف عن أشياء لم تظهر بعد، وليس بعيداً أن يكون ابن سينا والفارابي قد درسا، وأخذا، وتهلا من معين هذه الرسائل، كما أنه ليس من المستبعد أن يكون الغزالي أيضاً قد تأثر إلى حدٍّ قريب أو بعيد بفلسفة هذه الجماعة، ولا سيما حين نلاحظ بأنه نشأ فيلسوفاً ثم تحوّل إلى عالمٍ محكوم عليه، وانتهى صوفياً معتزلاً متعبّداً. وإننا نرى إخوان الصفاء يستخلصون التصوف، والغلو فيه من الفلسفة الخالصة، فهذا الدرس قد يفيد الذين يدرسون التاريخ السياسي للمسلمين، لأنه يكشف لهم عن أمور قد لا يظفرون بها في كتب التاريخ السياسي، فالتاريخ السياسي قد كتب كما يعلم كل إنسان تحت تأثير نوازع، ورواسب، وغـايات، حـالت دون الصـدق والاعتـراف بـالحقيقـة والانصاف بالحكم على الأمور، فكثير من أولئك الذين كتبوا هذا التاريخ السياسي لم ينظروا إلاّ إلى ظواهر الأمور، وأعراض الحياة العامة، فهم كانوا خاضعين لتيارات تهب من كل جهة، فتقذفهم من مكان إلى آخر. ومن يدري؟ فهذه الرسائل إذا قرأها الباحثون بعناية وإمعان فقد تكشف لهم عن أسرار علمية لا يمكن تقدير فائدتها، وكل هذا يفيد كل من يريد الاستفادة من العلوم المأخوذة من القديم.

إن الفكرة العامة عند الذين ينصرون القديم، ويتعصبون له الآن... إن هذا القديم ينحصر في الشعر والنثر، وما يتصل بهما من علم اللغة، ومن الأدب، فهم لا يعترفون بالفلسفة، ولا بالعلم، لأنهم يحسون بوضوح وجلاء تفوق الفلسفة الحديثة، والعلم الحديث على ما كان للقدماء من فلسفة وعلم، وقد اثبتوا في ذلك أنهم نفعيون يتأثرون بمنافعهم فقط، ويخضعون لعقول هي أرقى من أذواقهم، فحين يقدرون رقي العلم والفلسفة، وهم يتعمدون نكران ما كان للعصور القديمة من علم وفلسفة، كما لا يقدرون رقي العلم لفتور أذواقهم... فإنهم يقدرون الأدب القديم ويسرفون في تقديمه، ولو أنهم أنصفوا، أو لو أن هناك توافقاً بين عقولهم وأذواقهم لكانوا قدروا الأدب القديم، والعلم القديم، والفلسفة القديمة كلها على حد سَوَاء بشيء من العدل والانصاف. فليس أدب القدماء أكثر حلاوة، وإمتاعاً للنفوس من علم القدماء وفلسفتهم، وإذا كان علم القدماء وفلسفتهم لا يلائمان عقولنا الآن، فأدب القدماء يجب ألاّ يلائم

أذواقنا أيضاً، وعندئذٍ لا بد أن تكون قد مسخت هذه النفوس، وهانت عقولها، وإمّحت أذواقها أو كادت.

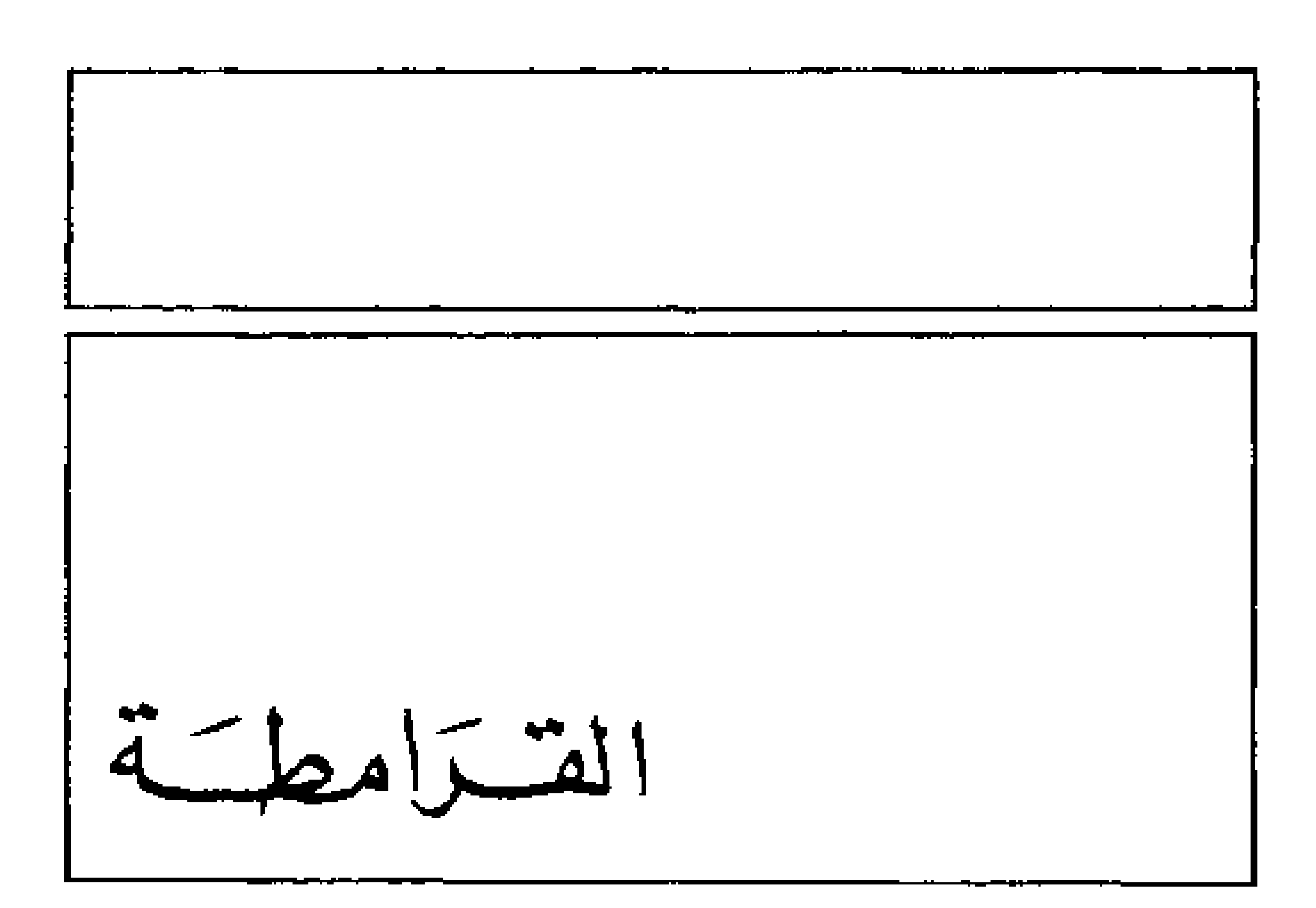
إن الذين ينصرون القديم، ويتعصبون له، والذين يريدون أن يكوّنوا لأنفسهم ثقافة قديمة صالحة، والذين يرغبون أن يعرفوا القديم على وجهه ليستطيعوا أن يعرفوا الحديث حق معرفته جميع هؤلاء خليقون أن يقرأوا الفلسفة القديمة كقراءتهم للأدب القديم.. في اعتقادي...ليس كل الناس. بل ليس كل مثقف يستطيع أن يتفهم فلسفة الفارابي أو ابن سينا، فهذه الفلسفة وقف على الخاصة لأنها كتبت لها، وهذا عكس رسائل أخوان الصفاء التي وضعت لعامة المثقفين، وكان القصد منها إيجاد ثقافة فلسفية صالحة، فهي أدنى إلى العقول، وأيسر على النفوس... وهي مقدمة صالحة للفلاسفة المتخصصين.

وقد يكون من الحق علينا أن نلفت أنظار الناس، إلى أن هذه الرسائل لم تقصد بها الفلسفة من حيث هي فلسفة ولا العلم من حيث هو علم، بل أريد منها تكوين ثقافة معينة تهيء لنحو من السياسة معين، ففيها من التأويل، وفيها من الخيال ما يحسن الالتفات إليه، والاحتياط منه معاً، وقد كان إخوان الصفاء أنفسهم مخلصين في ذلك، فقدروا، ولفتوا الأنظار ودعوا، والحوا في الدعاء بأن لا تعطى هذه الرسائل للناس إلاّ بمقدار، وقد كان ذلك ميسوراً في العصر القديم، حين كان العلم لا يؤخذ إلاّ في المدارس، ومن العلماء، وحين كان تحصيل الكتب وقفاً على فئة معينة من الناس، واقتناؤها لا يتأتّى إلاّ بعد جهد ومشقة. أما الآن فبوجود المطبعة أصبحت الكتب تعرض نفسها على الناس، وتلح في العرض ـ والإغراء... فنحن بين أمرين: إما أن نحظر نشر الكتب إلاّ بمقدار، وبعد امتحان، واختبار، وتمحيص، وفي هذا تقرير لمبدأ الجهل، والجمود، والانكماش، وإمّا أن نذيع الكتب، وننشرها، ولا نقيد حرية المطبعة إلاّ بما لا بد منه لحماية الأخلاق، وحياطة النظام الاجتماعي، وهذا هو السبيل الذي سلكته الأمم، والذي يجب علينا سلوكه راضين أو كارهين.

لرسائل إخوان الصفاء قيمة أخرى جديرة بالتنوية والتقدير، وأعني بها قيمتها الفنيّة الخالصة، فهي قد خصصت لجمهرة من الناس لتعليمهم وتثقيفهم، فعدلت عن العسر الفلسفي إلى اليسر الأدبي

وكانت غاية مؤلفها تسهيل أسلوبها وجعله سهلاً رقيقاً مفهوماً، وفي متناول الفكر. وقد نلاحظ أن فيها الكثير من التشبيه المتقن، والألفاظ المتخيرة، والمعاني الميسرة، وليس من الغلو أن يقال أنها قاربت المثل الأعلى في تذليل اللغة العربية، وتيسيرها لقبول ألوان العلم على اختلافها، وحبذا لو أن لدينا بعضاً ممن يعنون بالدرس الأدبي فيتوفرون على رسائل إخوان الصفاء درساً وتحليلاً ونقداً فمن الممتع أن نتبين ما فيها من ثمرات. وجملة القول:

هذه الرسائل كنز لم يقدر بعد، لأنه لم يعرف بعد، وهو إذا عرف فقد يجلو نقطة مهمة من حياة الأمة الإسلامية في عصر من أهم عصورها، وأجلها خطراً. وعسى أن يكون وجود هذه الرسائل بين أيدينا، المطلب الذي نطلبه ونحرص عليه فهو يقربنا من هدفنا المنشود ومثلنا الأعلى.



القرامطة

الاسماعيلية الفاطمية

من المعلوم أن الإسماعيلية تنسب إلى الإمام إسماعيل بن جعفر. ومن هنا جاء الاسم إلّا أن بعض علماء الإسماعيلية ذهب إلى القول بأن إسم «إسماعيلية» قديم وإنه جاء منذ عهد إسماعيل بن إبراهيم الخليل. ولكن هذا القول لا تؤيده المصادر التاريخية.

ظلت التسمية «الإسماعيلية» قائمة ومعترفاً بها حتى بدء قيام الدولة الفاطمية على يد عبد الله المهدي في المغرب. في هذا الوقت حلت التسمية الجديدة «الفاطمية» محل الاسم القديم «الإسماعيلية» لأسباب عديدة أهمها: ربط إسم الدولة الجديدة باسم مرغوب فيه، ومحبب لقلوب الناس في المغرب ألا وهو إسم «فاطمة الزهراء» ابنة النبي محمد (ص) من جهة، ومن جهة أخرى للتمييز بينهم وبين «العلويين» الآخرين الذين ينحدرون من علي بن أبي طالب من أم غير فاطمة الزهراء، وقد يكون عبد الله المهدي أراد بذلك إبعاد اسم «القرامطة» عن دولته وجماعته، فهذا الاسم قد طغى على كل الأسماء في عهد أئمة «دور الستر» فأصبح الإسماعيلي لا يعرف إلّا بالقرمطي، من قبل غير الاسماعيليين وهذا الاسم كان يقابل في العالم الإسلامي بالاشمئزاز والخوف، وخاصة في بلاد المغرب. إذن فالفاطمية هو اسم الدولة، واسم الخلفاء الذين حكموا في المغرب ومصر. أمّا الإسماعيلية فاسم المجموعة المنضوية تحت لواء الأئمة الفاطميين. ومن الجدير بالذكر أن اسم «الإسماعيلية» عاد بعد انهيار الدولة الفاطمية في مصر إلى الحلول محل «الفاطمية».

وكان موضوع «القرامطة» وما زال، يستأثر باهتمام الباحثين والمثقفين العرب في هذا العصر، كما وإن العديد من المستشرقين قد

تسابقوا إلى دراسته، والكشف عن هوية منظمي هذه الحركة الثورية العنيفة التي ما زال الغموض يكتنف تاريخها، ويلف جوانبها. ومن الواضح إن القراء العرب وجدوا في الحركة القرمطية تسليتهم وتعزيتهم، فكانوا يهرعون إلى قراءة كل ما يصدر عنها من بحوث ومقالات، ولكنهم انقسموا حيالها إلى فريقين: فريق يرى فيها حركة تقدمية اشتراكية، أو شيوعية أممية هدفت إلى إصلاح المجتمع، والخروج به من عالم الظلام إلى دنيا النور. وفريق ثانٍ اعتبرها حركة كافرة قامت على الضحايا والدماء، وعبثت بالقيم والأخلاق، فدمرت المدن، وقتلت النساء والأطفال، ووصل الأمر بها إلى حد العبث بالأماكن الدينية المقدسة. ونحن في موسوعتنا هذه... لا نريد أن نورط أنفسنا في هذا الجدل العقيم الذي لا يؤدي إلّا إلى الفرقة والانقسام، وحجب الحقيقة عن الانظار، فمهمتنا تنحصر كما أعلنا اكثر من مرة بعرض الوقائع والأحداث، مراعين بذلك الأمانة التاريخية قائلين مرددين بأننا لسنا ضد التقدمية البنّاءة، أو الاشتراكية الصحيحة التي تكفل حقوق الفرد والمجتمع، وتقوده إلى حياة أفضل، كما أننا لسنا مع مبدأ الإرهاب، والقتل، والتدمير، والاعتداء على الآمنين، والعبث بالأماكن المقدسة.

إن موضوع القرامطة، وهذا ممّا يؤسف له أشد الأسف قد أصبح في هذه الأيام مادة للتجارة، وموردأ للرزق والربح، فأكثر الكتب التي صدرت عنه توخّى مؤلفوها التجارة بالتاريخ من دون أن يكون للحقيقة أي وجود لديهم، وفتحت دور النشر أبوابها، وأعلنت عن ترحيبها لكل كتاب يحمل اسم «القرامطة» لأن هذه الدور وضعت أمام انظارها المكاسب الطائلة والسريعة بمجرد نزول الكتاب إلى ساحات العرض في المكتبات، وهذا ممّا يؤسف له أشد الأسف.

سبق لي أن ذكرت في كتابي الأول «القرامطة» وفي كتابي الثاني «ثورة القرامطة الاشتراكية» أن كلمة «قرمط» مشتقة من «KETAMID» وهي يونانية الأصل، ويرى البعض أنها مأخوذة من «قَرْمَطَ» أي غضب وعبس. وممن يأخذ بهذا الرأي «برنارد لويس» و «دي ساسي» ويذهب الأب أنستاس الكرملي إلى القول بأنها آرامية، مشتقّة من «قرمطونا» وتعني «المدلّس» أو الخبيث الماكر المحتال. أو من قرمط وهو الخبث والمكر والاحتيال.

وفي اللغة فالقرمطة في الخط دقّة الكتابة وتداني الحروف والسطور، وفي المشي مقاربة الخطو، وهي عند العامة التضييق والاقتار. امّا القرموط فدحروجة الجعل والأحمر من ثمر الغضى ونوع من السمك.

أجمعت المصادر التاريخية على القول بأن كلمة «قرمط» اطلقت أول ما أطلقت على الداعي الإسماعيلي في سواد الكوفة المعروف «حمدان ابن الأشعث» لأنه كان يقرمط في سيره إذا مشى.. أي يقارب ما بين خطواته، وهناك رأي آخر يذكر بأن التسمية جاءت من «القرمد» وهو الطوب الآجر الأحمر، ولما كان حمدان أحمر الوجه، فإن هذا الأسم الصق به. أما المصادر الإسماعيلية فتؤكد بأن كلمة «قرمطي» كانت تطلق على كل اسماعيلي، وهذا من قبل الأعداء والناقمين تشفياً وانتقاماً، وكل هذا كان سائداً قبل ظهور حمدان بن الأشعث على المسرح العام، وممّا يعزز هذا الرأي إقدام عبد الله المهدي على إطلاق اسم «الفاطمية» على دولته، وكأني به أراد إزالة هذا الاسم.. أي «القرامطة» عن دولته وعن أتباعه، نظراً لما يحمله من ذكريات مؤلمة تقابل بالسخط والازدراء في العالم الإسلامي.

وبحسب المصادر الإسماعيلية، فإن بوسعنا القول مطمئنين: أن دعاة الإسماعيلية في سواد الكوفة الذين تسلموا قيادة الدعوة في آخر المطاف، لم يكونوا هم الدعاة الأوائل، أو المؤسسين، وهذه حقيقة تنسحب على حمدان بن الأشعث ـ قرمط أيضاً.. فهناك دعاة قد سبقوه إلى تأسيس دعائم الدعوة، وربما كان ذلك منذ عهد الإمام محمد بن إسماعيل الذي مرّ معنا إنه أقام فترة قصيرة في سواد الكوفة، كما كان يوالي التردد إليها، وبعد وفاته استمرّ النشاط الدعائي، وظلت الدعوة سائرة في طريقها، وقائمة تزداد قوةً وعدداً يوماً بعد يوم حتى عهد الإمام الحسين بن أحمد (الأهوازي) وبعد ذكر المؤرخ المقريزي، أنه خرج من سلمية إلى العراق سنة ٢٥٩ هـ . وكان والده الإمام أحمد بن عبد الله لا يزال حياً، وتشاء الظروف أن يلتقي بحمدان بن الأشعث «قرمط» في سواد الكوفة، فيتعارفان، ويتحدثان، ويتناقشان في مختلف الأمور، ومنذ الجلسة الأولى، تمكّن الحسين من السيطرة عليه، وما زال يكرر لقاءاته معه حتى تمكن أخيراً من استقطابه، وتجنيده في صفوف الدعوة، وبعد أن أخذ عليه العهد والميثاق، أطلق يده ورسم له الخطط والطرق التي

يجب عليه سلوكها، وهذه البادرة شجعته على دعوته إلى منزله، وإحضار الناس لسماع أحاديثه، فتكلم فيهم، وأفاض، وعبّر بما يملكه من قوة البيان، والاقناع والقدرة على السيطرة على السامع بأسلوب ساحر آخاذ، فاعجبوا به إعجاباً كبيراً، ولبى الكثيرون منهم نداءه، وخاصة بعدما خبروا صفاته، وكرمه، ومثاليته، وتقشفه، وعكوفه على العبادة، وكل هذا جعل الناس يهرعون إلى دعوته لمنازلهم للتبرك به، وكان من يحظى بذلك يعتبرها نعمة من الله، وغنيمة كبرى، ولم تقتصر هذه الثقة على عامة الناس، بل تجاوزتها إلى رؤساء القبائل، والوجهاء، والطبقة المثقفة.

وتشاء الظروف مرة أخرى أن يلتقي زكرويه بن مهرويه السليماني في إحدى رحلاته، وهذا الرجل المرموق تولاه حمدأن وصهره عبدان فأثرا فيه، وغرسا في عقله مبادىء الدعوة، وجاء الحسين ليكمل البناء، فأخذ عليه العهد، وأعطاه رتبة كبيرة. وزكرويه كما ذكرنا كان من الشخصيات الكبرى في السواد، وكان يملك بساتين واسعة من النخيل لم يلبث بعد دخوله الدعوة أن وزعها وتصدق بريعها على الفقراء، والمحتاجين تحقيقاً لمبادىء الاشتراكية التي اعتنقها، فعظم في أعين الناس، وصدقوه ـ واحترموه، وصنعوا له هودجاً، وعندما يمرّ بين الناس يهرعون للتبرك به معتبرين أنه الممثل الأول للإمام المستور.

وبالإضافة إلى زكرويه فقد انضم إلى صفوف الدعوة الإسماعيلية كل من جلندي الرازي و عكرمة البابلي و اسحق السوداني و عطيف النيلي. وغيرهم، وهؤلاء كان كل منهم سيداً على قومه، ووجيهاً في عشيرته، وقد منحهم الإمام الحسين الرتب العالية والألقاب التي تتناسب ومكانتهم في المجتمع، ومن بينهم الثري الفارسي «دندان»(*) الذي وضع ثروته بتصرف الدعوة، وهكذا تحوّل هؤلاء إلى دعاة يحملون على عاتقهم مسؤولية الدعوة، وإعلاء شأنها، وإطاعة أوامر المسؤول الأول فيها.

(*) ذكرت المصادر أنه تبرع للدولة القرمطية بمليون دينار اسمه محمد بن الحسين وأصله من الكوفة، ثم انتقل إلى الأهواز وأقام فيها فترة ثم فارقها إلى قُم. وأخيراً استقرّ بجهات «اصفهان». بعض المصادر ذكرت أن له ثلاثين كتاباً في فلسفة الدعوة. ولكن حتى الآن لم يعثر له على أي مؤلف.

أمّا «عبدان» فهو من الدعاة المفكرين الذين تخصصوا بالتأليف، وكان قد اعتنق الفكرة في وقت مبكّر، وإليه يرجع الفضل باستقطاب «زكرويه» وإدخاله في صفوف الدعوة، بحيث خصص له منطقتين للعمل هما: «فُدْ» و «طسوج»، وعاونه في ذلك الحسن بن أيمن وتستر البوراني وابن الوليد وأبو الفوارس، وهؤلاء تعاونوا على توزيع الأدوار والمهمات، وتشكيل المراكز، والحلقات... ولم تمضِ سوى فترة قصيرة حتى هرعت القبائل العربية للانضواء تحت لواء الحركة الإسماعيلية، ولم يتخلّف «رفاعي» ولا «حنبي» من بطون قبائل العرب المتصلة بسواد الكوفة وخاصة «بني عابس» و ذهل» و «عنزة» و «تيم الله» و «تيم ثعل» و «بني شيبان».

إن المتتبع لسيرة حمدان بن الأشعث ـ قرمط ـ يرى: إنه كان مخلصاً للدعوة الإسماعيلية مطيعاً للأئمة، ينفذ أوامرهم بحذافيرها، ولا يقوم بعمل إلّا بعد الاستئذان منهم.. هذا في عهد الإمام الحسين بن أحمد الأهوازي.. أمّا في عهد عبد الله المهدي فأحسب أن الموقف قد تبدل وساد العلاقات بعض الفتور. ففي تلك الفترة الزمنية اتخذ حمدان لنفسه خطة تقضي بالالتزام بالمقررات المتخذة من قبل بعض دعاة السواد، القاضية بالخروج عن الصمت، وإثبات الوجود، وتعزيز المواقف، مع الإبقاء على الارتباط بمركز الدعوة الإمامي في سلمية، وعندما جاءت سنة ٢٧٥ هـ كان حمدان قد انتهى من وضع دستور دولته القرمطية المرتقبة، وعهد إلى الداعيين الكبيرين أبي الفوارس و أبي حاتم البوراني السهر على التنفيذ، وكان قد استقدمهما من اقليم القطيف والبصرة حيث كانا يقومان بالدعاية.

كان حمدان متحمساً لقيام دولة إسماعيلية اشتراكية في منطقة سواد الكوفة، وهذا الحماس دفعه إلى البروز، والإعلان عن دولته متحدياً بذلك الدولة العباسية التي كانت غارقة في بحر من الفساد، والفوضى، وعدم الاستقرار. فجاء إلى قرية «مهتماباذ» وأمر ببناء سور كبير حولها جعل عرضه ثمانية أذرع، ومن ورائه خندق عظيم، ثم نقل إليها الدعاة والمعلمين وأناط بهم مهمة تعليم المستجيبين، وإعطاء الدروس للطلّاب، وخاصة للمتطوعين في الجيش، كما جاء ببعض المحاربين والقواد، وأمرهم بتدريب الجنود على أساليب القتال... ومن جهة أخرى أخذ يعمّم النظريات الاشتراكية، ويطبقها في المناطق

التابعة لـه، وينمي موارد الـدولة بفـرض ضرائب عـلى الأفراد القادرين، وعلى أصحاب الدخل والقدرات... ويبدو أن استئثاره بالزعامة الأولى لم يرضِ أسرة «آل مهرويه» فأخـذ الحسد والنقمة يعملان في نفوس أفرادها، واشتـد النزاع وتطـور حتى اختفى «حمدان» في ظروف غامضة، وقتل صهره عبدان فأقام هذا الحدث الرهيب عبد الله المهدي وأقعده، واتهم آل مهرويه بالجريمة، وأمر بتجريدهم من رتبهم الدينية وإبعادهم عن الدعوة، كما أمر بإلغاء مركز «داعي الدعاة» من سواد الكوفة ونقله إلى مدينة «حماه»، وعَين له الداعي الكبير أبا الحسن الأسود.

ومن الأمور الطارئة التي عجَلت بإشعال نار الحرب، وتوسيع شقة الخلافات الداخلية، إقدام أحمد بن حمدان بن الأشعث قرمط على مطالبة عبد الله المهدي بتعيينه في مركز والده، ولكن عبد الله المهدي أجابه بالرفض قائلاً: إن المناصب في الدعوة الإسماعيلية يحصل عليها المستجب بالجد والاجتهاد والعمل، ولا تخضع إلى التسلسل الوراثي، وهذا الرد حفز آل حمدان وأتباعهم على الوقوف موقف الغاضب، والتوقف عن مساندة عبـد الله المهدي في صراعه مع «آل مهرويه» ولكنه لم يوقفهم عن اتهام آل مهرويه المذكورين بدم حمدان وعبدان وتهديدهم بأخذ الثأر، مما اضطر زكـرويه إلى مغـادرة السواد، واللجوء إلى بلاد الشام، حيث ظلَّ مدة عامين عاد بعدها إلى بلاده ليتولّى القيادة العامة، وينفّذ ما رسمه من مخططات، وكان ولداه يحيى والحسن قد قاما بالثورة، واندفعا ليهدما ويدمـرا، ويقتلا، وأخيراً: قتل ولده يحيى على أبواب مدينة دمشق، وابنه الثاني الحسن على أيدي العباسيين.

وبالرجوع إلى سيرة حمدان بن الأشعث يتبين أنه حقق انتصارات باهرة في مجال الدعاية، وقدَّم للدعوة الإسماعيلية أجل الخدمات، كإقدامه على اتخاذ «كلواذي» وهي إحدى المحلات في ضواحي بغداد لنشر الأفكار والمبادىء الجريئة ضد الدولة العباسية، أضف إلى ذلك أنه نظم الصفوف، وأعد الكتائب، والفرق العسكريـة، وسلحها، ودربها على أساليب القتال، وجعلها في حالة تأهب دائم وأنه بنى داراً للهجرة كما ذكرنا في «مهتمابان» وجعلها قاعدة عسكرية للتعبئة وللتدريب، وإلى جانبها المدرسـة الفكريـة التي تعَلِم المستجيبين

والدعاة، وتؤهلهم للخروج إلى كل مكان للدعاية، كل هذا كان من الأسباب التي حببته للناس حتى لم يبق أحد في تلك الديار إلّا هاب جانبه، وحسب له حساباً، بل إن ذكره تخطى الحدود، وأصبح مصدراً للقوة وللرجولة.

أما عبدان، فكان من الشخصيات المثقفة الذين عرفوا بسعة العلم، والفطنة، والفهم والحذق، والإحاطة بكل شيء حوله، فقد قدم الخدمات، وأصاب النجاح، وألّف الكتب، وأعطى الدروس حتى اعتبر أنه أحد الذين ساهموا بوضع دستور الدولة القرمطية، والمبادىء الاشتراكية. ومن الجدير بالذكر إن عبدان هو الذي أثّر في أبي سعيد الجنّابي الزعيم البحراني الواسع النفوذ، والذي لعب دوراً كبيراً على مسرح السياسة. وتمكن من نقل الدولة القرمطية إلى البحرين، كما يعود الفضل إليه باستقطاب الثري الكبير «دندان» كما ذكرنا، وزكرويه بن مهرويه».

وعندما نتحدث عن زكرويه نرى لزاماً علينا أن نقول:

أنه ساهم في العمل في وقت مبكر من انتسابه للدعوة، وأظهر إخلاصاً ممّا جعل حمدان يمنحه الصلاحيات الواسعة، ويوكل إليه أهم المهمات. فقام فيها بالفعل وهو ممتلىء حماساً ولقد انحصرت خدماته للدعوة في الشمال الغربي من العراق، وفي بادية السماوة والشام وخاصة بين القبائل العربية التي كانت تعيش على شواطىء نهر الفرات، كبني عليم، وأسد، وكلب، وربيعة والعلّيص.. وغيرهم.

ثم رأى نفسه أهلاً لمنصب القيادة، وداخله الحسد والغيرة من حمدان، وعبدان، فعمد إلى التخلص منهما الواحد بعد الآخر، وعندما شعر بنقمة الناس عليه، وبالحرب التي أعلنها عليه عبد الله المهدي في سلمية غادر منطقة السواد، ولجأ إلى إحدى الجهات في بلاد الشام بعد أن عهد إلى ابنه يحيى بالقيادة.. ويحيى هذا كان يلقب بصاحب الناقة، وهو الذي قاد معارك الفتك والتدمير والقتل والسبي في بلاد الشام، وبعد مقتله تسلّم شقيقه الحسن الملقب «بصاحب الخال» أو «الشامة» أو «أبو مهزول» وهذا الأخير جاء إلى سلمية وقصده القبض على عبد الله المهدي، ولكنه لم يجده، ثم قتل. وبعد مقتله عاد والده إلى الواجهة من جديد، وقاد المعارك العنيفة ضد الدولة العباسية.

الاشتراكية القرمطية

نحن أمام دعوة سرية، عاشت في كنف العلم والمعرفة، وقامت في جهة منعزلة من بلدان العالم الإسلامي في فترة من فترات الفوضى والقلق وعدم الاستقرار، فاستنبطت الأفكار، وابتدعت التعاليم، وسنَّت المبادىء والقوانين، ثم أذاعتها في الأقطار، وغرستها في العقول حتى عمَّت كل أجزاء العالم الإسلامي الشاسع.

نحن أمام عقول مبدعة نشيطة، خططت وعملت في ظل مبدأ يهدف إلى خير الإنسانية، وبناء مجتمع أفضل. فنظمت الأمور، ورتبت المناهج، ودفعت بدعاتها العباقرة إلى كل مكان يحملون الأفكار، ويفتحون الفتوحات، ويحدثون الانقلابات في المجتماعات البدائية زارعين بذور العلم، والحضارة، والفلسفة حاثين على التحرر، داعين إلى ثورة تطيح بالفساد، وتجرف السيطرة والطغيان.

نحن أمام حركة ثورية أممية بالغت في السرية، ثم ظهرت فجأة على المسرح بعد أن تمكنت من تحرير عقول كثيرة من أسرها، والخروج بها من مكامنها، إلى التوسع، والتحرر، والانطلاق في دروب الحياة.

نحن أمام مجموعة من الناس نالت قدراً كبيراً من الثقافة، واكتوت بنار الظلم والإرهاب، والتحكم الجائر، فراحت تضع كل القوى التي تمتلكها لتغيير أساليب الحكم القائمة، وتقويض دعائم الدولة الجاثمة... إنها الدعوة القرمطية، التي غمرتها السرية بأمواجها، ولفَّها الغموض بردائه حتى التبس أمرها على الباحثين والمؤرخين، فوقفوا مشدوهين، وخانهم الحظ فما استطاعوا إعطاء فكرة صحيحة عن واقعها، وأهدافها، وماضيها، وحاضرها.

ولقد قلت في أكثر من مناسبة أن الإسماعيلية التي استأثرت باهتمام العلماء والناس ستبقى كما كانت تعيش في عالم المجهول، حتى يقوم فينا من يتوفر على دراسة تاريخها، وفلسفتها دراسة وافية تنزَّهت عن التعصب والحقد، ولا ريب في أن يومها العتيد هذا لم يعد بعيداً. ونحن عندما نضع أمامنا الانتصارات الرائعة التي حققها هذا النظام الفكري في مجال نشر تعاليمه، ومبادئه، لا يسعنا إلَّا العودة إلى مراجعنا ومعرفتنا.

كانت هذه التعاليم تُعطى للمستجيبين على شكل خطوات تتدرج من

المبادىء البسيطة حتى تصل بالطالب إلى عالم فسيح من الفلسفة.. وكان المستجيب لا يعرف شيئاً عن الدرجات التي تلي درجته، وهكذا بالنسبة لأصحاب الرتب الأخرى في الدعوة، فكان همّ كل واحد من الدعاة أن يؤدي دوره ويقدم الخدمات، ويبذل كل ما في وسعه ليرقى إلى مرتبة أعلى، وكان العديد من الدعاة أيضاً لا يعرفون شيئاً عن رفقائهم الذين انتظموا في سلك الدعوة.. هذا.. ويشهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء أنهم برعوا منذ نشأتهم بتنظيم المراكز، والخلايا، والحلقات تنظيماً بارعاً، ودرسوا الفلسفة، والعلوم، والآداب، وفقه الأديان، ممّا مكنهم من السيطرة على النوادي الأدبية، والمجتمعات الدينية، وبالإضافة إلى كل ذلك كانوا أشبه بالمخبرين الذين تنحصر مهمتهم بنقل أسرار الدولة الحاكمة، وحكام الأقاليم، وأخبار المجتمعات الأخرى إلى مركز دعوتهم الرئيسي ليصار إلى دراستها، واستغلال خيرها، وشرها لمصلحتهم. أما مبدأ التعاون ـ والإخاء، والصدق.. فكل هذا كان قائماً، ومعززاً بأوامر مشددة، فالفرد عندهم كان مرتبطاً بالمجموعة بوشائج قوية بحيث يرى هذا الفرد ان حياته ووجوده لا يتمان إلا في التماسك، والتعاون مع الجماعة التي يرتبط بها، وهذا الارتباط المنبثق من الإيمان، ونكران الذات، فرضته الأوامر الإمامية العليا التي كانت تقول: بأن الجماعة تتكون من أفراد مختلفي المشارب والنزعات، وفي هذه الحالة تؤلف بينهم العقيدة التي آمنوا بها، وكرسوا حياتهم للدفاع عنها.

لهذا فإن مبادئهم السياسية والإجتماعية ارتبطت بآرائهم الأدبية والفلسفية ارتباطاً جعلهم كأسرة واحدة، وكنفس واحدة، ولقد ظهرت عبقرية المسؤولين أو القياديين للحركة في تطبيق هذه الأنظمة الحياتية، فكانوا يسهرون على تنفيذها، ويتعبون في سبيل تطبيقها مدللين على قوة إرادتهم، وتحملهم المكاره، والمشقات في سبيل هدفهم المنشود. وأكثر من ذلك، فإن الفرد من هذه الجماعة كان يعتقد بإخلاص من هم أعلى منه رتبة، ويرى أن طاعتهم واجبة، ومن هنا توثقت عرى المحبة والطاعة بين الكبير والصغير لدرجة إن هذه الجماعة أصبحت مصدراً يفرض احترامه حتى على أعدائه. ومما يجب أن نشير إليه أن هذا التنظيم روعي فيه الدقة والمطابقة لمستوى الأذهان، والإستعداد النفسي. فالجميع كانوا يعطون أصول

المبادىء، والخاصة والمستنيرون الأسرار، والمراتب العليا، وكانت الوديعة لديهم لا تلقى إلّا لحفّاظ الودائع، والأسرار لا تمنح. إلا لأهلها ومستحقيها، أما المستضعفون فكـانوا يحسبـون في عداد المهملين، والمتخلفين.

لقد لعبت الحركة الإسماعيلية دوراً مهماً في تاريخ البشرية، وأثّرت فيه تأثيراً بعيد المدى، فكانت في كافة أدوارها، ومراحل وجودها أداة هائلة من أدوات البناء، والتغيير والاصلاح، وإزالة المساوىء العالقة بالمجتمع، وتفكيك المفاسد التي تعطل مسيرة الإنسان، والحضارة فللإسماعيلية سحر خاص، وجاذبية غريبة كانت تهفو إليها نفوس الطبقات المثقفة فتستهويهم، وتستأثر بنفوسهم، وتبلغ منهم مبلغاً يدفعهم إلى المخاطرة، والمجازفة في سبيل مبدأ آمنوا به وكرسوا حياتهم لأجله.

والحركة الإسماعيلية التي نتكلم عنها، لم يكن لها نظير في أجتذاب الناس من مختلفي الألوان، والاتجاهات.... فكان فيها المثـاليون المخلصـون، والأبطال الأفـذاذ والعلمـاء، والأمـراء الفـلاسفـة، والفدائيون، والأغرار المندفعون، والمغامرون، وجميع هؤلاء شبوا على ضروب من الشجاعة والإقدام كل في مجال اختصاصه، وأتوا بأمثلة رائعة لإنكار الذات، وانضووا في حركة أقل ما يقال عنها، أنها جديدة بتنظيمها، وأساليب دعاتها الذين تخصصوا بدراسة نفسيات الشعوب وعرفوا مصادر التذمر، والرضى لديهم، وكل ما يحوط بهم من خير وشر، ومن سعادة وشقاء.

إن الاشتراكية الصحيحة البنّاءة أو المسـاواة في أية دولـة، أو مجتمع، لا يمكن أن تنمو وتزدهر إلّا في ظل الحرية والحكم الصالح الذي يقوم على دعائم من الشورى والعدالة. فالاشتراكية، والحرية، صنوان لا يفترقان، ومتى افترقتا وقع الانحراف، وسادت الفوضى، وعمّ الفساد والمظالم، وتحوّلت القاعدة الاشتراكية عندئذٍ إلى منظمة للسلب، والنهب، والإثـراء غير المشـروع، والاستبـداد، والتحكم الفردي من قبل أفراد مغمورين حاقدين على المجتمع، ومجردين من القيم، والأخلاق، وكل ما يمت للوطن وللأمة بصلة.

ونحن قد عرفنا الإسلام وأنه ساوى بين الناس، ولم يفضل أحداً على

الآخر، واعتبر الموارد الطبيعيّة الأساسية كالأرض، والماء ملكاً للأمة، وأنكر الاستغلال، ومنع الاحتكار، ولا سيما السلع الغذائية، وحرَّم الربا، كما حرَّم تخزين الذهب، والفضة والمال، ونادى بالعدالة، والحرية، والأخوة الإنسانية دون أن يفرّق بين إنسان وآخر إلاَّ في مدى تحقيق القيم الرفيعة، والعلم، والأخلاق، والخدمات، وحث على الاجتهاد والعمل المنتج، والتضامن، والتحابب، والتقدم، واعتبـر عمارة الدنيا سبيلاً لعمارة الآخرة. فمن هنا انطلقت الاشتراكية التي نادى بها، وحمل لواءها الإسماعيليون، ومن الثابت، والأكيد أن واضعي أسسها وتعاليمها هم «الأئمة المستورون» الذين عاشوا في سلمية، عندما أرادوا وضع دستور لدولتهم المرتقبة التي كـانوا يبشرون بقرب ظهورها، ولكن هؤلاء الأئمة لم ينفذوا قراراتهم لعلل وأسباب ذكرنا بعضها، أو لأن ثمرتها لم تنضج بعد، فجاء أتباعهم «القرامطة» الذين خرجوا عليهم، فوضعوها مـوضع التنفيـذ في مجتمعهم،وحملـوها إلى المنـاطق الأخرى، ولكن في ظـل الرمـاح والحراب، وتحت وطأة القتل والتدمير والعبث، فلم تلبث أن انهارت دولتهم الارتجالية المبكرة تاركة وراءها أسوأ الذكريات.

إن الاشتراكية البنَّاءة لا يمكن أن تستقر في الأفكار إلاَّ إذا قام على رعايتها وتنفيذ تعاليمها علماء مخلصون،وفلاسفة حكماء ذوو ضمير ووجدان... فنحن مع الاشتراكية الصحيحة التي تدعو إلى الخير والصلاح.... ولسنا مـع الاشتراكيـة الملطخة بـالحقد والـدماء، والانتقام، وسلب ثروات الناس على أيدي الرعاع، والدخلاء الذين نشأوا في ظل الحقد، والجهل، والضغينة.

كنا ذكرنا أن مدينة سلمية كانت القاعدة الأولى التي توزع الأفكار والتعاليم، أو المصدر الذي يصدر الأوامر والقوانين، وعندما تحولت سواد الكوفة إلى عاصمة ثانية، أو عندما انفردت واستقلّت وحدها بالتنفيذ، وصياغة القوانين، وكانت الدولة العباسية في تلك الفترة تخوض حرباً ضارية ضد ثورة الزنج. وأحسب أن الثورتين القرمطية والزنجية تعاونتالتغييروجه التاريخ الإسلامي، ولكن ذلك كان عسيراً لأن الحركة القرمطية كانت تختلف عن ثورة الزنج بالأفكار والأهداف فالقرامطة أقاموا ثورتهم على أسس فكرية، بينما الحركة الزنجية قامت من دون أهداف أو أبعاد.

كانت تلك الأفكار جديدة على الافهام في تلك الفترة، ولكن تطبيقها كان ضرورياً بسبب التضارب بين مصالح الأفراد... بين الغني والفقير.. بين القوي بثروته، والضعيف بحرمانه، وهذا التضاد لم يلبث أن تحول إلى نضال بين القبائل والطوائف، حينما أخذت الطبقة الحاكمة حفاظاً على ثروتها، ومصالحها تلجأ إلى قوتها الاقتصادية، للدفاع عن وجودها ومكانتها، وعندما أصبحت الملكية الشخصية أساساً للسلطة السياسية، واستئثار الطبقة المالكة بالحكم والتشريع، وحشد القوى المسلحة لفرض إرادتها على المجتمع، وإنشاء نظام اجتماعي يخدم مصالح الطبقة الحاكمة، وهكذا تصبح الدولة سلاحاً ماضياً في يدها تشهره دفاعاً عن سيادتها، ووجودها ضد الطبقات المحكومة المستعبدة، والمسترقة.

وليس بالجديد أن تصبح الملكية في ذلك العهد ممثلة للارستوقراطية ولملاكي الأرض، واستخدام الدولة، وجعلها أداة لتعزيز سيادتها بإرهاق القوى المنتجة، واخضاعها لمشيئتها. أما طبقة أصحاب الأموال، فإنها أخذت تتقوى وتنمو على كر العصور، وتناوىء الملكية والارستوقراطية، وتنتزع زمام القوى الاقتصادية شيئاً فشيئاً، فلما اشتد ساعدها مالت على الملكية المضمحلة، فحطمتها، وأبادت نظم الاقطاع، واستولت على مقاليد الأمور، واستأثرت كسابقتها بالسلطان السياسي والاقتصادي، واستخدمت قوى الدولة لفرض سيطرتهاعلى الطبقات العاملة.

كان النظام الإسماعيلي الاقتصادي في تلك الآونة متجاوباً مع رغبات، وتطلعات العمال والكادحين، والطبقة الفقيرة، فالقائمون عليه يرون في النظام الرأسمالي المتحكم بالمجتمع نظام احتكار واستئثار، وتحكم طبقة قليلة بأغلبية محرومة، وهذا ما عاهدوا الله على محاربته، ومحوه من الوجود، فجندوا الطبقة العاملة المحرومة، والفلاحين، وأصحاب الحرف، وغرسوا في أفكارهم ضرورة تغيير النظم السائدة، وتمليك الأرض إلى الطبقة الفقيرة، وإحلالها محل الطبقات الغنية، واقتطاف ثمار الأرض، وإيجاد نوع من المساواة الاقتصادية بين جميع الأفراد بلا تمييز في القومية، أو الجنس، أو السن، وسحق استغلال الفرد، أو الجماعة، أو الدولة للفرد، وتحقيق الحرية، والعدالة، والمساواة بين جميع المواطنين دائماً، وأخذوا بعين الاعتبار:

أن العامل المأجور في ذلك المجتمع كان يتقاضى أجوراً ضئيلة تجعله تحت رحمة مخدومه سواءً كان فرداً أم جماعة، ومهما قلت ساعات العمل، أو تضاعفت مواد الربح، فكان لا بد من تطبيق فكرة توحيد ملكية الأرض، أي إلغاء الملكية الفردية بما فيها من كنوز وأرزاق وتدخل في ذلك الأبنية العامة، والمصانع، وآلات الإنتاج، لأن الاستعباد السياسي، والأخلاقي،والفكري الذي ساد الشعوب في ذلك العصر من عمر الدولة العباسية، كان أساسه نظام الملكية الفردية ومنح الحق لكل إنسان بلا تمييز في القومية أو الجنس أن يستخدم كل الوسائل الإنتاجية سواء العلمية أو الفنية، وأن ينتفع بجميع الأنظمة الاجتماعية، مع المشاركة بكل وسائل أعمال المجتمع.

ومن المبادىء التي أخذ بها، وطبقها النظام الإسماعيلي: المساواة الفعلية بالحقوق والواجبات، والاشتراكية في الممتلكات، وتقليل التفاوت في الثروات. وإننا نراهم يطبقون القواعد التي عبَّر عنها «إخوان الصفاء» في رسائلهم، فمن كان منهم فقيراً أسعفوه، ومن كان عارياً البسوه، ومن كان جائعاً أطعموه، وبهذا جذبوا إليهم الطبقات الفقيرة، وخاصة عندما وزعوا عليهم الملابس، والأدوية، والأقوات، كما أنهم احتكروا بعض مصادر الثروة الفردية لاعتقادهم أنها أصل الشرور، والأمراض الاجتماعية، واستولوا على بعض وسائل الإنتاج، ووزعوها توزيعاً عادلاً على الأفراد، واحتكروا الحوانيت والمستودعات والأفران والحمامات، وأداروها على حساب الدولة، وأفسحوا المجال للمزارعين وللحرفيين، وللعاملين في مجال الأرض والصناعة، وأرادوهم أن يكونوا هم المصدر الوحيد لكل الخيرات المادية والروحية في كل نهضة اقتصادية. فعليهم أن يشاركوا ويساهموا في بناء أسس الحضارة، وتركيز دعائم القيم الإنسانية الرفيعة. أمَّا إذا كان قد حصل انحراف، أو طرأ على النفوس مرض عضال، فهذه سنة الكون، والإنسان منذ أن وجد على سطح هذا الكوكب عرضة للأخطاء، وكثيراً ما تجني الاجتهادات، على التطلعات، والآمال.

جاء في بعض المصادر التاريخية أن الخلفاء الفاطميين كانوا إذا سخطوا على أحد الأغنياء، وشعروا بمعارضته لحكمهم، عمدوا إلى نزع ملكيته، وضم أراضيه وممتلكاته إلى الدولة. وكانت فكرة مقاومة

العصبية القومية، والدفاع عن الإخاء لا بين المسلمين وحدهم، بل بينهم وبين الشعوب والقبائل، والأمم على اختلاف قومياتها وطبقاتها وأديانها.. من مبادىء الفاطميين الذين وجهوا اهتمامهم في بدء حياتهم إلى جعل أعضاء دولتهم المختلفي النزعات والجنسيات كتلة واحدة ولم يتوانوا عن تعميم أفكارهم على كلّ الشعوب الخاضعة لهم على أساس احترام جميع الأديان الأخرى، والسماح لها بممارسة طقوسها بحرية كما أنهم بشروا بالاشتراكية، وجعلوها قاعدة العمل في المجتمع، ولكن بأسلوب إنساني، ووفق الاقناع العقلي، دون اللجوء إلى العنف والإكراه. وعندما تسلم القرامطة زمام الأمور طبقوا الاشتراكية بأساليبهم الخاصة، فدفعوا للصنّاع ثمن آلاتهم، وأعانوهم على القيام بالعمل، وأصلحوا المنازل والمزارع والمرافق العامة بواسطة عمال الدولة من غير أن يتقاضوا أية أجور أو تعويضات، وطحنوا القمح والشعير في مطاحن الدولة دون أن يكلفوا أحداً من الأفراد بدفع أي مبلغ. وقد ذكر هذا الرحالة الفيلسوف «ناصر خسرو في كتابه: سفرنامه».

إن عملية الإنتاج لدى القرامطة لم تكن مقتصرة على عمل الإنسان في الطبيعة، بل تقتضي أن يعتمد على غيره من الأفراد، فلا ينتج الأفراد إلّا إذا عملوا معاً وتبادلوا نشاطهم في طرق معينة، وهم من أجل الإنتاج يتعاملون، ويرتبطون، ولا تؤثر جهودهم في الطبيعة، أو بلغة أصح لا ينتجون إلّا بعقد هذه الروابط الاجتماعية بين المنتجين، والظروف التي يتبادلون فيها نشاطهم، ويقتسمون ثمرة جهودهم، وقد تختلف باختلاف الوسائل المادية، وتطورها، وتقدمها، وليس المال سوى علاقة اجتماعية للإنتاج. لأن وسائل العيش، وآلات العمل والمواد الأولية التي يتكوّن فيها رأس المال لم تخلقها او تنميها إلّا ظروف وعلائق اجتماعية معينة، ثم بعد ذلك تستخدم للإنتاج من جديد تحت تأثير ظروف، وعلائق اجتماعية جديدة، وهذه الصفة الاجتماعية المعنية هي التي تطبع الإنتاج بطابع راس المال، وفوق ذلك فإن جميع العناصر المنتجة التي يتكوّن منها رأس المال ليست إلّا حاجات تعيش وتنمو بالتبادل، والتعاون مع قوة اجتماعية مستقلة أخرى هي العمل، وكلتا القوتين لا تنتج إحداهما دون الأخرى، ولكن مما لا ريب فيه أنهما ليستا على درجة واحدة من التكافؤ والقوة.... ذلك أن العامل يأخذ من صاحب المال ما يقيم أوده مقابل عمله، ولكن صاحب المال يغنم نظير ذلك قوة المعامل المنتجة التي لا تقتصر على سد ما ليستهلكه، بل تسبغ إلى جانب ذلك على العمل المتكدس قيمة مضاعفة.

فالفلاّح الذي يعمل طوال يومه في الحقول لقاء دراهم معدودة ينتج للمالك أضعاف هذه القيمة، وبذلك يستهلك المالك أجر العمل بطريقة نافعة مثمرة لأنه يستطيع أن يشتري عمل العامل بما يوازي الضعف أحياناً. في حين أن العامل يشتري بما ينقده من الأجر الزهيد وسائل للعيش يستهلكها عاجلاً، ولا يستطيع الحصول على غيرها إلاّ إذا قدم عمله للسيد ثانية. والعامل الذي يعمل في مصنع للقطن مثلاً، لا يقتصر عمله على إنتاج المصنوعات القطنية وحسب بل ويخلق المال في الوقت نفسه، أو بعبارة أخرى يخلق قيّماً يستلزم عملها من جديد ليخلق مكانها قيماً أخرى جديدة. وهكذا يستطيع المال أن يضاعف نفسه بمبادلة العامل المأجور، واستدعائه لمعاونته، ولا يمكن أن يتقدم العامل لمعاونة رأس المال إلاّ لمضاعفته، أو بالأحرى إلى دعم القوى التي تعمل على تسخيره واستغلاله. ومن الثابت أن الراسماليين في كل بلد هم أقلية صغيرة، ولكنها تقبض على جميع وسائل الإنتاج، وتسيطر على جميع الطبقات الأخرى، وتمسك بزمام القوى السياسية والعسكرية والتشريعية، فنهوض الكتلة العاملة التي تؤلف اغلبية المجتمع لا يمكن تحقيق فكرتها إلا بهدم النظم السائدة، وإحلال نظم جديدة مكانها. ومن الواضح أن القرامطة في المرحلة الأولى من حياة ثورتهم، أعلنوا عن اشتراكية أممية تقوم على أسس اجتماعية واقتصادية، وعلى دعائم فلسفية وسياسية من أهدافها:

القضاء على استغلال الإنسان للإنسان، ونزع الأملاك الأرضية والعقارية الفردية الواسعة، ومصادرة الإيرادات الطائلة الخاصة لمصلحة الدولة، وفرض ضرائب معقولة متدرجة في الضخامة، وإلغاء قانون الوراثة في المناصب والقيادات، ومصادرة أملاك العصاة والمجرمين والمهاجرين، ووضع جميع وسائل النقل والمواصلات تحت تصرف الدولة، وزيادة المصانع الوطنية وآلات الإنتاج، وإصلاح الأراضي المجدبة وتحسين المزروعة منها، وفرض العمل الإجباري على جميع الأفراد، ووصل العمل الزراعي بالصناعي، وإقامة نظام حكم شورى قائم على مجلس خاضع للانتخاب الجماعي يحل محل الملكية الوراثية، ونسف نظام الاستئثار، بين الطبقات والتمييز بينها.

وبالإضافة إلى كل ما ذكرناه، فإنهم شكلوا النقابات والجمعيات بطريقة الانتخابات، وعلى اساس الأكثرية عند اتخاذ القرارات، وجعلوها منظمات حرة تعمل لخدمة الدولة والأمة، فكانوا بذلك أسبق الأمم إلى تطبيق النظريات الاشتراكية الصحيحة.

نهض القرامطة بدعوتهم على أسس فلسفية، وأخلصوا لها أشد الاخلاص، وذهبوا في تعزيزها إلى اقصى حد، فتراهم يشهرون الحرب

على كل حكومة تعارض طريقتهم وأسلوبهم في الحياة، وقلما يذكر التاريخ حركة ثورية ارتفعت قامتها، وتعالى صوتها في سبيل مبادئها كالحركة القرمطية التي لبث أصحابها يهددون دولتين من أقوى دول العالم الإسلامي زهاء قرن كامل، فكان جيشهم من أقوى الجيوش تنظيماً واندفاعاً وإقداماً، ولسنا نبالغ إذا قلنا أنهم أشجع جند عرفهم تاريخ الإسلام، وأشدهم جلداً، وبسالة، ومرونة في القتال وما ذلك إلاَّ لأنهم كانوا يدافعون عن عقيدة آمنوا بها، واعتقدوا بخيرها وصلاحها. أما تسلم بعض المغامرين منهم مركز القيادة، وإقدامهم على ارتكاب جرائم تدمير المدن، والعبث بالديار المقدسة، وسفك دماء الآمنين، واستباحة الأموال، فقد كانت وصمة عار في جبين حركتهم، وطعنة في صدر غاياتهم وأهدافهم.

ومهما تكن الظواهر التي لا بد منها لكل الحركات الثورية الفكرية، فإنها لا تغفر لهم هذه المواقف العنيفة، ولا تهوّن شأن أعمالهم المنافية للأخلاق، ولمبادىء الدين، فثورتهم على المجتمع اعتبرت انفجاراً عسكرياً مزق وحدته، وهزّ أساسه من الأعماق، وصدّع سلطانه السياسي، وأصابه في روحه، وأدى إلى تفككه، وإشاعة القلق في جوانبه، والمستنكرون لهذه الأساليب الجائرة، لا يسعهم إلا الوقوف ملياً أمام واقع يقلل من الحماسة والأسى والنقمة، إذ قلما تجد في المجتمع الإسلامي مذهباً أو دعوة إلى تغيير نظم دينية أو سياسية أو اجتماعية إلا استندت إلى القوة والعنف وحدّ السيف. وهذه حجة من الحجج التي يدافع بها عنهم المؤيدون والمعجبون.

كانت الحركة القرمطية تعبيراً عن كل ما ذكرناه، ووثبة من أعظم وثبات الهدم والاصلاح في عصور الإسلام المبكرة، وهي ترجع فيما ترجع إلى نشاط هذه القوات الخفية وبراعتها في استغلال سخط الجماعات، ودفعها إلى الهدم والتجديد، وتغيير الحياة العامة في جميع مظاهرها. فحمدان بن الأشعث «قرمط» نفذ ما كان قد تلقاه في مدرسة الدعوة في سلمية، ولم يسمع فيما بعد نصائح الأئمة بضرورة التريث والانتظار، بل أخذ يعمل جاهداً دون توقف. وكان أن اتبع نظاماً للضرائب المختلفة المتدرجة التي تنتهي بوضع مالية جماعية، وتوزيعها توزيعاً عادلاً على جميع الأفراد دونما استثناء. وفي هذه السياسة الاشتراكية، تكوَّنت جماعة متحمسة مستميتة ليس فيها

فقير، وأعدها إعداداً تاماً لقتال عنيف ضد العباسيين، فاشترى السلاح الكثير بالمال الذي جمعه من الإنتاج، وبنى داراً للهجرة أو عاصمة لدولته، وأعدها لتضارع المدن الكبرى، وأقام مسؤولاً في كل قرية.. أي رجلاً مختاراً من ثقاتها تجمع عنده أموال القرية من بقر وغنم، وحلي، ومتاع، وكان يكسو عاريهم، وينفق على سائرهم ما يكفيهم بحيث لا يبقى بينهم فقير ولا محتاج ولا ضعيف، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش، والمكسب جهده، مما يتيح له الفضل في رتبته.

وجمعت المرأة كسبها من الغزل، والصبي أمّن أجره من نظارته للبساتين، وللأغلال، ولم يكن الفرد يملك إلاّ سيفه وفرسه. وهكذا كوّن حمدان جماعة متحدة في الشعور والآمال، فلا همّ للفرد منها إلاّ عمل السيف والاستعداد لمعركة التحرير والاصلاح، وقد اشتركت فيها الجماعات العاملة والفقيرة من النبطيين وفقراء السواد والأعراب، ومما قرّبه إلى قلوب العامة إلغاء الملكية الفردية، وإعطاء كل فرد حاجته، وجعل مركزه الاجتماعي متناسباً مع خدماته، مما دفع بالآلاف من الناس إلى الانضواء تحت لواء حركته القرمطية، وخاصة بعد أن أسس مصرفاً لتسليف الزراع والصناع عند الحاجة، وبعد أن منع الربا، وجشع المرابين، وبعد أن احتكر التجارة الخارجية، وفتح أسواقاً لها في الخارج، ونظم شؤون التصدير والاستيراد، وضرب نقوداً من الرصاص لا تصرف خارج منطقته، وذلك حتى لا تتسرب الثروة العامة إلى الخارج، مضافاً إلى كل ذلك انشاء المزارع النموذجية، وإدارتها من قبل الدولة.

أمّا أبو سعيد الجنّابي، الزعيم القرمطي في البحرين، فعلى غرار حمدان مشى فكان المثل الحي لتمثيل الاشتراكية، عندما وضع نظاماً مالياً مناسباً للحالة العامة. واستلم كل محاصيل البلد من حنطة وشعير وفاكهة ووزعها بالتساوي، وأصلح الزراعة، وأنفق على الرعايا، وسخرهم لخدمة الأمة، وعين لكل فرد العمل الذي يجب عليه أن يزاوله، ونصب الأمناء، وأقام العرفاء، حتى أن الشاة كانت تذبح، ويسلّم لحمها إلى العرفاء ليفرقوه على المستحقين، ويُدْفَعُ الرأس والأكارع والكرش إلى العبيد والإماء، ويجزّ صوف الغنم، فيعطى لمن يغزله، ثم يدفع به إلى من ينسجه عباءات وأكسية وغرائر وجوالق وتفتل منه الحبال، ويسلّم الجلد إلى الدباغ، فإذا خرج من

عنده سُلّم إلى خراز القرب والروايا، أو إلى الإسكافي إن كان يصلح للنعال، وكل هذا يعود إلى خزانة الدولة.

إن التضحية في سبيل الدولة، كان المبدأ الذي اعتنقه الفرد عن يقين وإيمان فالقرامطة لم يتوصلوا إلى تأسيس مجتمعهم الاشتراكي إلّا بعد أن أعطوا الأرض إلى من يحسن حرثها وفلاحتها، وبعد أن منعوا استخدام العبيد والإماء، وبنوا المدارس لتعليم الأطفال العلوم، وركوب الخيل، وأعمال الطعن، والفروسية، بالإضافة إلى أنهم كانوا يقبضون كل أموال البلاد والثمار والحاصلات من حنطة وشعير، ويوزعونها بالتساوي، وهكذا بالنسبة للإبل والغنم والمواشي، فكانوا يسرحون فيها رعاة على حساب الدولة، ويوزعون ألبانها وصوفها ولحمها على الناس بالتساوي أيضاً، وفي هذا لم يبق في مجتمعهم غني جشع ولا محتكر ولا فقير ولا عاطل وكل هذا كان يجري بسرية تامة والخلفاء العباسيون قابعون في قصورهم لا شغل لهم سوى الإقبال على اللذات والتمتع بالسراري ورعاية الأقرباء والأصهار والحاشية.

وروى ابن حوقل أنه زار البحرين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد، وأنه رأى أشياء غريبة وجديدة ومنها: النظام الاجتماعي للقرامطة، وقد أبدى ملاحظات مهمة عن بنائها السياسي، فقال:

> إن دولة القرامطة كانت من نوع الجمهورية، فحاكمها غير مستبد بأي حال من الأحوال، بل هو رئيس جماعة متساوية في الحقوق والواجبات، يعاونه في الحكم مجلس مؤلف من أتباعه المقربين وممن تربطه بهم رابطة العقيدة والنسب.

ويذكر ابن حوقل أسماء بعض الأفراد ووظائفهم، ثم يتكلم عن الضرائب والمكوس التي تتكوّن منها موارد الدولة، وعن مصروفات هذه الدولة، ويؤكد أخيراً، أن دخل الدولة يومئذٍ قد زاد على المليون دينار ذهب.

وكتب ناصر خسرو في كتابه «سفرنامه» بعد أن قام بزيارة البحرين خلال القرن الحادي عشر للميلاد، وكان عائداً من مصر إلى بلاد فارس بأنه كان في الإحساء وحدها أكثر من عشرين ألف محارب. ولما توفي أبو سعيد الجنّابي انتقلت الحكومة إلى مجلس شورى مؤلف

من ستة دعاة كانوا يحكمون بالعدل والانصاف... ويضيف على ذلك فيقول:

كان لهذه الحكومة ثلاثون الف عبد زنجي يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين، وليس عندهم ضرائب ولا اعشار، وإذا افتقر أحدهم أو استدان أعانه الآخرون ليستعيد وضعه، وليس للدائن غير رأس ماله وكل غريب ينزل المدينة، وله صناعة يُعطى ما يكفيه من المال ليشتري ما يلزم لصناعته من المواد والآلات، وهناك بيوت معدة لسكنى الفقراء على حساب المجموع.

وقد شاهد أيضاً طواحين تملكها الدولة، وتدير شؤونها، وهذه الطواحين مهمتها طحن الحبوب للرعية مجاناً.

إن هذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن دولة القرامطة قامت على أسس فلسفية ومبادىء اشتراكية نفذها، ورعاها دعاة ذكرنا أسماءهم. ومن الواضح أنهم كانوا ينقسمون إلى فرق ثلاث، وإلى مراحل ثلاث، وإلى أدوار ثلاثة.

فالفرقة الأولى: هم قرامطة سواد الكوفة، أو ما يسمَّى قرامطة الشمال، وأبرز دعاتهم: حمدان، وعبدان، ودندان، وآل مهرويه.

والفرقة الثانية: هم قرامطة البحرين، أو الخليج الفارسي الغربي ودعاتهم: آل الجنَّابي.

والفرقة الثالثة: هم قرامطة القطيف، وجنوبي البصرة ودعاتهم هم: أبو حاتم البوراني، وأبو الفوارس، وكان هذا الأخير من أقوى الدعاة الذين انجبتهم القرامطة في جميع أدوارها، وفي مناقشته مع الخليفة العباسي المعتضد تتجلى جرأته وسعة أطلاعه، وإيمانه المطلق بالعقيدة التي اعتنقها، فقد جاء في كتاب «رتبة الفكرة» للمنصوري (الجزء الخامس ـ ص ١٢٨).

إنه اجتمع مرة إلى الخليفة العباسي المعتضد الذي قال له: «هل صحيح ما تزعمون بأن روح الله تعالى، وأرواح انبيائه تحل في اجسادكم، وتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل»؟ فأجابه:

«يا هذا... إن حلّت روح إبليس فينا فما ينفعك، فلا تسل عمَّا لا ينفعك، وسلّ عمَّا يخصك»، فقال المعتضد: «وما يخصني»؟ فأجابه أبو الفوارس: «إن رسول الله مات، وأبوكم العباس حي، فلم يطلب الخلافة، ولم يبايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع

العباس فلا يوصي إليه ولا ادخلهم فيه، فبماذا تستحقون اسم الخلافة الآن وقد اتفق جميع الصحابة على دفع جدكم عنها».

وقبل أن نصل إلى نهاية المطاف نقول: إن مجتمع القرامطة كان يتألف من أربع طبقات:

الأولى: وتشمل الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثلاثين، وهؤلاء يعرفون بصفاء جوهر نفوسهم، وجودة القبول، وسرعة التصور، ويطلق إخوان الصفاء على هذه المجموعة في رسائلهم اسم «الإخوان الأبرار الرحماء».

والثانية: وتشمل من هم بين الثلاثين والأربعين، فهؤلاء وصلوا إلى مرتبة الرؤساء ذوي السياسات، وتنحصر مهمتهم بمراعاة الإخوان، وتعهدهم، وإظهار العطف عليهم، ومساعدتهم واسمهم «الإخوان الأخيار الفضلاء».

والثالثة: وتشمل من كانوا بين الأربعين والخمسين، وهؤلاء هم الذين عرفوا الناموس الإلهي معرفة مطابقة لدرجتهم، وهم أصحاب الامر والنهي، ونصر الدعوة، ودفع المعاندين، ممن يظهرون خلافهم، وعداوتهم للفكرة.

والرابعة: وهي الرتبة الأعلى، وتنحصر بمن يزيد عمرهم على الخمسين، فمن يصل إلى هذه المرحلة يكون فوق الناموس والطبيعة، وفي درجة الكشف، ويطلق عليهم اسم «المعلمين» و «الحجج» و «المقربين».

ولا بد من التساؤل: هل ابتدع الإسماعيليون هذه الأفكار من عقولهم؟ أم أنهم تأثروا بفكرة فلسفية معينة، أو اقتبسوها من نظام آخر؟ وللجواب على هذا السؤال، نقول إن الأفكار التي بشروا بها، ونفذوها هي من وضع الأئمة المستورين الذين عاشوا في مدينة سلمية، وهي أفكار اقتضتها حاجات مجتمعهم ودعوتهم السرية، وإن الذين تقبلوها كانوا من الذين تميزوا بالذكاء والعبقرية، وسرعة التصور، والادراك للمعاني البعيدة، فكان لآرائهم القاضية بالتحرر من ربقة المادة أكبر الأثر في تعهّد الفضائل وتنميتها وإشاعة روح الفلسفة والحكمة والسموّ بالنفس.

ذكرنا أن حمدان بن الأشعث «قرمط» كان مخلصاً لبيت الدعوة الإسماعيلي الرئيسي في سلمية في البداية، ينفذ الأوامر، ويحرص على

الطاعة، ويجاهد في سبيل ازدهار الدعوة، على الرغم من أنه كان ثورياً متحمساً، ومقاتلاً عنيداً، يمهد لإعلان الثورة المسلحة على العباسيين متخطياً أوامر الأئمة التي كانت توصي بالتريث والانتظار، والاستعداد بهدوء وسرية تامة، ثم جاء عبدالله المهدي إلى مركز القيادة وأعلن عدم موافقته على أي اجراء عسكري، وآثر التريث، وعدم الأخذ بالأمور بالشدة خوفاً من تصدع الصفوف. وفي تلك الفترة قامت من جهة ثانية معارضة آل مهرويه لحمدان، واتسع نطاقها، واشتد التطاحن على الزعامة، واستمرَّ فترة طويلة، فآل مهرويه كانوا يهدفون إلى إبعاد «حمدان» وأتباعه عن مركز القيادة، ولما لم يستطيعوا زعزعته قتلوه في ظروف غامضة، وقتلوا صهره عبدان من بعده، وعندما قام أحمد بن حمدان محاولاً التصدي للمتآمرين، وأخذ الثأر، ظنّ أن عبدالله المهدي سيدعمه ويؤثره، فوجّه إليه طلباً يلتمس فيه منه تعيينه مكان والده، ولكن الجواب جاء قاسياً ورافضاً طلبه، أضعفه، وجعل شعبية آل مهرويه تزداد رسوخاً وقوة بين الناس. ولو أن عبـد الله المهدي عينه في مركز أبيه لكان أبقى على نوع من التوازن بين الفريقين، وربما كان تغير الوضع العام للقرامطة.

ونتيجة للتهديد والضغط، اضطر زكرويه بن مهرويه إلى الاعتزال، ويقال إنه لجأ إلى إحدى قرى بلاد الشام، حيث ظل فيها مايقارب العامين، وكان قبل مغادرته قد أوصى لابنه يحيى الناقة بالزعامة. فألف جيشاً من قبائل بني كلب، وقشير، وعقيل، والعجلان، والعليص ومواليهم وانضمَّ إليه العديد من قرامطة حلب، وحمـاه، ومعرة النعمان، وحمص، ودمشق، فبايعوه، وانضووا تحت زعامته. أمّا قبائل بني النضار، ومالك، ومعرض، والهانجين، والباوي، وفخذاش، وهذيل، وزياد، وعليم، فلم يستجيبوا له، وظلوا على ولائهم لبيت الدعوة في سلمية.

هذه الاستعدادات، والحشود وصلت إلى أسماع شبل الديلمي مولى الخليفة المعتضد العباسي في ديار الشام، فكتب إلى الخليفة يعلمه بجلية الأمر، فجاءه الرد بتجنيد القوى للقضاء على الحركة في مهدها، وبالفعل قصدهم «شبل» والتقى بهم في موقع الرصافة على مقربة من الفرات، ولكنه لم يلبث أن دُحر منذ الجولة الأولى، وأبيدت أكثر قواته.

بعد هذا الانتصار الساحق اندفع القرامطة نحو دمشق، وفي طريقهم دمروا القرى، وأحرقوا المدن، وقتلوا الأبرياء والآمنين، وما زال هذا دأبهم حتى وصلوا إلى ضواحي دمشق، وكان عليها طغج بن جف، والياً من قبل هرون بن خمارويه بن أحمد بن طولون فخرج على رأس جيشه لمحاربتهم، ولكنهم هزموه في الجولات الأولى، وقتلوا العديد من أصحابه، مما اضطره إلى اللجوء لقلعة دمشق، ولكنهم حاصروه، وشددوا عليه الحصار دون أن يتمكنوا من الوصول إليه. وكان يحيى ابن زكرويه يقود المعارك بنفسه ممتطياً ناقته البيضاء، ولهذا سمّوه صاحب الناقة. أما طغج فظل سبعة أشهر محاصراً في دمشق، حتى مات الكثير من جنده جوعاً، إلى أن أرسل إليه ابن طولون من مصر غلامه «بدر الحمامي» على رأس قوة كبيرة، فوصل إلى ضواحي دمشق، ولم يلبث أن خاض معركة طاحنة مع القرامطة، وبينما كانت الحرب مستعرة بين الفريقين، خرج «طغج» وجيشه من القلعة، وانضموا إلى بدر، وظلت المعارك على أشدها حتى تمكن طغج أخيراً من إحراز النصر، فقتل صاحب الناقة، وشرّد جيشه.
هذا الانكسار الذريع الذي مني به القرامطة في بدء عهدهم العسكري، وما نجم عنه من قتل قائدهم يحيى لم يثنهم عن عزمهم، أو يحل دون تنفيذ برنامجهم الطويل، فلم تمض أيام معدودة حتى أعادوا تنظيم جيشهم. وعلى ضفتي نهر الفرات بايعوا الحسن بن زكرويه شقيق يحيى بالقيادة وكان يعرف «بصاحب الشامة» أو «الخال» أو «أبو مهزول». فاندفع باتجاه دمشق، وعندما وصل إلى «الرقة» التقى بالجيش العباسي وذلك سنة ٢٨٩ هـ. وقد تمكن في فترة قصيرة من الاحداق به وإبادته وبعد ذلك تابع سيره، واندفاعه، عبر حلب وحماه وحمص، فاتحاً مدمراً مبيداً حتى وصل إلى دمشق، وهناك نازل «طغج» وقتله، ثم دخل دمشق فأعمل السيف في رقاب أهلها انتقاماً منهم لمواقفهم العدائية وانحيازهم إلى الطولونيين.

وصلت أنباء تلك المعارك والانتصارات، إلى مسامع الخليفة العباسي المكتفي، فأرسل على الفور قائده أبو الأغر السلمي على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف فارس فوافاه القرامطة إلى موقع يعرف «بوادي البطنان» وفي المعركة الأولى انهزم أبو الأغر، ولكن القرامطة تبعوه وظلوا يعملون السيف في رقاب جنوده المتقهقرين حتى أتوا على

عامتهم، اما أبو الأغر نفسه فاعتصم بقلعة حلب مع ألف رجل من جيشه، ولم يمكن القرامطة من ا لوصول إليه في ذلك الوقت.

بعد هذه المعارك الرهيبة التي سفكت فيها الدماء الغزيرة البريئة عاد الحسن بن زكرويه إلى معرة النعمان ففتحها، ومنها توجه إلى حماه فدخلها فاتحاً. وهكذا بالنسبة إلى حمص وبعلبك فخطب له على المنابر، وبايعه الناس وبعد ذلك عاد إلى سلمية وهو يحسب أن عبد الله المهدي فيها، ولكنه لم يجده. وكانت سلمية قد وقفت في وجهه، وأغلقت أبوابها وأسوارها. وبعد محاولات عديدة لم يتمكن من الدخول إليها. وكان لا بد له من استعمال الخداع سلاحاً، فأرسل من حمل إليهم وعده وعهده، وأنه جاء مسالماً، فانطلت حيلته على الأهلين ، وفتحوا له الأبواب . وعندما دخل أعمل السيف في رقاب الناس دونمـا استثناء، حتى أنـه قتل صبيـان الكتاتيب، والأطفال، والحيوانات الأليفة، ولم يبق فيها عين تطرف.. ومما تجدر الإشارة إليه أنه جاء إلى قصر «الدعوة» فقتل كل من فيه وكان عددهم /٨٣/ بين شيخ وشاب وامرأة وطفل. ومن بينهم شقيق عبدالله «أبو محمد» وكان مريضاً، وبعد أن فرغ من إبادة الأسرة الفاطمية، انتقل إلى قصر العباسيين، فأعمل فيهم السيف حتى أبادهم عن بكرة أبيهم، وذكر أن عددهم زاد على الأربعين شخصاً.

لم يتوقف الحسن بن زكرويه في سلمية طويلاً، بل عاد إلى دمشق واستقر فيها، ولكن نفوس الناس كانت تحمل النقمة، وأصوات الاستنكار، والاحتجاج تتصاعد.

ووصلت الأصوات إلى اذن الخليفة العباسي المكتفي، فأمر بتأليف جيش كبير بقيادة محمد بن سليمان الذي سارع بالتوجه إلى الرقة فنزل فيها، ومنها قصد حلب وحمـاة، فالتقى بـالقرامطـة سنة ٢٩١ هـ، في موقع يبعد عشرة أميال عن حماه باتجاه سلمية، وهناك نشبت المعركة الكبرى. وفي نهاية المطاف أخذ القرامطة بالتراجع والفرار. أما الحسن فقد غادر المكان مع ابن عمته عيسى، وأحد المقربين إليه، وغلام رومي اختاره لإرشادهم إلى طريق بعيد عن القرى والمدن،وعيون الناس يؤدي بهم أخيراً إلى سواد الكوفة. وعندما صاروا على مقربة من «الرحبة» في مكان يقال له «الدالية» نزل الحسن، وأرسل الغلام ليأتيه ببعض الحوائج، ولكن أهالي البلدة

ارتابوا بأمره، فقبضوا عليه، وأتوا به الوالي، وهناك اعترف بالأمر الواقع وذلك تحت التعذيب والتهديد، فأرسل الوالي جماعة مسلحة، فقبضوا على الحسن ورفيقيه وحملوهم إلى المكتفي ببغداد فوضعهم في السجن مع بقية الأسرى من القرامطة الذين أرسلهم محمد بن سليمان وكان عددهم مئة وستين رجلاً. وقد ذكر أن أكثرهم مات تحت التعذيب، وبعد قتلهم عُلِّقت رؤوسهم، أما الحسن بن زكرويه فقد صلب لمدة عام كامل.

هذه الوقائع العنيفة حفزت زكرويه بن مهرويه الأب على الخروج من عزلته، وقد آلمه مقتل ولديه، فصمَّم على الثأر. وتذكر المصادر التاريخية: أنه أرسل أحد دعاته المقربين واسمه محمد بن عبدالله بن سعيد، ويكنى بأبي غانم إلى «بني كلب». فدعاهم إلى التجند من جديد، فاستجاب له خلق كثير ومنهم: بنو الاصبغ، وبنو العلِّيص وغيرهم، وعندما أتمَّ كافة الاستعدادات اندفع وقائده محمد بن عبدالله باتجاه دمشق فدخلها، وكان عامل المكتفي أحمد بن كيغلغ غائباً يومئذٍ في القطر المصري، فدخلها، ومنها توجه إلى «بصرى» وأذرعات وبلاد حوران ففتحها، ثم عاد إلى دمشق ثانية، وكان نائب أحمد بن كيغلغ المسمى صالح بن الفضل قد استعد للمعركة بعد ذهابه. فخرج إليه، ولكن زكرويه تمكن من قتله، وإبادة جيشه في المعركة الأولى، وعندما أراد دخول دمشق، وقف أهلها بوجهه، وقاوموه بضراوة، مما جعله يعود إلى «طبريا»، فاتحاً غازياً، وجارفاً كل ما في طريقه.

أرسل الخليفة المكتفي الحسين بن حمدان، وجهَّزه بجيش قوي، وأناط به مهمة القضاء على زكرويه فسار ولكنه لم يتمكن من اللحاق به، لأن زكرويه وقائده محمد بن عبدالله سلكا من هناك طريق «السماوة»، وكانا قد اعتمدا خطة نزح الماء في كل قرية، أو بلدة ينزلون فيها، وعندما يرتحلون منها. وهكذا عاد بن حمدان يتعثر بأذيال الخيبة ومال نحو «رحبة ابن طوق». أما القرامطة فتوجهوا إلى «هيت» فأغاروا عليها سنة ٢٩٣ هـ، ونهبوا السفن التي كانت في نهر الفرات، وقتلوا خلقاً كثيراً مما اضطر المكتفي إلى إرسال جيش آخر بقيادة محمد بن إسحق بن كيداخ، وأتبعه بالوزير مؤنس، ولكن القرامطة كانوا ينزحون الماء في القرى التي يمرون فيها، مما

ساعدهم على اجتياز المراحل، بينما كان أعداؤهم يشكون قلة الماء، حتى أن المكتفي أرسل إليهم الماء بالزوارق من بغداد، وأمر ابن حمدان أن يفاجأهم بجيشه من جهة الرحبة. وهنا نلمح اضطراباً في المصادر التاريخية التي ذكرت الوقائع بشكل مضطرب، وعزت سبب انكسار القرامطة إلى تنازع القواد فيما بينهم، فذكروا بأن أحد قواد القرامطة المسمى الذئب بن القائم قد قتل محمد بن عبدالله طمعاً بالجائزة التي خصصها العباسيون لمن يحمل رأسه إلى بغداد، ولكن وعلى الرغم من هذا فإن قبيلة بني كلب ظلت على حماسها، فقام أحمد بن القاسم وجمع الجموع، وسار بهم إلى الكوفة فدخلها وسط موجة من المظاهرات، والقذف بالحجارة، والسلاح. وبعد ذلك خرج إليهم منها اسحق بن عمران فقاتل قتالاً شديداً، وتبعه جيش آخر أرسله المكتفي، ولكنه لم يستطع الثبات في المجال، إذ تمكن القرامطة من القضاء عليه، وأخذ سلاحه، وعتاده، وبعد ذلك ساروا إلى الحجاج فقطعوا الطريق عليهم وقتلوا العديد منهم، وأخذوا كل ما يحملونه، ومن ثمّ عادوا إلى دمشق بغرض القتل والفتح، والتدمير، وفي تلك الفترة لم يبق بيت إلاّ واكتوى بشرورهم وظلمهم، فأنفذ المكتفي جيشاً آخر بقيادة ابن حوارتكين فأدرك القرامطة في ظاهر المدينة، وهناك نشبت المعركة الكبرى، وبعد أن سيطر ابن حوارتكين على الموقف طرحت النار في قبة زكرويه ولكنه تمكن من الخروج من خلفها فأدركه أحد الرجال، وضربه حتى سقط إلى الأرض، وعندئذٍ أركب وأرسل إلى بغداد سنة ٢٩٤ هـ. فوصلها ميتاً.. ولكنهم حنطوه وشهروا به مدة طويلة، ومما يجب أن يذكر أن حرمه، وأولاده كانوا معه، فقتلوا جميعاً.

بعد هذه الوقائع، والمعارك انطفأت شعلة قرامطة السواد، وخفت صوتهم، ولكن رجلاً منهم نهض، وتصدّى للقيادة، معلناً عن ثورة جديدة، وكان يسمى أبو حاتم الزطي، ولكنه قتل قبل أن يتمكن من تحقيق آماله، فقام رجل آخر من بني عجيل يدعى محمد بن قطبة فجمع الجموع وجاء إلى «واسط» ولكن أمير الناحية العباسي خرج عليه، وشتت شمل جماعته، وتعتبر هذه المعركة خاتمة المطاف بالنسبة لقرامطة السواد.

عندما قامت ثورة القرامطة البحرانيين الثانية سنة ٣١٦ هـ تجاوب

قرامطة السواد معهم، وأعلنوا عن تأييدهم، ومناصرتهم وتطوعوا في صفوفهم. وهذا يدل على ترابط وثيق بين الثورتين. وقد ذكر أن الحريث بن مسعود جمع وحده أكثر من عشرة آلاف في سواد واسط، ومن المشهور عنه أنه بنى داراً في «الموفقية» وسمّاها دار الهجرة، كما جمع عيسى بن موسى عدداً من المقاتلين في منطقة «عين التمر»، وقد تمكن من احتلال سور الكوفة وعندئذ أرسل المقتدر العباسي بعض قواده وعساكره وضربهم ضربات مؤلمة أجهزت على البقية الباقية منهم.

أما أسباب إخفاق القرامطة في تحقيق أهدافهم فتعود إلى عوامل كثيرة:

أولها: عدم تنظيم، أو تدريب المقاتلين، بل كانوا أفراداً من القبائل يجتدون، ويرسلون إلى الميادين للقتال. والثانية: اضطراب القيادة، وعدم وجود قائد بارز متمرن سبق له خوض غمار الحرب. والثالثة: تطلع الجيش إلى النهب والقتل دون التفكير بشيء آخر، والرابعة: هجومهم على سلمية وإعدام أفراد أسرة الأئمة وهذا أوجد في القلوب نقمة وبغضاً على القرامطة، والخامسة: قتلهم الحجاج المسلمين. مما أثار سخط العالم الإسلامي، وأصبح اسم «قرمطي» يثير الرعب والاشمئزاز. وكل هذا يدخل في نطاق مخالفتهم أوامر الأئمة، وقيامهم بالثورة المسلحة قبل موعدها، ومحاولتهم قطف الثمرة قبل نضوجها.

المهدي والقرامطة

تحدثنا عن قرامطة السواد ما فيه الكفاية وألمحنا إلى علاقتهم، وأخبارهم مع عبد الله المهدي، وذلك قبل قيام الدولة الفاطمية، ولم نتطرق إلى قرامطة البحرين الذين خلفوهم في مقام القيادة على اعتبار أن نشاطهم، وأعمالهم ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالخلفاء الفاطميين الذين جاءوا بعد عبد الله المهدي، ويشمل ذلك حركاتهم العادية والمؤيدة، وكل هذا لم يمنعنا من التطرق إلى عرض حالة واحدة وقعت في عهد عبد الله المهدي من قبل قرامطة البحرين. فمن المعلوم أن هذه المجموعة التي يرأسها آل الجنابي تسلّمت مركز القيادة العامة بعد انهيار قرامطة السواد على أيدي أسرة آل زكرويه بن مهرويه، ومن المؤكد والمعلوم أن هذه الأسرة بعد أن سيطر أفرادها على الموقف لم يلبث أن عصف بهم النزاع على الرئاسة فذهب فريق منهم إلى حد الاستسلام للعباسيين طمعاً في نيل دعمهم ومساعداتهم، بينما ظل الفريق الثاني على ولائه للفاطميين، وهكذا فإن الحرب بين الفريقين كانت مريرة، وعسيرة، وسجالاً، ولم تتوقف يوماً واحداً ولما تسلّم أبو طاهر مركز قيادة القرامطة في البحرين كان له من العمر سبعة عشر عاماً، فوقع تحت حكم فئة من المتهورين الخارجين الذين لم يكن لهم أي هدف في حياتهم سوى اقتراف الجرائم، وارتكاب المعاصي، والقيام بأعمال شائنة. ومن الجدير بالذكر أنه تصدى للحجاج المسلمين فقتلهم، ومثّل بجثثهم، ونهب كل ما يحملون. ولم يستثنِ من ذلك النساء، والشيوخ، والأطفال، ثم دخل الكعبة فنهب كل ما فيها، وعبث بمكة، وردم بئر زمزم ثم نقل الحجر الأسود إلى «هجر»، هذه الأعمال أقامت العالم الإسلامي، وأقعدته، وحركته على اللجوء إلى خليفة بغداد لمطالبته بوضع حد لهذه الأعمال الشائنة، ولكن الخليفة المذكور وقف عاجزاً عن ردع القوى القرمطية، واكتفى بارسال جيوشه للتصدي لها من دون أن تتمكن من ردعهم، ولمّا كان أبو طاهر من الموالين للفاطميين، فإن بعض المؤرخين اعتبر الفاطميين شركاء ومسؤولين عن كل ما اقترفه القرامطة في الأراضي المقدسة. في حين أن الدلائل تؤكد بأن الفاطميين لم يكن لهم أية علاقة. ولا يمكن

أن تصدر عنهم مثل هذه الأعمال، وقد ثبت أن قصة الحجر الأسود، ونهب الكعبة، وقتل الحجاج، قد حركت عبد الله المهدي وجعلته يقف موقف الرفض لهذه الأعمال، فأرسل إلى أبي طاهر كتابه المشهور. وعندما تلقاه أبو طاهر أعاد الحجر الأسود إلى مكانه. وكفَّ عن ملاحقة الحجاج. وهذا معناه أن الفاطميين لم يشاركوا في أعمال القرامطة، ولم يرضوا بها. وهذا هو كتاب المهدي بنصه الحرفي، كما ورد في الكتاب الإسماعيلي «فصول وأخبار».

«إلى مقدم القرامطة: سليمان بن الحسن أبو طاهر الجنابي.

بلغنا إقدام رجالكم على التصدي لقوافل الحجاج المسلمين، وقتلهم النساء والشيوخ والأطفال، والتمثيل بجثثهم ونهب ما يحملونه. وبلغنا ما اقترفه رجالكم من الأعمال المخزية في الديار المقدسة. كنزعهم كسوة الكعبة، وردم بئر زمزم، ونقل الحجر الأسود إلى هجر. إنكم بهذا العمل المشين سجلتم علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي ولا الأيام، وحققتم على دولتنا ودعوتنا اسم الكفر، والزندقة، والالحاد، بما قمتم به من أعمال شنيعة مخالفة لمبادئنا وعقيدتنا.

لهذا اطلب إليك.. ان ترد على أهل مكة المتاع، والاموال، والحلي، وعلى الحجاج ما سلبته منهم، وأن ترد الكسوة للكعبة المشرفة، وإلاَّ اتيت إليك بجنود لا قبل لك بها.

إننا نتبرأ منك، كما برئنا من الشيطان الرجيم في الدنيا والآخرة، ونعوذ بالله من فعال السوء التي لا يقترفهـا إلاَّ أعداء الله أجمعين.

إذا لم تفعل ما أمرتك به، لا يكن بيني وبينك إلاَّ السيف،والبراءة منك على رؤوس الاشهاد».

سلمية المركز
الأوّل للإسماعيلية

تشكل مدينة «سلمية» أهمية كبرى سواء في التاريخ القديم أو الحديث، وتتميز عن غيرها من المدن السورية بموقعها الجغرافي المهم، ووجودها في نقطة ذات أثر بارز بالنسبة إلى الصحراء السورية، ممَّا أتاح لها أن تكون محطة انطلاق، والتقاء، وعبور نحو الشرق والغرب. ونحن هنا نتحدث عن هذه المدينة، ونقدم لمحة تاريخية عنها باعتبارها عاصمة الإسماعيلية قديماً وحديثاً، والمركز الذي انطلقت منه الحركة «القرمطية» من جهة، والدولة «الفاطمية» في المغرب ومصر من جهة ثانية.

هناك أقوال عديدة، ومصادر تاريخية وردت عن أصل التسمية، وكلها تشير إلى أن «سلمية» كانت في العصور الغابرة ذات أهمية قصوى بدليل أن اسمها ورد في المصادر اليونانية «سالاميس» كما أن هذه التسمية ظلَّت طيلة العهد البيزنطي، ويضاف إلى ذلك بأن هذا كان تخليداً لذكرى معركة «سالاميس» التي انتصر فيها اليونان على الفرس سنة ٤٨٠ قبل المسيح، بقيادة القائد اليوناني «تمستوكل» أو نسبة إلى مدينة «سالاميس» اليونانية الواقعة على ساحل بحر إيجة.

وورد اسمها «سلم مائة». ذكر ذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان، وذلك نسبة إلى المائة شخص الذين نجوا من مدينة «المؤتفكة» فهؤلاء جاءوا إلى سلمية وعمروها وسكنوها وعلى مرور الأيام تحرفت الكلمة من «سلم مائة» إلى سلمية.

وورد في أحد المصادر أن الاسم مشتق من «سيل ماء»، والمعروف أن «سلمية» تعرضت في غابر العصور إلى سيول جارفة ضربتها، وهدمت

معالمها، ولا تزال حتى الآن تتعرض إلى «سيل الماء» هذا كما نرى.
وإنه لمن المفيد أن نشير إلى أن «سلمية» تلفظ بالفتحة على السين وعلى اللام، والسكون على الميم، والفتحة على الياء، والسكون في آخرها... ولا يدخل عليها مطلقاً «ال التعريف».

تقع سلمية في سهل واسع منخفض، أو في مروج لا يحدها البصر، وهي كما ذكر الشاعر المتنبي: «مروجٌ مسوَّماتٌ». فهي على أبواب الصحراء السورية من الجهة الغربية، وعلى بعد «٢٨» ك.م من مدينة حماه إلى الشرق، و «٤٥» ك.م إلى الشمال من مدينة حمص.. على خط عرض/ ٣٥ - د/ وخط طول/ ٣٧ - د/ شرقي غرينتش. وتنتهي إلى الجهة الشرقية من سفوح جبال «البلعاس» المتفرع منها جبل «شاعره» المرتفع مسافة الف وسبعمائة متر عن سطح البحر، وجبال تدمر، فهذه الجبال الجرداء اليوم كانت في عهود الرومان، وعهد زينب ملكة تدمر المصيف الجميل أو الجنان الوارفة الحالية بالثمار والغابات الشجراء من التين والعنب والتفاح والبطم. وتحد سلمية من الغرب التلال الكلسية البازلتية البيضاء المتقاربة، وهي بقايا هضاب عفا عليها الزمن وأهمها: تل عين الزرقاء، تل الكافات وغيرها. أما من الناحية الشمالية فتصل إلى خرائب «الأندرين» مروراً بقلعة «الرمية» المشهورة بقلعة «النسر»، و «بقصر ابن وردان» البيزنطي، ومن الجنوب تتصل بالسهول، والتلال الترابية التي تمتد حتى مدينة حمص مروراً بسهول «المشرفة» أو «كاتانا» كما تسمَّى في التاريخ القديم.

فهذا السهل الواسع الذي لا تحيط به العين، والذي ترقد فيه هذه المدينة، يشكل بالنسبة للمنطقة منخفضاً سهلاً كانت تتجمع فيه المياه السطحية، ثم تفيض بغزارة في أشهر الصيف لتعطي المنطقة حلة من الخضرة، ولتحولها إلى جنائن وبساتين، وحدائق غناء. ولكن لا بد من القول بأن هذا الانخفاض جرَّ عليها النكبات، وجعلها عرضة للسيول التي كانت تتجمع من المرتفقات المحيطة بها وخاصة من الشرق والجنوب.

عُرفت «سلمية» كما ذكرنا بأنها عاصمة الصحراء السورية أو مفتاح هذه الصحراء، فمنها يمكن الانطلاق نحو «السخنة» و «الرصافة»

و «الرقة»، و «دير الزور» مروراً «باسرية»... ومنها يمكن الانطلاق نحو «تدمر» مروراً بجبال «البلعاس» كما يمكن الانطلاق منها إلى انطاكية وحلب مروراً بـ «خُناصرة» مدينة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

وفي العهود الغابرة كانت نقطة انطلاق للقوافل التجارية، ثم أصبحت بعد ذلك القاعدة الرئيسية في عهد القوافل، وذلك عندما تحوَّلت الرصافة إلى قاعدة حربية في عهد الرومان، وقد اصبحت في تلك الفترة أيضاً مركزاً لتموين الجيوش المحاربة التي كانت في حروب مستمرة مع الفرس، ويجب أن لا يغرب عن البال أن هذه السهول والمروج كانت غارقة بالمياه، والينابيع، ممَّا جعلها مهوى أفئدة القبائل البدوية التي كانت تزحف نحو الصحراء السورية من سائر الجهات، وغرضها الماء والكلأ والحياة الرغيدة.

يعتبر فصل الربيع فيها من أجمل الفصول، وقد يستمر شهرين، وفي سني الخصب وغزارة الأمطار تزدهر السهول، وتكتسي حلة جميلة من الأزهار، وشقائق النعمان، وهكذا في فصل الخريف، فتهب النسمات العذبة الرقيقة، ويتلطف الجو، وقد تسقط أمطار خريفية في هذا الفصل فتكون مدعاة للتفاؤل لدى المزارعين، وأصحاب المواشي بحيث تزداد نسبة مياه الأقنية، وينمو العشب، وبعض الأزهار البرّية، وخاصة الوردة المعروفة «الوحواح». وقد أكدَّ لي أحد علماء الزهور والنبات بأن هذه الوردة معروفة في أوروبا باسم «سلمية» وهي تباع في مخازن الورد بهذا الإسم. ولا ندري متى نقلت إلى أوروبا لأنه من المؤكد أن بذورها وبصيلاتها موجودة في الأرض منذ العهد الروماني. وكان من المعروف أنها الوردة المفضلة لديهم لعبيرها المنعش الذي لا يختلف عن عبير زهرة «الغاردينيا» المشهورة. وممَّا يجب أن نذكره أنّ هذه الوردة توجد في ضواحي سلمية فقط، وظهورها يكون في أواخر شهر تشرين أول. وقد تبقى حيَّة لمدة شهر أو أكثر، ثم يعتريها الذبول. اما إذا غرست في الحدائق العامة والخاصة فإنها تبقى مدة أطول.

عُرفت سلمية بأنها بلدة عريقة في القدم، فهي كباقي المدن السورية التاريخية، تعرَّضت للحروب وللغزوات، ومرَّ عليها فاتحون وغزاة قبل

الإسلام وبعده، وقد ظهر كل ذلك جلياً على آثارها الدفينة التي اكتشفت في مناسبات عديدة.

عُرفت في زمن السومريين ٣٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م، وفي زمن الاموريين منذ عام ٢٤٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق.م، وخلال عام ٢٠٠٠ إلى ١٦٠٠ ق.م. ومن الثابت أن القوات الحثية والميتانية اجتاحتها، ثم حكمها الهكسوس عام ١٥٠٠ ق.م، وفي نهاية القرن الثامن حكمها الآراميون، ثم فتحها الأشوريون، وقد ظهرت فيها آثار كثيرة تدل على ذلك، وفي العهد اليوناني البيزنطي كانت تابعة لمدينة أفاميا، وفي عهد زينب ملكة تدمر كانت تابعة لها، ثم أصبحت بعد ذلك مقراً لأبرشية مسيحية كبرى، وفي تلك الفترة كانت تابعة لحمص، وبعد أن تعرضت الرصافة لغزوات الفرس، وزال عنها الطابع التجاري والاقتصادي باعتبارها المحطة التجارية الكبرى التي تربط الشرق بالغرب... أخذت سلمية مكانها، فأصبحت أكبر قاعدة تجارية لمرور القوافل، والتزود بالمواد، وفي تلك الفترة كانت فيها كنيسة كبرى تعرف باسم «مار سركيس» وكان موقعها إلى الجنوب من المدينة، وتقع على غدير ماء، ودلّت الاكتشافات الأخيرة على أن مكانها كان في الأرض التي أقيم عليها الجامع الكبير المسمَّى «ذو المحاريب السبعة» المعروف الآن باسم الإمام إسماعيل.

عُثِرَ في أمكنة عديدة فيها على نقود وبعض التماثيل والقطع الفخارية اليونانية والبيزنطية والرومانية، كما عثر على بعض الآثار الأشورية، ولكن على نطاق ضيق.

ذكرها المؤرخ اليعقوبي في كتابه «البلدان» فقال:

«سلمية مدينة في البرية.. وكان عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عبَّاس بن عبد المطلب قد ابتناها، وأجرى إليها أنهراً، واستنبط أرضها حتى زرع فيها الزعفران، وأهلها من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي ومواليهم، وأخلاط من الناس تجار ومزارعين».

وذكرها ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» فقال:

«سلمية بلدة في ناحية البرية من أعمال حماه بينهما مسيرة يوم، وكانت من أعمال حمص... اتخذها صالح بن علي بن عبد الله بن عبَّاس منزلاً، وبنى هو وولده الأبنية ونزلوها، وفيها المحاريب السبعة».

وذكرها المؤرخ أبو الفداء في كتابه «تقويم البلدان» فقال:

«سلمية من أعمال حمص .. بلد نزهة، ومياهها قنى. وفيها بساتين كثيرة».

وذكرها الطبري في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» عندما وصف المعركة التي وقعت فيها في «مرج الأخرم» «الحضيمية» اليوم. وهذه المعركة حدثت سنة ١٢٢هـ بين عبد الله بن علي العباسي أول قائد عباسي في الشام، وبين أبي الورد الكوثر الكلابي من قواد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. وفي تلك المعركة قضي على آمال الأمويين، وخسروا ملكهم في الشام، وإلى الأبد. ولمّا استتب الأمر للعباسيين جاء عبد الله ابن صالح بن علي، وهو حفيد عبد الله بن عباس الصحابي المشهور، ومستشار الإمام علي بن أبي طالب، وكان والده صالح عاملاً على قنسرين، وحمص، ودمشق. أمّا عبد الله فكان مغرماً بالبناء والعمران، ولذلك أعاد هو وأولاده عمارة سلمية، وأجروا إليها الأنهار، ومن الواضح أن لهذه الأسرة مكانة كبرى لدى الخلفاء العباسيين في بغداد، بدليل أن الخليفة العباسي المهدي زارها سنة ١٦٣ هـ . وكان في طريقه إلى بيت المقدس، وقد أعجب بها، وبارك عمرانها، ويذكر مصدر تاريخي آخر أن عبد الله هذا قد دعي إلى بغداد، وإن الخليفة المهدي قد زوّجه أخته مكافأة له.

من الثابت تاريخياً أن سلمية كانت خربة وغير مسكونة عند ظهور الإسلام. ومن المؤكد أن هذا الخراب وقع في أواخر العهد البيزنطي، حينما سادت الفوضى بلاد الشام، وعمّ مدنها الخراب، وانشغل الرومان بالحروب الطاحنة مع الفرس، وهناك مصدر تاريخي يؤكد بأن المدينة دمرها الفرس في إحدى غزواتهم، أي عندما احتلوا الرصافة، واستولوا على كنيستها، ولم يتمكن الرومان من إعادة تعميرها بسبب حروبهم مع الفرس من جهة، وظهور الدعوة الإسلامية التي كان من أهدافها إزاحة هذه الامبراطورية عن مواقعها، مضافاً إلى ذلك موقع سلمية الجغرافي على تخوم المدن الكبرى، والممرات والنقاط الرئيسية، والتحركات التي كانت تأتي تارة من المغرب، وأخرى من الشرق.

ونحن نعلم أن عبد الله بن صالح العباسي عندما نزلها أخذ بعمارتها،

وشجع الناس على السكنى فيها، مما يعني أن المدينة كانت أنقاضاً خربة في العهد الأموي الذي خلت مراجعه التاريخية من أي ذكر لها، وبعد أن تمَّ عمرانها، وازدهارها في العهد العباسي كما ذكرنا، ظلّت حتى سنة ٢٩٠ هـ . وفي ذلك العام فتك بها وبأهلها «القرامطة» ودمروها، وبعد هذا التاريخ لم تعمَّر العمران اللازم، ولم يعد لها وجهها الأول، بل توالت عليها النكبات، فمرة اجتاحها مرض الطاعون، فأتى على من فيها، ودخلها تيمورلنك فدمرها وأزال معالمها سنة ١٤٠٣ م فضلاً عن الزلزال الذي دك أسسها في مرتين أفجعهما سنة ٥٥٢ وعن السيول التي أغرقتها ثلاث مرات.

ويضيف المؤرخ الطبري: بأنه في العام ٢٩٠ هـ. فتك القرامطة ببلدة سلمية، ومعرة النعمان، وحماه، وكان على رأسهم الحسين بن زكرويه الملقب بأبي شامة أو صاحب الخال. وهذا القائد القرمطي حارب أهلها، ثم وادعهم، وأعطاهم الأمان، وعندما فتحوا له الأبواب دخلها وقتل سكانها جميعاً حتى صبيان الكتاتيب، ثم خرج منها وليس فيها عين تطرف.

وفي سنة ٣٤٤ هـ ، دخلها سيف الدولة الحمداني واحتلها، وكان يطارد عربان البادية الذين شقوا عصا الطاعة عليه، وفي القرن الخامس للهجرة أصبحت سلمية من أعمال الأمير خلف بن ملاعب الكلاَّبي، صاحب حمص، ولكن هذا لم يدم طويلاً لأن «تتش» أخا السلطان ملكشاه السلجوقي استخلصها منه، وفي سنة ٤٩٦ هـ . دخلت في حوزة «رضوان» وكان يحكم حلب.

وذكر ابن الأثير في «الكامل»:

إنه في سنة ٥٣٢ هـ . جاءها عماد الدين زنكي، وخرج منها إلى مقاتلة الصليبيين، وكانوا في «شيزر»، وفي سنة ٥٧٠ هـ . استخلصها صلاح الدين الأيوبي من فخر الدين الزعفراني أحد قواد نور الدين محمود، وأعطاها إلى ابن أخيه الملك المظفَّر تقي الدين، فأصبحت بعد ذلك موضع نزاع بين الأيوبيين ملوك حماه من جهة وملوك حمص من جهة ثانية، وقبل نشوب معركة عين جالوت جعل التتر منها نقطة حربية لتعبئة جيوشهم، وبعد المعركة أعطى الملك المظفَّر سلمية إلى الأمير مهنأ آل فضل بن ربيعة من طي من كهلان، وكان قد اشترك مع قبيلته في معركة عين جالوت، وأبلى فيها البلاء الحسن، فظلّت في يده ويد ابنه عيسى، وحفيده مهنأ، وأعقابهم

فترة طويلة، ومن المعروف أن آل أبي ريشة وهم أمراء «الموالي» ملكوها، وجعلوها تحت نفوذهم. وفي القرن الحادي عشر سيطر عليها الأمير فخر الدين المعني غير أنها ظلّت خاضعة لأمراء الموالي المذكورين الذين اتخذوها سكناً ومرعى، حتى تمكن الأعراب الآخرون من قبيلة عنزة ازاحتهم إلى الشمال. وفي سنة ١٨٤٨ م نزل الإسماعيليون فيها وعمروها بقيادة الأمير إسماعيل بن محمد وقد جاؤوا من «القدموس» و «مصياف» و «عكار» و «الخوابي»، ولا تزال سلمية تحمل اسم عاصمة الاسماعيليين كما كانت سابقاً.

وذكر ياقوت الحموي أيضاً:

«إنه عاش فيها... أبو الثور هاشم بن ناجية السلمي و عبد الوهاب السلمي وأبو عبد الله الشيعي فاتح شمالي افريقيا، وجعفر بن منصور اليمن المعروف في التاريخ بابن حوشب وعلي بن الفضل اللذان فتحا اليمن، وأحمد النسفي صاحب كتاب «المحصول» في الفلسفة، وعاش فيها فترة الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبيء والشاعر ديك الجن المعروف بعبد السلام بن رغبان، ومرَّ فيها الشاعر أبو فراس الحمداني وكان يقود جيوش الحمدانيين، كما زارها الخليفة العباسي المهدي وهو في طريقه ألى بيت المقدس».

أشهر مواقعها التاريخية: القلعة والسور... وكانت القلعة قائمة في وسط المدينة، وكان السور محيطاً بها، بيد أنهما زالا مؤخراً، وكانا يحتفظان بالطابع الروماني، وفيها «الحمَّام» التي لا تزال قائمة في وسط المدينة، وهي بحالة جيدة، وكانت على مقربة من القلعة، وهي عربية البناء، وتمثل عصراً زاهراً من عصور الإسلام الذي اشتهر بزخرفة البناء، وفيها قلعة «الشماميس» الواقعة إلى الجهة الغربية منها، على بعد خمسة أميال، ومن المؤكد أنها رومانية وربما قبل ذلك، غير أن العرب أعادوا بناءها، وقد ذكرها المؤرخ أبو الفداء فقال:

في سنة ٦٢٧ هـ شرع صاحب حمص «شيركوه» في عمارتها، فأراد المظفر صاحب حماه منعه فلم يتمكن، وممَّا يجب الإشارة إليه.. أن بنيانها قائم على قاعدة من البازلت، وكان لها أسوار وأبراج تشرف على السهول البعيدة المترامية الأطراف. أما نسبتها فهناك مصادر تؤكد بأنها كانت لأحد ملوك حمص العرب «شميسغرام» ثم ملكها غيره حتى عهد صالح بن مرداس وأخيراً انتهت إلى مرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن. وقد ظلت في يده حتى

وفاته سنة ٤٩١ هـ. ومن الثابت أن هـذه القلعة تهـدمت سنة ٩٢٥ هـ. بفعل الزلازل على تاج الدين بن أبي العساكر بن منقذ ولم يسلم من سكانها أحد.

أمَّا الأقنية الرومانية فقد ثبت أنه كان فيها ٣٦٠ قناة ماء، وكانت أعظمها وأغزرها وأطولها قناة «العاشق» التي كانت تسقي العديد من أحياء حماه ومدينة أفاميا.

وهناك مقام الإمام إسماعيل أو «المسجد ذو المحاريب السبعة»، وكان بيت الدعوة للأئمة الإسماعيليين (المستورين) على مقربة منه، وهذا المكان أقيم على انقاض كنيسة أو دير أو كاتدرائية «مار سركيس» ومن الجدير بالذكر أنه يضم أضرحة اثنين من الأئمة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق بالإضافة إلى قبور الشهداء من أسرة الفاطميين الذين قتلهم القرامطة.

ومن المواقع الأثرية القديمة في منطقة سلمية: قلعة الربَّة، الرحيَّة، أم كبيبة، أسرية، «الغاي» «الأندرين» «قصر ابن وردان» «تمك».. وغيرها.

وقبل أن نختم حديثنا عن سلمية، لا بد من إعطاء لمحة عن المظاهر الأدبية التي انبثقت على أرضها، فقد ثبت أن الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبيء عاش فيها فترة من الزمن، وقد قبض عليه إبن علي الهاشمي العباسي بأمر من لؤلؤة صاحب حمص بحجة ادعائه النبوءة،وقد تم ذلك في قرية يقال لها «كوتكين» وهي الآن «كيتلون» وتبعد تسعة أميال عن سلمية إلى الجهة الشمالية الغربية وفي هذا يقول المتنبيء:

زعم المقيم بكـوتكـين بـأنـه ... من آل هاشمٍ بنِ عَبْد مَنَاف
فأجبته مذ صرت من أبنائهم ... صارت قيودهم من الصفصاف

ويذكر المتنبيء أيضاً سلمية بقصيدة طويلة يصف فيها المعركة التي خاضها سيف الدولة الحمداني مع الأعراب الذين شقوا عليه عصا الطاعة. فيقول:

فـأقبلها المـروج مسـوّمـاتٌ ... ضوامر لا هـزال ولا شيارُ[1]
تُثـيرُ عـلى سلميـة مسبِّطـراً ... تنـاكـر تحتـه لـولا الشعـار

---

(١) شيار وتعني الحسنة المفرطة في الحسن.

وذكرها الشاعر ابو فراس الحمداني ايضاً عندما وصف المعركة المذكورة، ومن الثابت أن ديك الجن عبد السلام بن رغبان كان يتردد إليها، ويقضي فيها فترات طويلة على مقربة من الأمير «جعفر بن علي الهاشمي» وعند وفاته جاء من حمص، والقى قصيدته المشهورة بتأبينه ومنها.

على هذه كانت تدور النـوائب ... وفي كل جمع للذهاب مـذاهب

نزلنا على حكم الزمان وأمـره ... وهل يقبل النصف الألد المشاعب

ألا ايها الركبان والردُّ واجب ... قفوا حدثونا ما تقول النوادب؟

إلى أي فتيان الندى قصد الردى ... وأيهم نـابت حمـاه النـوائب؟

وقبل أن نختم الحديث عن سلمية، نود الاشارة إلى مزاعم لا يؤيدها التاريخ، تقول بان المسجد ذا المحاريب السبعة هو المسجد الذي اتخذ على أهل الكهف وكانوا سبعة، اي لكل محرابه، والله أعلم بالصواب.

سلمية في التاريخ

لمَّا توفي الملك المظفَّر «تقي الدين عمره» سنة ٥٨٧ هـ. خلفه ابنه المنصور «ناصر الدين محمد» في ملك مدينة حماه وسلمية والمعرة وغيرها، وفي آخر عمره عهد بالملك لولده المظفَّر محمد، ولكن بعد وفاته ولوا ابنه الثاني الناصر قليج ارسلان، فذهب المظفَّر إلى مصر واستجار بالسلطان الملك الكامل الأيوبي وأقام في خدمته. وفي سنة ٦١٩ هـ. جاء الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وحاصر ابن اخته الناصر صاحب حماه لتمنعه عن دفع مال مستحق، ولمَّا لم ينل مأربه ارتحل إلى سلمية واستولى على حواصلها العائدة للناصر وأقام في مروجها يعد العدة لحصار حماه إلى أن جاءه أمر الملك الكامل بالارتحال عنها، وأمر أيضاً بإبقاء حماه بيد الناصر، وتسليم سلمية إلى أخيه المظفَّر. وفي سنة ٦٢٦ هـ. جاء الملك الكامل إلى حماه بجيش سلَّم قيادته إلى أسد الدين شيركوه صاحب حمص وهو حفيد شيركوه الأول عم صلاح الدين الأيـوبي وأمره بحصـار حماه، فاستسلم الناصر وسلَّم حماه، فأمر الملك الكامل بإعادة المظفَّر إليها على أن تنزع سلمية منه وتسلم إلى شيركوه فصارت سلمية في تلك الفترة سبباً للعداوة بين أبناء الأعمام ملوك حمص الأسديين وملوك حماه التقويين والتي زادت ضراماً عندما عمَّر شيركوه أو حسَّن عمارة قلعة «الشميميس» سنة ٦٢٧ هـ. ويظهر أن سلمية ومروجها وغزارة مياهها كانت صالحة لمرور الجيوش، وقد نزلها الملك الكامل للمرة الثانية سنة ٦٢٩ هـ. وكان في طريقه إلى «آمد» ديار بكر، واجتمع فيها ملوك الأيوبيين، كما نزلها سنة ٦٣٠ هـ عندما ذهب لقتال الملك كيقباذ السلجوقي.

لقد سعدت سلمية في عهد الأيوبيين، كما كانت في عهد الهاشميين. ولمَّا جاء التتر في عهد هولاكو وغازان اتخذوها مراحا يميلون إليه عندما يأتون من حلب إلى حمص أو دمشق، ولمَّا انتصر عليهم الملك المظفَّر «قطز» سنة ٦٥٨هـ في معركة عين جالوت. نزع سلمية من يد الملك المنصور واقطعها للأمير مهنا آل الفضل، مكافأة له على حسن

بلائه معه في تلك المعركة الفاصلة، ومنذ ذلك الحين وسلمية في يده ويد أبنائه من بعده.

سكت التاريخ عن بيان جنسية سكان سلمية في ذلك الوقت وخاصة على عهد «خلف بن ملاعب الكلابي» والملوك الأيوبيين والسلاطين المماليك، وقد ثبت أن سلمية لم يقطنها الإسماعيليون بعد حادثة القرامطة وذهاب عبد الله المهدي منها حتى سنة ١٨٤٥ م عندما عمرها الأمير إسماعيل العلي الذي جاء من قدموس لعمارتها بإذن من الحكومة التركية وكانت خالية من السكان.

وفي سنة ٦٩٢ هـ. زارها السلطان المملوكي «الأشرف خليل» وكان في طريقه من مصر إلى دمشق وحمص وذلك سنة ٦٩٢ هـ وقد لبّى أنئذٍ دعوة الأمير مهنا بن عيسى وبقي في ضيافته ثلاثة أيام، ثم بدا له أن يقبض على هذا الأمير وعلى اخويه محمد وفضل فأرسلهم إلى مصر وقد ظلوا فيها إلى أن أطلقهم الملك العادل كتبغا ولم يذكر التاريخ أن الظاهر بيبرس قد زارها لمّا أمر بترميم قلعتها الشميميس التي ضربها التتر.

وقد ظلَّ هذا الخراب قائماً ما يقارب خمسة قرون ونيف وطيلة مدة حكم الأعراب من آل مهنا الذين انقلب اسمهم إلى آل جبار ثم آل أبي ريشة وهم فرع من قبيلة الموالي.

وفي القرن الحادي عشر سيطر الأمير فخر الدين المعني على بلاد حمص وحماه وتدمر وسلمية وحالفه أمراء آل ريشة وصادقوه، واستنجد به كبيرهم الأمير مدلج عندما نازعه ابن عمه حسين على الزعامة، فجاء فخر الدين سنة ١٠٢٣ هـ وأنجدمدلج فأضافه وأكرمه في سلمية وأهدى إليه الفرس «سعدة» المشهورة. وبعد عامين انتقض مدلج وقومه على الأمير فخر الدين وتمنعوا عن تسليم الضريبة المفروضة عليهم فهاجمهم وطردهم حتى نهر الفرات، وأخيراً عادوا إلى ديارهم.

وفي أواخر القرن الحادي عشر وفدت قبائل شمَّر من العراق إلى البادية السورية وأرادوا الاستيلاء على سلمية ولكن الموالي صدوهم بعد حروب وغزوات دامت عشرة أعوام. وفي أواخر القرن الثاني عشر وفدت إلى البادية السورية قبائل «عنزة» الذين هاجروا من نجد

فصمدت الموالي لهم ولكن كثرة عددهم تغلبت أخيراً فاستولوا على رقعة من البادية قريبة من حمص لفرقة منهم هي «الحسنة» ثم استولوا على سلمية أيضاً ولكنهم تركوها أخيراً.

وفي نهاية المطاف عادت المدينة إلى أهلها بعد قرون وأصبحت عاصمة الإسماعيليين في الشرق.

وحرر بقلم الفقير لله تعالى محمود علي اسماعيل في قرية المريقب هذا وقد تم الفراغ من نساخته في غرة شعبان
المعظم في سنة ١٣٨٤ الف وثلاثمائة واربعة وثمانين هجرية ؛ ولقد نقلته عن كتاب من كتب الشيخ صالح
العلي غفر الله له وان الذي نقلنا عنه ذكر انه نقل عن خط الشيخ سلمان سرحين وذكر انه نقل عن فلان عن
فلان الى ان وصل انه منقول عن خط السيد ابا سعيد في طبريا والله اعلم . وهذا النسب وجدناه ونقلنا
عن خط الشيخ سلمان المريقب : محمود ابن علي بن اسماعيل بن الشيخ محمد ابن الشيخ ابراهيم ابن الشيخ علي ابن
الشيخ رمضان البويلية ابن الشيخ شعبان ابن الشيخ محمود بشر ابن الشيخ خليل ابن الشيخ محمود ابن الشيخ علي ابن
الشيخ بدران ابن الشيخ علي بن محمد شبلي [illegible] ابن الشيخ محمود ابن الشيخ صبح ابن الشيخ حامد(١) ابن الشيخ
صالح ابن الشيخ يعقوب ابن الشيخ حيدر الظاهر ابن الشيخ بدر [illegible] ابن شاكر ابن الامير فضل الدين في [illegible] ابن
الامير محمد في مصياف ابن الامير خليل ابن الامير فضل الدين حاكم مصياف ابن الامير محمد الاربعي حاكم حماه
ابن [illegible] الاربعي في [illegible](٢) ابن الامير منصور ابن الامير ناصر الاربعي ابن الامير محمد ابن الامير ابراهيم
حاكم صيدا والرملة ابن محمد الغوري سلطان مصر القاهرة ابن [illegible] الدين المغربي ابن تاج الدين المغربي ابن عماد
الدين العلمي ابا ابو الفتوح في مصر ابن الامير عبد الله المغربي في سوق العتيق عند عامر الاسود في مصر
ابن الامير محمد ابن الامير محمد الحسني ابن الامير محمد معز الدولة(٣) ابن الامير محمد ابن مقاتل القطيفي صاحب
الرسالة المصرية رضي الله عنهم جميعا
ثم لنا هذا النسب من خط الشيخ سلمان المريقب وذكر انه نقله ووجده عند الشيخ ابراهيم القدسي وذكر
انه نقله عن خط الشيخ محمد القطيفي وانه نسخه بيده من آخر الرسالة المصرية وكان الشيخ محمد يومئذ عالم
في قرية [illegible] وتاريخ الرسالة عند الشيخ ابراهيم [illegible] رحمه الله تعالى [illegible] وشهد بها [illegible]
[illegible]

الوثيقة رقم ٣

(١) الشيخ حامد خريجه في قرية «الكيمي» من أعمال صافيتا.
(٢) قلعة اسماعيلية قضاء جبلة.
(٣) لم يكن لخليفة مصر ولد يسمى «الشيخ محمد معز الدولة».

ابن الشيخ محمد الأعرج ابن الشيخ شعبان ابن الشيخ شاكر
ابن الشيخ حسن ابن الشيخ محمد ابن الشيخ سلامه ابن
الشيخ اصفى ابن الشيخ موسى ابن الشيخ حامد ابن الشيخ
صالح ابن الشيخ يعقوب ابن الشيخ حيدر الغفير
ابن الشيخ بدر الغفير بالأندروني صاحب قلعة الخوابي(١)
ابن الشيخ شاكر ابن الشيخ فضل الدين في تلا ابن الأمير
مير محمد في مصياف ابن الأمير سد خليل ابن الأمير
فضل الدين حاكم في مصياف ابن الأمير محمد الأ
درعي حاكم في حماه ابن الدين الأدرعي حاكم في
المينقه ابن الأمير منصور ابن الأمير ناصر الدين
الأدرعي ابن الأمير محمد ابن الأمير براهيم حاكم
الصيدا والرملي ابن الأمير محمد الغوري في مصر ابن سراج
الدين المحرزي ابن تاج الدين المحرزي ابن الأمير
الأمير عبد الله المحرزي
مود الأسود ابن الأمير محمد ابن الأمير محرز الجيشي
ابن الأمير محمد ابن مقاتل القطيعي ابن محمد ابن يوسف ابن

- ٣٧ -

(١) الخوابي: من قلاع الاسماعيلية

الوثيقة رقم ٤

بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم
يولد ولم يكن له كفوا احد سبحان من ليس له حد ينال ولا
صفة تضرب به الامثال واشهد ان لا اله الا الله واشهد
ان محمد رسول صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء وا
لمرسلين واله واصحابهم وبارك وسلم تسليما ولله تعظيم
بسليم الفقير لله تعالى اسير الذنوب وكثير العيوب الراجي
عفو من قال يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم عبده
الدرويش في حبه الخطيب ابراهيم المأذن ابن الشيخ يوسف الخطيب
المأذن ابن الشيخ عمار ابن الشيخ نصر اسرة الشيخ حرفوش

قلاع الاسماعيلية في بلاد الشام

احبَّ الإسماعيليون القلاع والحصون، وكرسوا جهودهم لامتلاكها وتحصينها وإعدادها لتكون صالحة للهجوم وللدفاع عند اندلاع نيران الحروب. ومن الواضح أنهم كانوا يطمحون دائماً إلى إقامة دولة مستقلة في أي مكان وجدوا. ففي أفريقيا الشمالية واليمن وفارس وسوريا كان امتلاك القلاع والحصون دأبهم. وتذكر مصادر تاريخية عديدة أنهم امتلكوا قلاع حلب ودمشق وبانياس الشام، والشقيف، وطرابلس الشام، وحصن الأكراد، والمرقب، وشيزر، وصهيون، وغيرها، ولكنهم كانوا يتخلون عنها عندما تهاجمهم قوى أكثر عدداً وعدة.

وكانوا أيضاً يعتقدون بأن القلاع والحصون وحدها كفيلة بتأمين الانتصار في الحروب التي كانوا يخوضون غمارها والاعتصام فيها عند اللزوم.

وفي هذه الصفحات نقدم لمحة تاريخية عن قلاع الدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام التي طبعت بطابعهم، وأقاموا فيها ولا يزالون. أمّا القلاع التي كانوا يحتلونها ثم جلوا عنها لعلل وأسباب فسنكتفي بالإشارة إليها.

«قلعة قدموس»

ورد اسم هذه القلعة في مصادر تاريخية عديدة «قلعة القدموس» وهذا خطأ لأن آل التعريف لا تدخل على اسم العلم، والأصح أن نقول: «قلعة قدموس».

تعتبر هذه القلعة من أجمل قلاع بلاد الشام، فهي صخرة طبيعية وجدت على مرتفع يعلو ألف متر عن سطح البحر، ولا يعرف بالتحديد متى وجدت في هذا المكان الجميل، ومتى أصبحت من القلاع الدفاعية التي لا يمكن الدخول إليها إلاَّ من باب واحد من الجهة الشرقية، وهذا الباب يصعب الوصول إليه إلاَّ بواسطة السلالم.

وجَّه الإسماعيليون اهتمامهم إلى امتلاك هذه القلعة، منذ أن قرروا

إقامة إمارتهم في جبال «البَهْرة»[1]. وقد اعتبروها عاصمة لقلاعهم في فترة من فترات التاريخ.

تطلُّ على مسافات بعيدة من كافة الجهات، إذ يمكن منها مشاهدة أضواء ميناء طرابلس الشام وذلك في الليالي القمراء، كما يمكن مشاهدة جبال قبرص عندما تكون السماء صافية.

تبعد عن بانياس الساحل ثلاثين كيلو متراً إلى جهة الشرق، وبنفس المسافة عن مصياف إلى الغرب، لهذا فإن موقعها يشكل منتصف الطريق بين البلدتين.

ذكرت المصادر التاريخية أن «المحارزة»[2] العلويين شكلوا فيها إمارة صغيرة، ولكن التاريخ المشبوه لم يقدم لنا التفاصيل أو يحدد تاريخ هذه الإمارة والمدة التي دامت، وعادت هذه المصادر فذكرت أن الصليبيين تمكنوا من احتلالها سنة ١١٩٥ م، ولكن صاحبها القديم «سيف الدين بن عمرون الدمشقي» تمكن من استرجاعها وبيعها ثانية إلى مقدم الإسماعيلية «أبو الفتح» الذي حصنها وأدخل عليها تحسينات أكثر مناعة، ولكن «بوسمند الثاني» الصليبي هاجمها سنة ٥٢٣ هـ. فردَّ على أعقابه، ولم يتمكن من الوصول إليها، وفي عهد الظاهر بيبرس فرض عليها ضريبة باهظة وعين عليها حاكماً مملوكياً عندما رفض أصحابها الإسماعيليون استقباله حين مروره فيها ولكن التفاهم ساد بعد ذلك، وعاد الصفاء والتعاون بين الإسماعيلية وبيبرس.

تقول المصادر الإسماعيلية، ومنها كتاب «فصول وأخبار»[3] أن الإسماعيليين اشتروا «قلعة القدموس» من ابن عمرون الدمشقي بعد أن عززوا وجودهم في قلعة «مصياف» في حدود سنة ١١١٧ م، ومن المؤكد أن هذه القلعة جلا عنها الإسماعيليون ثلاث مرات، ولكنهم لم يلبثوا أن يعودوا إليها. وليس مستبعداً أن يكون المحارزة قد حاولوا امتلاكها أو ظلوا فيها فترة قصيرة.

---

(١) هي جبال العلويين اليوم وتمتد من عكار جنوباً حتى اسكندرون شمالاً، ومن شاطىء البحر المتوسط غرباً حتى سهل حمص وحماه شرقاً.

(٢) طائفة علوية جاءت من مصر في ظروف غامضة وكانت من أتباع الفاطميين، وقيل أنها جاءت للمساهمة في حروب الصليبيين عند قيامهم بغزو بلاد الشام.

(٣) مخطوط تاريخي إسماعيلي تأليف «نور الدين أحمد».

من الثابت أن الإسماعيلية ضموها إلى أملاكهم في جبال البهرة بعد أن تمكنوا من السيطرة على عدد من القلاع الأخرى ومن القرى والقطاعات الواسعة الأخرى.

وقدموس اسم فينيقي لملك من ملوك الفينيقيين ذكر أنه «ابن آجنور» ملك فينيقيا، ذهب إلى الغرب ليسترد أخته «أوروبا» بعد أن اختطفها «زفس» فتوقف في بلاد اليونان وأدخل فيها الأبجدية وأنشأ مدينة «ثيبة» حوالي القرن الخامس عشر ق.م.

أما في الجهة الشرقية من القلعة توجد غرفة كانت مقراً لشيخ الجبل سنان راشد الدين وفي الغرفة نافذة تطل على الجهة الشرقية وربما كانت للمراقبة.

وعلى مقربة منها يوجد جامع كتب على بابه «أمر بتجديد هذا الجامع المبارك المولى نجم الدين بن شمس الدين».

هاجمها القائد التركي «يوسف باشا» سنة ١٢١٧ هـ. فبنى بمحاذاتها برجاً ركّز عليه المدافع وقذف القلعة حتى أخرج العلويين الذين كانوا قد احتلوها.

احتلها الشيخ صالح العلي قائد الثورة السورية سنة ١٩١٩ م بناء على طلب من الملك فيصل بن الحسين وقد تمكن آنئذٍ من إخراج الإسماعيليين منها، ولكنهم عادوا بعد عامين إليها ولا يزالون.

على بعد أربعة كيلومترات منها إلى الشرق، وفي قمة جبل يطل على قدموس يوجد قبر أطلقوا عليه خطأ اسم «المولى حسن بن نزار» وهذا الإمام مدفون في «ألموت» ببلاد فارس. أما صاحب القبر الحقيقي فهو الداعي الإسماعيلي «أبو الفتح محمد العراقي» المعروف «برأس الأمور».

وهناك على بعد يقارب من عشرة كيلومترات إلى الشرق الجنوبي، وعلى قمة جبل سمّوه خطأً «النبي شيت» يوجد عدد من القبور غير معروفة بأسمائها والأرجح أنها قبور بعض دعاة الإسماعيلية.

«قلعة الكهف» تبعد قلعة الكهف عن قدموس مسافة عشرين كيلومتراً في طريق ضيق صعب الاجتياز حتى على الدواب والأقدام، وأفضل طريق إليها هو

قدموس ـ مقرمدة ـ دليبة ـ المريجة ـ الكهف ـ وهناك طرق أخرى توصل إليها إلا أنها أكثر صعوبة.

تعتبر قلعة الكهف من قلاع الإسماعيلية التاريخية التي شهدت حروباً وأحداثاً ففي سنة ١١٠١ م. كانت من أملاك «سيف الدين بن عمرون الدمشقي»، وفي سنة ١١٣٩ استرجعها صاحبها سيف الدين من الفرنجة، ولكن بعد وفاته حدث خلاف بين أولاده مما جعلهم يعرضونها للبيع، فتقدم لشرائها «أبو الفتح محمد العراقي» وحولها إلى قاعدة كبرى، وبعد فترة وصل إليها «شهاب الدين أبو الفرج» المعروف بـ ـ أبو محمد وكانت حينئذٍ تابعة إلى «ألموت» الفارسية عاصمة الدولة الإسماعيلية النزارية ـ وبعد وفاة أبو محمد تسلّم الأمر في قلاع الدعوة ببلاد الشام «سنان راشد الدين» وقبل وفوده إلى بلاد الشام تولّى الأمر فيها «علي بن مسعود» دون الرجوع إلى «ألموت» وكان قد أجرى اتفاقاً سريًّا بين الداعي «أبو منصور» ابن أخت أبو محمد والداعي «فهد» فأوفدوا من قتل «علي بن مسعود» وبعد هذا وقعت اضطرابات عنيفة ممَّا مهَّد الطريق لسنان راشد الدين للسيطرة على الموقف بعدما تمكن من اطفاء نار الفتنة العائلية. فأخذ بتجديد بناء الحصون وتنظيم الجيش وإعداده، بالإضافة إلى إقامة مدرسة لتعليم «الفدائية» اللغات السائدة في تلك العصور وذلك في مدينة «مصياف».

زارها سنة ١١٩٤ «هنري كونت شامبانيا»، وزارها الإمام الفاطمي النزاري «جلال الدين حسن» وكان قد أرسل الرسائل يطلب اصلاح «الحمام» فيها.

فرض عليها الظاهر بيبرس ضريبة سنة ٦٦٨ هـ. أو سنة ١٢٧٠ م ولكن كل هذا قد زال عندما حصل التفاهم بين بيبرس والمقدم نجم الدين الشعراني داعي الإسماعيلية في بلاد الشام.

تقع «الكهف» في أرض منخفضة بالنسبة للجبال العالية التي تحيط بها، وهي قائمة على هضبة صخرية فوق وادٍ سحيق يجري فيه نهر تتجمع فيه مياه الشتاء.

مدخلها من البوابة التي كادت معالمها تزول الآن، وقد ظهرت عليها كتابة ويبرز اسم الملك الظاهر، وبعد أن يجتاز الزائر هذه المواقع

يصل إلى الحمَّام التي تغطيها الأشجار والأشواك والتي تهدَّم سقفها، فأصبح الدخول إليها عسيراً، وقد ظهرت الكتابة التالية على بابها:

«بسم الله الرحمن الرحيم... أدخلوها بسلام آمنين... وعلى الله فليتوكل المؤمنون... أمر بعمارة هذا الحمَّام المبارك المولى العادل سراج الدين، والفقير مظفَّر بهاء الحسين أعزه الله ونصره في ولاية العبد الفقير إلى شفاعة مواليه الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين».

حسن بن إسماعيل العجمي الألموتي

في سنة ٥٧٢ هـ

شكل الحمَّام مثمَّن الاضلاع، وقبته متهدمة، ولم يبق منها إلاَّ القليل، وله أربعة أبواب فوقها عقد يعلوها تحسينات جميلة، وخلف كل جدار غرفة صغيرة مستطيلة، وبعض الأجزاء الأخرى محفورة في الصخر. أما المدخل الثاني فقد نُحت كلياً في الصخر، وبجانبه غرفة للحرس محفورة بالصخر أيضاً وهي من أعاجيب البناء، وبعد ذلك يمكن مشاهدة أبنية متهدمة وأرض صخرية حرجية وبقايا سور محيط بالقلعة، ومن الجدير بالذكر أن مياه القلعة كانت تجري إليها من عين ماء غزيرة واقعة في قرية «الدليبة» وهي تبعد عن القلعة ـ مسافة إثني عشر كيلو متراً.

تمتد القلعة مسافة ستمائة متر تقريباً وعرض يتجاوز الخمسة عشر متراً، ولا يمكن إجراء أية ترميمات فيها حالياً فهي غير مسكونة ولا يمكن ايصال الطريق إليها، وقد يتعذر نقل المواد إليها.

زارها العديد من المؤرخين والسيَّاح وفي سنة ١٩١٤ م زارها المؤرخ الافرنسي «موريس باريس» «Maurice - Barrès» وكتب عنها فصلاً خاصاً في كتابه «رحلة إلى بلاد الشرق» «En Quête aux pays du Levant».

«قلعة الخوابي» قلعة اسماعيلية تابعة ومرتبطة بقلعة الكهف. تبعد عن مدينة طرطوس إلى الشمال ـ مسافة عشرين كيلومتراً تقريباً. موقعها في منطقة متوسطة بين جبال هي أقل ارتفاعاً. وعلى العموم فهي من قلاع الإسماعيلية المعترف عليها والمتميزة بموقعها الحربي، وقد استولى عليها الإسماعيليون بعد عامين من وصولهم إلى قلعة الكهف.

جدَّد بناءها سنان راشد الدين سنة ١١٦٠ م وهاجمها «بوهمند الثـاني» الصليبي؛ وكانت أهـدافه، تـرمي إلى الثـأر لابنـه من الإسماعيلية الذين قتلوه، إلاّ أنه رفع عنهـا الحصار استجـابة لوساطة قام بها أمير حلب.

بالإمكان الصعود إليها على سلم حجري، وتتألف من حارتين:

الأولى: حارة سنان راشد الدين «مركز القلعة والمنطقة المحيطة بها».

الثانية: حارة السقي.

«قلعة العلّيقة» تبعد عن قدموس ما يقارب الخمسة عشر كيلومتراً إلى جهة الشمال الغربي وتقوم على أرضٍ مشرفة تحيط بها الخضرة الدائمة.

بناؤها قائم على جبل صخري كلسي بارز مما أكسبها منعة وهيبة وارتفاعاً. لم يذكر التاريخ للأسف اسم بانيها الأول ومعنى هذا تضارب الأقوال في أصلها، وقد عثر على آثار يونانية غير بعيدة منها. استلمها الملك الظاهر بيبرس وعزل عنها مقدم الإسماعيلية «نجم الدين الشعراني» ثم عين مكانه «خالد الدين بن الرضي» وفرض عليها ضريبة سنوية، وقد تمَّ ذلك عندما تمكن من فتـح قلعة حصن الأكراد، وكان ذلك سنة ٦١٩ هـ أو سنة ١٢٧١ م.

احتلها سنان راشد الدين. وضمها إلى قلاع الدعوة الإسماعيلية في بـلاد الشـام، رمَّم أسـوارهـا، وحصَّنهـا «سنقـر العجمي» ثم تسلمها «أبو بكر العليشي» بعهد «محمد بن قلاوون الصالحي» حوالى العام ٧٤١ هـ. وعندما اصطدمت الإسماعيلية بالمحارزة كانت هذه القلعة تنتقل من يد إلى أخرى بين كر وفر، ويروى أن «محمد بن عماد الدين العلقمي» البشراغي استولى عليها مرة، وذكر أنه أحد جدود الشيخ صالح العلي. وأخيراً انتهت إلى الإسماعيلية وظلَّت تحت حكمهم وفي ملكيتهم حتى وقت قريب عندما باعها أصحابها ونزحوا إلى مصياف.

لقلعة العليقة سوران أحدهما ضمن الآخر، وبهذا تصبح القلعة ضمن قلعة حيث تتوزع الأبراج فيها والقناطر عليها إلاّ أن الأجزاء الأخرى تبدو متهدمة.

بوابتها الرئيسية واضحة المعالم حتى عهد قريب، وكانت تغلق ليلاً

إلّا أنها تهدمت وأزيلت ولا يزال على جدرانها بقايا من شجر الليلاب.

فيها جامع تهدمت جدرانه، فلم يبق منه سوى الأقواس المتقاطعة مع بعضها وهي تستند على دعائم بجانب بئر ماء أعلاها مرصوف بالحجارة، وفي الأسفل حفرت في الصخر الصلب وتتسع على شكل مخروطي، وقد طليت جدرانها بالكلس، كما يوجد بئر ماء أخرى محفورة على مقربة من الحمام وهو عبارة عن حجرات مبنية بالحجارة على شكل رأس وهي نصف أسطوانية متقاطعة، كذلك يوجد في الطابق الأرضي منها حمام جميلة ولكن يصعب النزول إليها لأن بابها الرئيسي شبه مسدود، أما سقفه فمعقود نصف أسطواني يتخلله أقواس متقاطعة وتضم تحسينات مثلثة تحتوي على خزان ماء محفور بالصخر وسقفه من الحجارة، وقد تصدعت درجاته بفعل الزمن، كما أن جدرانه طليت بالكلس، وطوله ٨,٤٥ متر وعرضه/ ٦/ أمتار.

بوابة السور الداخلي جيدة وفريدة من نوعها وحجارتها متداخلة مع بعضها، وبالإضافة إلى ذلك تضم القلعة أقنية ضخمة جيدة البناء وعليها صور حلقات للرقص، ويبدو أن معظم الأبنية القديمة قد أزيلت جدرانها، إلّا أن معالمها لا تزال باقية، وقد عثر عليها في القناطر والأبراج.هناك حجر كتب عليه كلمات مبهمة ولكن أمكن استخلاص ما يلي:

«أمر بتجديد هذا البرج الزردخاني المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى «سقر العجمي النيطري» سنة ٦٧٠ .

كما عثر منذ فترة على أربعة غرف كلسية بيضاء تحت الأرض وهي حالياً مطمورة وغير ظاهرة. كما أن على مقربة منها توجد مقبرة إسلامية، وتضم قبر «الشيخ محمود العليقة» وهو أحد دعاة الاسماعيلية الكبار. كما وجدت كتابة على أحد الأحجار التي تشكل برجاً كبيراً وقد كتب عليها:

أمر بعمارة هذا البرج الزردخاني «شيحا جمال الدين» وهذا كان من قواد الإسماعيلية البحارة الذين خاضوا معارك بحرية كبرى ضد الأعداء الصليبيين.

«قلعة الصينقة» من قلاع الدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام، وتقع في منطقة تابعة

لمدينة «جبلة». تبعد عن العليقة مسافة عشرة كيلومترات. احتلها الإسماعيليون عندما أرسوا قواعدهم في قلعة العليقة وقد اعتبرت المركز الرئيسي للقطاع الشمالي الذي يضم قلعة «المهالبة» وقلعة «ميرزا» وقلعة «صهيون».

كانت مقراً للفيلسوف الإسماعيلي الداعي «شهاب الدين أبو فراس» المينقي صاحب المؤلفات العديدة والمشار إليه فيما سبق، ومن الجدير بالذكر أن هذا الفيلسوف يرقد تحت أحد أبراجها.

هجرها الإسماعيليون نهائياً في حدود سنة ١٢٠٨ م بعد معارك طاحنة.

قلعة الرصافة تبعد عن قلعة مصياف ثمانية كيلومترات إلى جهة الغرب الجنوبي، بناها سنان راشد الدين على قمة جبل يشرف على مسافات واسعة من الجهة الشرقية والغربية وقد اعتبرت برجاً للمراقبة.

اعتبرت من قلاع الدعوة الإسماعيلية رغم صغرها، واليوم تحولت إلى كومة من حجارة.

«قلعة مصياف» ذكر التاريخ أن الإسماعيليين احتلوها سنة ١١٤٠م وهذا خطأ، فهذه القلعة التاريخية احتلها الإسماعيليون عندما جاءوا إليها من شيزر، أي في العام ١١٠٧ م في أغلب الظن.

اسمها في التاريخ «مصياد» أو «مصيد» أو «مصيف» ولا أحد يدري متى أصبحت مصياف، وفي العهد التركي سميت «العمرانية».

هذه القلعة الأثرية الجميلة المبنية على صخور صلبة والمسوَّرة بسور طويل لا أحد يدري من الذي قام ببنائها لأول مرة والأرجح أن اليونانيين والرومان والعرب بعدهم كانوا يجددون بناءها ويدخلون تحسينات عليها.

ظلَّت في كافة الأوقات القاعدة الرئيسية أو عاصمة الإسماعيليين في بلاد الشام. اتخذها سنان راشد الدين قاعدة له، وفيها عقد اجتماعه مع صلاح الدين الأيوبي حيث عقدت راية الصلح بعد عداء كاد يشعل حرباً.

لا تزال تعتبر مركز التراث الإسماعيلي القديم.

قلعة شيزر فتحها أبو عبيدة بن الجرَّاح سنة ٦٣٨ م. قلعة قديمة تقع إلى الغرب

الشمالي من مدينة حماه، على ضفة نهر العاصي الغربية وهي موقع حصين يتحكم بوادي العاصي ويسيطر على الطريق الداخلية التي يسلكها المغيرون من الشمال وخاصة الصليبيون والروم أيام الحروب.

موقعها الحربي جعل لها أهمية كبرى بالنظر لقربها من حماه وأفاميا وإشرافها على سهل الغاب وعلى قلعة «المضيق» التي تعتبر متممة لها.. وهذه الهضبة التي تقوم عليها شيزر تسمى «عرف الديك» نظراً لبروزها وارتفاعها وزاد في منعتها وارتفاعها أن نهر العاصي يحيط بها من جهاتها الثلاث، وكانوا قد حفروا خندقاً في الصخر يقطعها عن البر وأقاموا فوقه جسراً يصلها به حين يرغبون.

وقعت بأيدي البيزنطيين، ثم استردها العرب، وقد تداولها العرب والصليبيون مراراً إلى أن احتلها الإسماعيليون وكانوا قد قدموا من حلب، فظلّت بأيديهم فترة طويلة.

كما وقعت في يد عز الدين سديد الملك أبو الحسن علي جد «أسامة ابن منقذ» بعد أن أقطع بني منقذ الاقطاع الذي ذكر في جوارها وضمها إليه.

داهمها زلزال سنة ٥٥٢ هـ فهد أركانها ودمرها تدميراً قضى على أهلها.وحاصرها الروم سنة ٥٣٢ هـ ونصبوا عليها المتجنيقات. وهاجمها الاسماعيليون واحتلوها سنة ٥٠٣ هـ وكانوا قد تسللوا إليها من حلب، واحتلها جيش الفاطميين بقيادة جعفر بن فلاح ومنها ذهب إلى انطاكية لحرب الروم. واحتلها جيش الحاكم بأمر الله عندما طرد منها الصليبيين والروم. واحتلها القرامطة بقيادة الحسن بن زكرويه صاحب الخال. كما احتلها القائد الفاطمي جوهر الصقلي. تبعد عن حماه/ ٢٨/ كيلومتراً.

ظلّ سكانها من الاسماعيليين من آل غيبور، وحيدر، وزريق وغيرهم حتى جاء عهد الاقطاع فجلاهم عنها.

الإسماعيلية
في شمالي إفريقيا

الفتح العربي شمالي أفريقيا

خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري لغزو أفريقيا الشمالية في عشرين الف رجل وذلك في عهد الخليفة الثالث «عثمان ابن عفّان»، وعندما وصل إلى طرابلس الغرب، وجد الروم قد تحصنوا فيها فتركهم وسار باتجاه شاطىء البحر، حيث هاجم السفن الراسية في الشاطىء. فتمكن من الاستيلاء عليها، وعلى ما فيها من المتاع، والسلاح، والمؤونة، ثم رحل إلى «قابس» وكان الروم قد تحصنوا فيها، فدخلها دون قتال، ثم أكمل طريقه حتى وصل إلى شمالي أفريقيا، وهنالك واجههم ملكها «جرجير» بمئة وعشرين ألف مقاتل، فعرض عليه ابن سعد الدخول في الإسلام، فامتنع لما رأى أن الكثرة التي معه قادرة على سحق القلة المسلمة، وأقسم في ذلك الوقت أن يزوج ابنته بمن يأتيه برأس عبد الله بن سعد، ولكن القائد عبد الله ابن الزبير، استطاع أن يتسرب إلى قصر جرجير مع ثلاثين من أصحابه سالكاً طريقاً اعتاد أن يسلكه الجند في الوصول إلى الملك، فلما وصل ابن الزبير وأصحابه إلى القصر ظن الملك أنهم من جنوده، ففاجأوه وقتلوه. وبعد ذلك حمل المسلمون على عساكره فهزموهم ولاحقوهم في السهل والوعر حتى أبادوا أكثرهم وغنموا غنائم كثيرة من الأموال والحلي والذهب واعتقلوا ابنة الملك جرجير وقادوها إلى ابن سعد فسألها عن قاتل أبيها فأشارت إلى ابن الزبير فأعطاها له.

وفي عهد يزيد بن معاوية ولي عليها عقبة بن نافع، فذهب إلى القيروان، وخلّف فيها ولده مع البعض من جيشه، ورحل مع عسكر عظيم إلى «باغاية» فقاتل أهلها قتالاً عظيماً وهزمهم، ومنها يمّم شطر «حمس» فهزم أهلها، ودخل «الزاب»، وظلّ متقدماً حتى وصل إلى

«تاهرت» فوجد عليها جموعاً من البربر والنصارى فأوقع بهم، وهزمهم، ودخل «لواتة» و «هوارة» و زواغة» و «مطماطة» و «زناتة» و «مكناسة»، وبعد أن فرغ من احتلال المغرب الأوسط دخل إلى المغرب الاقصى وذلك سنة ٦٢ هـ. فوصل إلى «طنجة» وكان عليها «يليان» فاستأمنه، ومنها ذهب إلى مدينة «وليلة» بقرب «فاس» [قبل بناء فاس] فهزم جموع البربر واتبعهم حتى «درعة» ثم نزل إلى الصحراء ومن «درعة» إلى «تلمسان» حيث تمَّ له دخول «صنهاجة» وهناك نزل على «آغمات» ثم على «نفيس» ثم «وادي السوس» وسلك «ماجة» ثم «رجراجة» ثم «صورة» و «ايصرول» و «سرنو».

وفي سنة ٦٩ هـ أرسل عبد الملك بن مروان حسان بن نعمان الغسَّاني في أربعين ألف فسار حتى وصل إلى «القيروان»، وفي سنة ٨٩ هـ أرسل الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير إلى الأندلس، فأرسل موسى ابنه مروان إلى السرس الأقصى، وأرسل «زرعة بن أبي مدرك» إلى قبائل البربر، فطوقهم، وأخذ رهائن من «كتامة» و «زناتة» و «هوارة» ثم ولَّى عليهم طارق بن زياد وعاد إلى أفريقيا.

في عهد الدولة الفاطمية التي نكتب تاريخها، كانت بلاد شمالي أفريقيا مكوَّنة من شعوب غريبة غير متجانسة، ومن عناصر، وقبائل مختلفة لم يكن بالأمر السهل دمجها في وحدة شاملة، أو اخضاعها لنظام عام. فطبيعة البلاد الجغرافية، وتوزيع السكان في المناطق، وانتشار القبائل بعضها في أمكنة صالحة، وبعضها في أمكنة صعبة، كل هذا وقف حائلاً دون إيجاد العلاج الناجع. فالوحدة التامة كانت غير ممكنة التحقيق كما قلنا، كما أن إخضاع هذه القبائل والشعوب إلى سلطة عليا، ودمجها في دولة واحدة، ضرب من المستحيل، ومن هنا انبثقت المتاعب وأطلَّت المصاعب بوجه كل مصلح، أو أي إنسان يتصدى لعمل الخير. وفي عهد الخليفة الفاطمي الثاني «القائم بأمر الله» برزت إلى الواجهة السياسية المغربية قبيلة «صنهاجة» وهي فرع من قبيلة «زناته» فانحازت إلى الفاطميين، بعد أن رأت أن القبائل الأخرى ـ أي شقيقاتها ـ قد اتخذت سياسة معادية للفاطميين، فانحازت إلى جانب الأمويين، فزعيم «صنهاجة» زيري ابن مناد هرع إلى مصالحة «كتامة» والدخول معها في حلف تحت سلطة الفاطميين، وذلك رداً على زعيم آخر كان ينازعه السيادة هو

محمد بن خزر، الزناتي زعيم قبيلة «مغراوة» في المغرب الأقصى الذي أعلن الولاء للأمويين. ومن الجدير بالذكر أن هذه المناورات، والتقلبات دامت وقتاً طويلاً، فكانت شغل الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله في بداية عهده، كما كانت شغل الخليفة الأموي الناصر صاحب الأندلس.

هذا غيض من فيض، ولمحة عابرة عن الفتح العربي لبلاد افريقيا الشمالية، وقد كان علينا أن نشير إليها باختصار، بالنظر لعلاقتها بموضوع كتابنا، وحتى لا يفوت القارىء شيء من كل ما له صلة بالفاطميين.

قبائل شمالي أفريقيا

«البربر» قبائل عديدة، وشعوب مختلفة نزلت في أفريقيا الشمالية، وامتدَّت أوطانها من حدود «برقة» حتى المحيط الأطلسي. ومن المعلوم أنهم كانوا يتكلمون لهجات مختلفة قبل استعرابهم ولا يزالون حتى الآن، أمَّا أصلهم فيرجع إلى عناصر عرقية مختلفة استقرَّت في تلك البلاد قبل الميلاد، وعرفت منها «مملكة نوميديا» أي «موريتانيا» اليوم.

اختلط بهم الفينيقيون واليونان اختلاطاً عابراً. ومن الواضح أنهم لم يرتاحوا في حياتهم إلى حكم روما، ولا تقبلوا الديانة المسيحية، فمالوا عن الأولى، والثانية... اشتهروا بانحيازهم «للفاندال» وتسهيل مهمتهم عندما اقدموا على غزو أفريقيا، ولم يسالموا البيزنطيين. دخل قسم كبير منهم في الإسلام مع عقبة بن نافع، ورافقوا الجيش العربي في فتوحاته إلى أسبانيا بقيادة طارق بن زياد كما أنهم اتبعوا الخوارج، واعلنوا في أكثر الأوقات عصيانهم على العباسيين. وهم ينقسمون إلى ممالك وسلالات منها: الاغالبة، والرستميون، والمرابطون، والموحدون... وهذه الممالك زالت جميعها في أواخر القرن الثالث عشر ميلادي، فاختلط أهل المدن منهم بالعرب، واعتصم الآخرون بجبال الأوراس والأطلسي وفي الريف، وبلاد القبائل، والصحراء، حيث لا يزال القسم الأكبر منهم يحافظ على عاداته، ولهجاته، وتقاليده، اشتهروا بحبهم للقتال، وتعودوا على شظف العيش، والحياة القبلية القاسية التي اكسبتهم التمرد، وعدم الاخلاد للنظام... نفوسهم متأهبة دائماً وأبداً للمخاطر، وركوب متن

الأهوال. فأخلاقهم على العموم لا تعرف اللين، ومن المؤكد أنهم دون العرب حضارة، وأن للعرب الفضل الأكبر عليهم، ولكن بالرغم من كل هذا فإنهم ينظرون إليهم نظرتهم إلى عدو مستعمر جاء إلى بلادهم فاتحاً. أمَّا تزودهم من الحضارة الإسلامية فلم يكن على المستوى المطلوب.

إن أعظم قبائلهم، وأكثرها عدداً هي «صنهاجة» وهي من قبائل «البرانس» وأوفرها شدة وبأساً واستعداداً للقتال، وتتفرع من «زناته» التي هي مجموعة من القبائل. ويتفرع من «صنهاجة»: الطوارق، والهقار، والملثمون... وهؤلاء لعبوا دوراً كبيراً في قيام دولة المرابطين، وتأتي بعدهم «كتامة» وهذه القبيلة اعتنقت المبادىء الإسماعيلية على يد «أبو عبد الله الشيعي» وقاتلت مع الفاطميين عن عقيدة وإيمان.

دول شمالي أفريقيا في عهد الفاطميين

عندما قامت الدولة الفاطمية في شمالي أفريقيا، كانت هناك دول ثلاث تبسط نفوذها على تلك الأرض الواسعة وهي:

«بنو الأغلب» في المغرب الأدنى، والمغرب الشرقي، و «بنورستم» في المغرب الأوسط، و «الأدارسة» في المغرب الأقصى. ومن مجريات الأحداث يظهر أن الأولى، والثانية،ما لبثتا أن انقرضتا بمجرد أن سطع نجم الدولة الفاطمية. أمَّا الثالثة فقد حافظت فترة غير قصيرة على ممتلكاتها. ومن الجلي الواضح أن «بني الأغلب» كانوا في حالة انحطاط عند قيام الدولة الفاطمية، فلم يتمكنوا من الصمود أمام الفتح الفاطمي الذي استهدف بلادهم في وثبتهم الأولى. إن عاصمة بلادهم كانت «القيروان» وأحياناً «رقادة» وسلطتهم كانت تمتد حتى «قسطنطينة» ومن الثابت أن الثورات الداخلية من قبل العشائر في ممتلكاتهم لم تكن لتهدأ، وهكذا الاغتيالات، والاضطرابات، والمؤامرات.

أمَّا «بنو رستم» فكانت عاصمتهم «تاهرت» وكانوا يحكمون المناطق الصحراوية «الجزائر اليوم» وكانت علاقاتهم وديَّة مع جيرانهم «الزناتيين»، ومن الغريب أن هذه المملكة كانت سريعة الزوال، لم تقوَ

على الصمود، ولو يوماً واحداً بوجه الفاطميين.. وهناك مناطق أخرى كانت تحكمها إمارات صغيرة مستقلة الواحدة عن الأخرى، «فبنو مدرار» في «سجلماسة» وما يتبعها، وهناك على شاطىء المحيط الأطلسي إمارة «برغواطة» وإمارة «نكور».. أمّا بقية البلدان الأخرى، فكانت خاضعة لسلطان «الأدارسة» الذين يرجع نسبهم إلى ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وإدريس هذا دخل المغرب في سنة ١٧٠ هـ. في إمارة يزيد بن حاتم في أفريقيا، وإمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل في قرطبة، وفي فترة ظهور «بني مدرار» في «سجلماسة» كان نزوله «بوادي الزيتون» بمدينة «البلد» وقيل في ضواحي «طنجة».. أما سبب هجرته إلى شمالي افريقيا فتتلخص بأن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أقام في المدينة المنورة في أيام موسى الهادي العباسي، ثم خرج منها، ومعه جماعة من أهله وبني عمه ومنهم ادريس، فبعث الهادي إليهم «محمد بن سليمان بن علي» فحاربهم «بفخ» وقتل الحسين. أمّا ادريس فقد تمكن من الفرار والتوجه إلى مصر، وكان على بريدها رجل يسمّى واضح مولى صالح بن منصور فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فوقع بمدينة «وليلة» من أرض طنجة وهناك أعلن عن نفسه ونسبه. فاستجاب له بعض قبائل البربر، ويذكر التاريخ أنه توفي سنة ١٧٥ هـ. فخلفه مولاه «راشد» على البربر، ومن الجدير بالذكر أن ادريس ترك جارية بربرية اسمها «كنزى» فولدت له غلاماً سمي باسم أبيه، وعرف بادريس الثاني سنة ١٨٧ هـ. وكان له من العمر أحد عشر عاماً. وبعد أن استتب له الأمر أسس مدينة «فاس» وكانت عدوة القرويين غياضاً في أطرافها بيوت من «زواغة»، ثم أنه غزا «انفزة» ووصل إلى تلمسان ثم رجع ليواصل الزحف حتى «وادي نفيس» وبلاد «المصامدة»، وأخيراً مات مسموماً في سنة ٢١٣ هـ. بعد وفاته تسلّم ابنه محمد، ففرق البلدان الخاضعة له على اخوته بناءً على أوامر جدته «كنزى» فأعطى «طنجة» وما يليها للقائم، وأعطى «صنهاجة» لعمر، و«هوارة» و«تامليت» لداؤود كما أعطى عيسى ويحيى وعبد الله بلاداً أخرى. ومن الأمور البارزة في تلك الفترة أن عيسى خرج عن طاعته وثار عليه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم يأمره بمحاربته، فامتنع وعاد فكتب إلى عمر فأجابه، وسارع إلى نصرته.

توفي عمر في احدى بلدان «صنهاجة»، ونقل إلى «فاس» وهو جد «الحموديين»، وبعد محمد تولَّى يحيى، وهذا من جهته ولَّى أعمامه وأخواله إدارة بعض البلدان التابعة له، فأعطى حسين الجنوب من مدينة «فاس» إلى «أغمات»، وولَّى داؤود المشرق من مدينة «فاس» و «مكناس» و «هوارة». وولَّى القاسم غربي «فاس» وهي «ولهاتة» و «كتامة». ومن المشهور عن يحيى أنه كان منهمكاً بالشراب، ومحباً للنساء. وبعد يحيى توفي علي بن عمر بن ادريس وهو صهره وابن عمه، وفي عهده قام «عبد الرزاق» الخارجي من مدينة «مديونة» وأعلن الخروج عليه، ثم قاد جيشـاً، واستولى على «فاس» وبعدها ملك «عدوة الأندلسيين».. وهنا اجتمع الأدارسة وقدموا «يحيى بن القـاسم بن ادريس» عليهم وكان يلقب «المقـدام» فملك «عـدوة الأندلسيين»، وأخرج منها «عبد الرزاق» ولكنه قتل أخيـراً سنة ٢٩٢ هـ على يد ربيع بن سليمان وبعد موته عاد الأمر إلى بني «عمر بن ادريس» وظلَّ نفوذهم قائماً. وسلطتهم موجودة إلى حين قدوم القائد الفاطمي، مصالة بن حبوس في سنة ٣٠٧ هـ. وفي تلك الرحلة وطد مصالة صداقته مع موسى بن أبي العافية وسلمَّه جميع ما استولى عليه من بلاد المغرب الأقصى.

بعد هذا لم يتوقف يحيى بن ادريس صاحب «فاس» عن الإغارة، فلمَّا عاد «مصالة» احتل «فاس» وأقام فيها مدة خمس سنوات، وكان موسى بن أبي العافية يسعى إلى إلحاق الأذى بيحيى ويتهمه امام «مصَّالة» بالخروج على الفاطميين؛ والاتصال سراً بالأمويين، وهذا ما جعل مصَّالة يقبض عليه ويبعده من «فاس». وبعد ذهابه تولَّى موسى شؤون البلدان التي كان يحكمها. وفي سنة ٣١٠ هـ. جاء حسن بن محمد الحجَّام، فأوقع بموسى في إحدى المعارك وقتل ولده «منهل» وملك «فاس» وما يليها لمدة سنتين، ولكن حامد بن حمدان الهمذاني اللوزي عارض واستولى على المدينة، ثم قبض على حسن، وأخبر موسى بذلك، فخفَّ إليه. ودخل فاس ثم قتل حسناً انتقاماً لولده «منهل». وبدلاً من أن يكافىء حامداً على فعلته هدده بالقتل، فاضطره إلى الفرار والالتحاق بالمهدية، كما أنه رحَّل جميع أفراد أسـرة الأدارسة ووضعهم في مدينة «حجر النسر»، وهو حصن منيع بناه إبراهيم بن القاسم بن ادريس. وفي سنة ٣١٧ هـ استخلف موسى

ابنه «مديَن» على «فاس» فظل فيها حتى حين قدوم القائد الفاطمي حميد بن يصال الذي قتل ابن موسى، وولّى مكانه على فاس، حامد بن حمدان. وممّا يجب أن نذكره أن موسى بن أبي العافية قد خطب للخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر بعد أن خلع طاعة الفاطميين في كل البلدان التي كانت تخضع له في المغرب الأوسط، والأقصى، ولكن تلك الخطب لم تلبث أن انقطعت بعد ذهابه.

بين الفاطميين والأمويين

العداء المستشري بين الفاطميين والأمويين، قديم وأسبابه باتت معروفة ولا فائدة ترجى من سردها هنا، ولكن العداء هذا، سرعان ما انتقل من المشرق إلى المغرب بشقّيه الشمالي، أي الأندلس والجنوبي أي بلاد المغرب. وعلى الرغم من نظرة الافارقة، سكان البلاد الأصليين، إلى حكّام الفريقين، على أنهم غزاة قدموا بلادهم فاتحين ومستعمرين، فإن التاريخ يروي كيف أخذ ذلك العداء يتطور ويكتسب أبعاداً فائقة الخطورة، فالحكم الأموي في الأندلس، لم ينظر بعين الرضا إلى الدولة الفاطمية التي قامت على حدوده، تقاسمه النفوذ وتسدّ عليه الآفاق، وهنا اكتسب الكره التاريخي القديم أسباباً جديدة وصار للتراث القديم ذرائع جديدة تبرّرها.

لقد خشي الأمويون من خطر الدولة الفاطمية وامتداد رقعتها، فاستنفروا جيوشهم، واستخدموا عيونهم لا بل خصصوا أجهزة عديدة لمراقبة كل ما يصدر من حركات عدائية من قبل الفاطميين، فضلاً عن اتخاذهم زمام المبادرة لتمويل الحركات الثورية، والانتفاضات الداخلية التي تنبثق ضد الفاطميين، وذلك بالأموال، والسلاح، والعتاد، وأحياناً بالرجال، ومع كل هذا فإن الحيطة والخوف من هجوم مباغت كان الهاجس الأول.

كانت الدولة الأموية، وخاصة في عهد. عبد الرحمن الناصر غنيّة بمواردها وأموالها، ولكنها لم تكن غنيّة بالهدؤ، والأمن، والاستقرار. فالمؤآمرات كانت تحاك في وضح النهار، والروم في الشمال يعملون على توسيع دائرة أملاكهم، والنفاذ إلى الجنوب خاصة بعد أن تمت لهم السيطرة على «برشلونة»، وظهرت الإمارات المسيحية في الأقاليم الشمالية بمظهر المعارض العنيف، والمطالب بإلحاح بالإستقلال

والحكم الذاتي، ولكن كل هذا كان بالنسبة للأمويين حركات عادية لا خطر منها على الدولة، وإنما الخطر على الدولة كان يكمن في نوايا الفاطميين المتطلعين إلى الماضي وإلى التارات القديمة.

ومن الأمور التي يجب أن ننظر إليها من الزاوية التاريخية إن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لم يحاول ولا طمح إلى فرض سيادته على المغرب، أو أي جزء من أجزائه إلى دولته الأندلسية، بل كان جلّ ما فعله إنه استولى على سبتة وطنجة رامياً من وراء ذلك إلى اتخاذهما نقطة دفاعية أو درعاً يقيه من أي هجوم فاطمي محتمل على الأندلس. وكان الناصر يقول للمقربين منه أنه لو افترض بأن عبد الله المهدي لن يقيم في هذا الجنوب فمن يكفل سكوت ولي عهده «القائم بأمر الله» فيما بعد لقد كان الخليفة الأموي في قرطبة يتبع بالنسبة لأفريقيا الشمالية نفس السياسة التي كان يتبعها بالنسبة للملوك المسيحيين، فلا اعتداء، ولا ضم أراض جديدة لدولته، بل الوقوف موقف الدفاع عن النفس، والاكتفاء بالوضع السائد المتمثل بالدفاع عن كيان دولته، وحدودها الطبيعية، واجتذاب الناس عن طريق اللين، والتعايش السلمي، مع مبدأ إشغال الفاطميين بقضايا داخلية، وتمويل الحركات التي تقوم ضدهم، ممّا يعوقهم عن التفكير بغزو الأندلس، فخوفه من الفاطميين كان هاجسه الأول، بل كان يقض مضجعه كلما خلا إلى نفسه، وتذكر الانتصارات الفاطمية في شمالي أفريقيا، وكل هذا كان يدعوه إلى التساؤل: ماذا كان عليّ أن أفعل لو أن عبد الله المهدي بدلاً من أن يرسل ولي عهده القائم بأمر الله إلى مصر لاحتلالها، أرسله إلى الأندلس للغرض نفسه ولا سيما وأنه صار يمتلك أسطولاً بحرياً لا يقاوم فضلاً عن جيوشه البرية الجرارة؟ فضلاً عن تمويل ثورة عمر بن حفصون الذي أعلن العصيان في قلعة «بشتر» عندما عرض عليه خدماته، ونادى باسمه في مقاطعته، وكان يردد على أصدقائه ما معناه: أن الأندلس لم تكن يوماً من الأيام أقوى من دولة بني الأغلب، أو بني رستم، أو الادارسة، وهذه الدول سقطت بسرعة أمام الضربات الفاطمية الأولى.

إن سكوت المهدي عن الأندلس، ووقوفه منها هذا الموقف مدعاة للتساؤل ولعله من الأسرار التي لم يكشف عنها التاريخ العربي،

ولعل المهدي، ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين اتخذوا لأنفسهم مبدأ يقوم على إقامة دولة تبدأ حدودها من شواطىء المحيط الأطلسي، وتنتهي في أطراف الخليج العربي... فخطتهم كانت ترمي إلى منافسة الأمبراطورية العباسية بضم مصر وبلاد الشام، وجعل مكة المكرمة قاعدة للخلافة الأسلامية، كما كانت في عهد الرسول الكريم محمد «ص». أمّا الأندلس فيأتي حسابها في المرحلة الأخيرة.

وهناك احتمال آخر، وهو أن وصول الجيوش إلى الشرق كان أسهل، وأقل كلفة، حيث أن الأوضاع العامة في هذه البلدان كانت موشكة على السقوط من دون كبير عناء، والمهدي والخلفاء الفاطميون الذين جاؤوا من بعده كانوا يحنون إلى الشرق حيث ولدوا وترعرعوا... فهناك مصر، ودمشق، وبغداد أخيراً. وقد يكون بناء «المهدية» من قبل المهدي، وجعلها على ساحل البحر من الأمور التي درسها ونفذها بعناية. إذ عن طريقها البحري عبر صقلية يستطيع أن يصل إلى القسطنطينية من جهة. ومن جهة ثانية عبر مصر ودمشق بحيث تصبح بغداد تحت الحصار، ولكن عبد الله المهدي مات قبل أن يحقق هذا الحلم، وكانت الثورات الداخلية تندلع فتصده عن احتلال مصر، فالشام التي كانت هدف الفاطميين منذ وصولهم إلى شمالي أفريقيا، ولكن لا القائم بأمر الله ولا خليفته «المنصور بالله» وسعهما بلوغ تلك الغاية، فلقد حالت ثورة الخوارج بينهما وبين ما تمنّياه، ولكن «المعزّ لدين الله» الخليفة الفاطمي الرابع هو الذي حقق المرام فاحتل البلاد المصرية والشامية وصار قاب قوسين أو أدنى من العراق تحت الخلافة العباسية.

الاسماعيلية في شمال أفريقيا

ضرب أئمة الإسماعيلية ودعاتهم المستورون الذين عاشوا في مدينة سلمية الرقم القياسي في استنباط أساليب الدعاية لنظامهم، ونشر التعاليم والمبادىء... وهذا هو تاريخهم يطفح بالعدد الوافر من الانتصارات التي حققوها بسرعة مذهلة. ويحدثنا أيضـاً بأنهم منذ أن حطوا الرحال في سلمية، لم يدخروا وسعاً، ولم يتقاعسوا عن تنفيذ المهمة الأساسية بإرسال الدعاة المثقفين إلى المناطق البعيدة للدعاية والتأسيس ، وقد ذكرنا أن أولى الطلائع كانت سنة ١٤٥ هـ. ففي ذلك العام أرسل الحلواني وأبو سفيان إلى شمالي أفريقيا، وبعدهما منصور اليمن، وابن الفضل إلى اليمن خاصة.

ويشاء حسن الطالع أن يتعرَّف الإمام الحسين بن أحمد (الأهوازي) وهو في موسم الحج إلى الحسن بن أحمد بن زكريا الذي عرف بتاريخ اليمن فيما بعد بأبي عبد الله الشيعي أو «الصنعاني» أو «الصوفي» أو «المعلم». وأبو عبد الله هذا يمني الأصل، كان يعيش في بغداد، ويتولى وظيفة أعمال الحسبة، فأنس إليه الأهوازي، وتوسم فيه خيـراً، بل وجد فيه ضالته المنشودة، وبعد سلسلة من اللقاءات أقنعه بصواب فكرته، وبصحة مبادئه، وعرض عليه فكرة الذهاب إلى اليمن، والالتحاق بالداعي منصور اليمن للتمرن على يديه، فقبل أبو عبد الله المهمة بعد اقتناعه بصوابها، ثم أنه التحق به، ولازمه وعاونه، وتعلَّم منه كل ما يتعلق بمهمته وعمله، وبعد مضي فترة قصيرة تمكن من الحصول على ثقته وتقديره، وأصبح موضع سره، ومن المقربين إليه، ولمَّا كان منصور يعلم بأن منصب رئاسة الدعوة في المغرب أصبح شاغراً بعد وفاة الحلواني وأبي سفيان، فإنه عهد إليه بشؤون الدعوة في المغرب، وزوَّده بالتوصيات، والمعلومات، والأموال، وكل ما يحتاج إليه. فغادر اليمن إلى الديار الحجازية ـ وفق خطة مرسومة، وأقام فيها فترة، وهو يخفي مهمته إلى أن حان وقت وفود الحجاج إلى المدينة، ففي تلك الفترة بذل نشاطه، ونفَّذ خطته. فاتصل بحجاج قبيلة كتامة المغربية، وتحدث إليهم طويلاً، فأعجبهم علمه، وتفكيره، وبعد نظره، فاظهروا له رغبتهم باصطحابه إلى كتامة لقضاء

مدة بينهم، يتولى في خلالها تعليمهم، وتزويدهم بالعلوم والمعارف، وقواعد الدين.. فأعلن لهم عن تردده مظهراً انشغاله بأمور أخرى، ولكنه نزل أخيراً عند رغبتهم، ووافق على طلبهم، وكان تردده مناورة أخفى وراءها أغراضه ومراميه، فازداد تعلقهم به يوماً بعد يوم، واجتمعوا على محبته، والانضواء تحت إرادته، وخاصة بعدما رأوا فيه من الورع، والتقشف، والصدق، والرجولة، ما لم يروه لدى غيره من الرجال. وتذكر المصادر التاريخية إنه سار معهم عن طريق مصر، ولكنه هنا أظهر لهم رغبته بالعودة إلى وطنه، وإلغاء الرحلة، وعندما تقدم لوداعهم ظهرت عليه علائم الحزن والأسى، فشق عليهم فراقه، ولم يتمالكوا أنفسهم عن ذرف الدموع، وسألوه قائلين:

«ففيم كان قدومك معنا إلى مصر إذن؟ أوما كان بوسعك سلوك طريق غير هذه؟» فقال لهم «إنما انا رجل يحتاج إلى علم يستزيد منه، وهذا ما حملني على ترككم غير كاره» فأعادوا الكرّة عليه، والحّوا، وسألوه الوفاء بالوعد، وما زالوا به حتى اجابهم إلى طلبهم، فاستأنفوا السير حتى بلغوا كتامة.

وصل أبو عبد الله إلى منطقة «كتامة» سنة ٢٨٨ هـ. فتمكن في فترة قصيرة من الإحاطة بكل شيء من أحوال هذه القبيلة الكبيرة، والوقوف على رغباتها وآمالها، فاستغل هذه الإدراكات وجعلها منطلقاً للنفاذ إلى أهدافه وآماله، فلقد عرف منذ الأيام الأولى اشتياقهم إلى حمل السلاح، وشن الحروب، وافتتاح البلدان ومناهضة الملوك والحكام المستبدين الذين يعكرون صفو حياتهم، ويسيئون معاملتهم، ويشيعون في أرجاء بلادهم الظلم والفساد.

تذكر المصادر التاريخية الإسماعيلية أن أبا عبد الله بعد أن استقرَّ في بلاد كتامة سأل ذات يوم أصحابه: أين «فج الأخيار؟» فدلوه عليها. فقصدها، وهي قرية صغيرة تقع في سفح جبل «ايكجان» القريب من «قسطنطينة»، وهناك، وعلى مسمع من الرجال الذين رافقوه.. قال لهم:

هذه «فج الأخيار» وما تسمَّت إلاَّ بكم، فلقد جاء في الأخبار أن للمهدي المنتظر هجرة يجلو بها عن الأوطان، وينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان.. قوم اسمهم مشتق من «الكتمان» ولخروجهم من هذا الفج سميت «فج الأخيار»...

فتندرت بأقواله القبائل، وأتته البربر من كل مكان، وعظم أمره فيهم، وهرعت القبائل إليه طائعة مستسلمة ملبية رغباته، عارضة خدماتها، راجية إنزاله في ضيافتها. ومن الجدير بالذكر... إنه اتخذ من «فج الأخيار» داراً له، ومنطلقاً لتوجيه دعاته، متخذاً من كل هذا ذريعة للاجتماع في كل عام بالحجاج المسلمين الذاهبين، والعائدين من الأندلس، وشمالي المغرب الأقصى، وبالرغم من تحقيق هذه الانتصارات الدعائية، وكسب التأييد المطلق من القبائل، فإن طريقه كان مليئاً بالعثرات، محفوفاً بالمصاعب.. فهناك الفقهاء والعلماء، ورجال الدين الذين نازعهم الحسد، وتسرَّب إليهم الخوف على مراكزهم ووظائفهم، ممَّا جعلهم يزرعون المصاعب في طريقه، ويضعون العقبات، ويختلقون الاشاعات وكانوا قد علموا بما يتمتع به من حب وتقدير، وولاء مختلف طبقات الشعب، ولكن أبا عبد الله تغلَّب عليهم بما أوتيه من علم وفصاحة، وبيان وقدرة على مجابهة الأحداث، وكل هذا شجع الداخلين في طاعته على مضاعفة الولاء والطاعة، وهكذا توافدت الناس على تأييده، والأخذ بناصره، فقوي أمره، واستقام له البربر خاصة، وعامة «كتامة».

إن الأعوام الثمانية التي قضاها أبو عبد الله من سنة ٢٨٨ هـ إلى سنة ٢٩٦ هـ. كانت أعوام جهاد ونضال، سلك في خلالها سياسة الحزم، والحكمة، والقوة، إلى جانب اللطف والليونة. فبنى واكتسب المؤيدين والانصار، وأصبح أخيراً الرجل الأول في منطقة البربر، والبربر شعب عرف بحبه للقتال وللغزوات، واقتحام المخاطر، وركوب متن الأهوال، والصعاب في سبيل الحصول على العيش الكريم، والحياة الأفضل، وكانوا بالإضافة إلى كل ذلك شديدي الخشونة لا يرحمون من يتصدى لقتالهم، أو النيل منهم، فحب السيطرة وفتح البلدان، وتوسيع رقعة أرضهم، وبسط نفوذهم، ناهيك بنقمتهم على الملوك والأمراء، وعلى غطرستهم، وانحرافهم عن نهج العدالة.. كل هذا عرفه أبو عبد الله ووعاه، فضرب على هذا الوتر، وأثار حماستهم وحميتهم بكلماته، وعباراته، وبيانه مذكراً بأوضاعهم، وما هم عليه من الفقر والضيق وشظف العيش، والحرمان في حين يتمتع الحكام، ومن يتبعهم بخيرات الأرض، ويعيشون حياة البذخ، والترف، وساعد في هذه النقمة أوضاع بلادهم العامة وموقعها الجغرافي في جبال

عسيرة جرداء، وبقاع ـ رملية، وتلال متناثرة خالية مجدبة لا شجر فيها، ولا ماء، ولا حياة، فهذه الأرض لا يمكن أن تمدهم بما يحتاجون إليه من أمور الدنيا، وبما يكفل لهم تجاوز المحن القاسية، مضافاً إلى ذلك عدم صلاحها لأن تكون صلة الوصل بغيرها من الأمم، أو مكاناً لاستقبال المدنيات، والحضارات، والثقافة، اللهمّ إذا استثنينا ذلك السهل الضيق الذي يتاخم البحر الأبيض المتوسط، الذي كان أكثر سكانه من عروق مختلفة فمنهم: القرطاجيون، والاغريق والروم والعرب. وفي الواقع لم يكن خروجهم على الولاة، وقيامهم بالثورات، ومعارضتهم للأوضاع، وتأهبهم للحروب، وللغزوات، ناتجاً عن اعتقاد ديني، أو عن نزعة عنصرية، بل كان سببه الظلم، والتعسف، والفساد، والاضطهاد، ولجم الحريات، وفرض الضرائب الفادحة المنهكة والاستئثار بشؤونهم، ومقدراتهم، وحياتهم، ويضاف إلى ذلك أنهم لم يجدوا من يقدّر أوضاعهم، أو يعمل على إنصافهم، وانتشالهم ممّا يعانونه، فكل هذا كما يظهر ساعد أبا عبد الله على النجاح في مهمته، ومهّد له السبيل للوصول إلى أهدافه، فجعلهم يتسابقون إلى السير وراءه، واللجوء إلى كنفه معتبرين أن الله أرسله إليهم كمنقذ، وقائد يقودهم في طريق الحياة المعبد الصالح، وينتشلهم من براثن الفقر والحرمان، ويبعد عنهم ظلم الأمراء والحكام، ويفتح أمامهم الآفاق الواسعة، ولهذا عاهدوه، ومحضوه ثقتهم، وتجندوا ـ تحت قيادته، وانطلقوا أخيراً إلى الفتح، وإخضاع المدن والقرى إلى دولتهم المرتقبة.

ففي سنة ٢٩١ هـ، بدأ أبو عبد الله أعماله الحربية، فانطلق على رأس جيش كبير من الكتاميين كان قد أعده، وجهزه بنفسه ميمماً شطر بلاد الأغالبة أصحاب المملكة الواسعة، فوقعت في يده عدة قرى ومدن، وساعده في ذلك موت إبراهيم بن الأغلب سنة ٢٩١هـ، ثم موت ابنه «أبو العبّاس» فيما بعد، وتولية ابنه الثاني زيادة الله، وهذا الأخير لم يكن يملك شيئاً من صفات رجل الحكم والقيادة، بل كان مستهتراً لا يفكر إلا في اللهو والترف والشراب.

ومهما يكن من أمر... فإن إبراهيم بن الأغلب شعر قبل موته بهذه الثورة النفسيَّة العارمة التي تكاد تندلع في أطراف بلاده، وحسب أنها لا بد ممتدة بسرعة لتحرق بلهيبها بلده ومملكته، ففكر بالعلاج،

وقرر في النهاية بأنه لا بد من اتخاذ الخطوات الجريئة، وقد لا يتم له تحقيق أي انتصار إلا بالقضاء على رأس الحركة المدبّر «أبو عبد الله الشيعي»، فبذل جهوداً في بادىء الأمر في سبيل اجتذابه، واستقطابه دون قتال، عارضاً عليه المناصب، والمراتب باذلاً شتى المغريات، ولكن أبا عبد الله لم يكترث بعروضه، وردَّ عليه بكتاب يدل على الجرأة، والقوة، ممَّا دعاه أخيراً إلى إرسال حملة كبرى لمحاربته، فصمد أبو عبد الله بوجه الجيوش، وقاومها وفي النهاية أوقع بها، وهزمها شر هزيمة. فعاد إبراهيم بعد مضي عدة شهور، وجهَّز حملة ثانية، ولكنها لم تلبث أن منيت بالهزيمة كسابقتها.

بعد هذه الانتصارات الحاسمة التي وقعت في نهاية سنة ٢٩٥ هـ. فكَّر أبو عبدالله أن عليه بعد ذلك إزالة دولة الأغالبة كلياً، واحلال الرقعة الواسعة التي تحكمها في المغرب الأوسط. وتعتبر هذه الخطوة المرحلة الأولى بالنسبة لخطته، وممَّا تجدر الإشارة إليه أنه نفَّذ برنامجه على مراحل، وبعد سلسلة من المعارك والحروب. ففي سنة ٢٩٦ هـ. دخل مدينة «رقَّادة» جنوبي القيروان، واستقر في دار الإمارة، فجمع كل ما كان فيها للإغالبة من مال وسلاح وعتاد. ووزعه على الجند، ثم أمر الخطباء وأئمة المسجد أن يعلنوا الخطبة باسم الخليفة الفاطمي الإمام المهدي عوضاً عن اسم الخليفة العباسي، كما أمر بسك العملات باسم المهدي. ومن رقَّادة واصل الزحف إلى القيروان. وكان فيها زيادة الله بن الأغلب. فلمَّا تحقق زيادة الله بعدم قدرته على التصدي لجيش أبي عبد الله شرع بإعداد عدة الهرب، فحمل ما خفَّ وزنه، وغلا ثمنه، ثم ركب فرسه، وتقلَّد سيفه، ووقف يتأمل الناس وقد لاذت بالفرار، وهنا أخذت جارية من جواريه عوداً، ووضعته على صدرها، وغنَّته لتحركه على حملها معه، فقالت:

لم أنسَ يوم الوداع موقفها وجفنها في دموعها غرق
وقولها والركاب سائرة تتركنا سيدي وتنطلقُ
إستودع الله ظبية جزعت للبين والبين فيه لي حرقُ

فدمعت عيناه، وشغله الموقف الحرج عن أخذها معه، وخرج من رقَّادة مع رجاله وعبيده، ولحق بمدينة طرابلس وهو يبكي ملكاً أضاعه، ولم يحسن الحفاظ عليه.

وبعد أن تمّ لأبي عبد الله احتلال بلاد دولة الأغالبة في المغرب الأوسط «تونس»، هذه الدولة التي دام حكمهم لها من سنة ١٨٤ هـ حتى سنة ٢٩٦ هـ، أقام عليها أخاه «أبو العبَّاس»، وخرج إلى المغرب الأقصى وكانت جميع المدن الواقعة بين سجلماسة بالمغرب الأقصى والمغرب الأوسط قد خضعت له، وأظهرت له تأييدها وطاعتها، أو بعبارة أوضح اهتزَّ له المغرب بأجزائه كافة، وخافته قبيلة «زناتة»، كما دانت له القبائل التي أعلنت العصيان في بادىء الأمر، فأتته رسلها للدخول في طاعته، والسير في ركابه، وهذا ما جعله يفكّر من جديد في القضاء على دولة بني مدرار، وبذلك يكون قد حقق القسم الأكبر من أحلامه بضم المغرب الأقصى إليه، مضافاً إلى كل ذلك أنه تطلَّع أيضاً إلى «تاهرت» عاصمة دولة بني رستم. وكان هذا قد جاء في المرحلة الثانية؛ فأمر جيوشه بالزحف، وعدم التوقف. وكان الفضل في هذا الزحف السريع والانتصار الحاسم يعود إلى «الدعاة» الذين كانوا يسبقون الجيش إلى الأقاليم المرشحة للغزو للدعوة والتمهيد ولتحريض الشعب على الحكام المستهترين، والجنود على القادة الذين عكفوا على اللهو والشراب واشباع رغباتهم، تاركين الأمور على غاربها دون أن يعلموا بما يبيت لهم، وما يجري وراء ظهورهم من مؤامرات وزرائهم، وكان أكثرهم يتسابقون على الاتصال بأبي عبد الله، وإعلان الولاء والاستعداد لخدمته إنقاذاً للنفس وتحسباً للمستقبل.

أصبح أبو عبد الله بين عشية وضحاها صاحب السلطة المطلقة في المغرب الأقصى والأوسط، فبعد أن تمكن من إزالة دولة الأغالبة، وبني مدرار، وبني رستم... رسم لنفسه سياسة القائد الحكيم الذي أرسله الله لإقرار مبادىء العدل، وتوطيد دعائمه بين الناس عن طريق القوة أحياناً واللين غالباً. فأظهر حبه للشعب، وعطفه على مطالبه، وخاصة طبقة الفقراء والمحرومين، كما منع الظلم، والإرهاب، وأعلن عن تدابير عاجلة لتوفير الامن، والرخاء، والمساواة بين جميع طبقات الشعب، ويتجلى بعد نظره، وعدالته في حديثه مع أخيه أبي العباس، يوم طلب منه الإذن باستعمال القوة والإكراه مع الناس الذين يأبون الدخول في العقيدة الإسماعيلية، وذلك في المقاطعة التي يحكمها. فزجره قائلاً: -

احذرك من ذلك، فدولتنا دولة حجة وبيان، وحرية رأي، وليست دولة قهر، واستطالة، وعنف، وإكراه. فاترك الناس على مذاهبهم، وإياك أن تنفذ أي عمل من هذا بالقوة.

وعندما استولى على مدينة «طبنة» سنة ٢٩٣ هـ. أتاه والي المدينة مع بعض عمال الجباية، فقدموا إليه الأموال التي جمعوها من الأهلين... وعندئذٍ قال للوالي:

«من اين جمعت هذا المال؟»، فأجاب: «من العشور»، فقال أبو عبد الله: إنما العشور حبوب، وهذا عين»، ثم قال لقوم من ثقاة «طبنة»: «اذهبوا بهذا المال، فليرد على كل رجل ما أخذ منه، واعلموا أننا أمناء على ما يخرج الله من ارضكم، وسنة العشور معروفة في أخذه وتفرقته على ما ينصه الله في كتابه العزيز»، ثم قال لآخر: «من أين هذا المال الذي بيدك»؟، فقال: «جبيته من اليهود، والنصارى (جزية) عن حول مضى»، فقال له: «وكيف أخذته عيناً، وإنما رسول الله (ص) كان يأخذ من الملي ثمانية وأربعين درهماً، ومن المتوسط اربعة وعشرين، ومن الفقير إثني عشر» فأجابه: «اخذت العين عن الدراهم بالمصرف الذي كان يأخذه عمر رحمه الله»، فقال أبو عبد الله: «هذا مال طيب». ثم أمر أحد أتباعه بأن يفرقه على أصحابه، وقال لمن اتاه بمال الخراج: «هذا مال لا خير فيه. ولا قنى، ولا خراج على المسلمين في اموالهم».

ثم أمر ثقاة «طبنة» برده على أهله، وقبض مال الصدقة من الإبل والبقر، والغنم.. ثم بيعت وجمعت أثمانها، فلما سمع أهل طبنة ما قاله، تقدموا منه، وأعلنوا عن ولائهم، وباركوه، وانتشر خبر أقواله في نواحي المغرب ، فتاقت النفوس إليه، وتقربت القلوب منه، وكاتبه الناس، ورغبوا في الدخول بدعوته.

يعتبر تاريخ «أبو عبد الله الشيعي» المدخل إلى تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، فأبو عبد الله هو بحقٍ مرسي قواعدها، وموجد عظمتها، ومقيم بنيانها، وإليه يرجع أمر تدبير أمورها في بداية عهدها، وقيادة جيوشها، وتعليم فتيانها وشبابها كيف يحملون السيوف للذود عن حريتهم وكرامتهم، وكيف يحطمون العروش والتيجان.

امتاز أبو عبد الله الشيعي ببراعته في التحدث والخطابة، وذكر عنه امتلاكه ناصية البيان والبلاغة في إيراد الفكرة، والإفصاح عنها، وتأديتها ببيان ساحر، وأسلوب إقناع يؤثر في السامع، ويدخل في

هذا النطاق طول باعه في علم المنطق، والفلسفة، وأصول التشريع، والفقه الإسلامي، والحديث، وكل هذا جعله. يفرض احترامه، ويقربه من قلوب الناس الذين تأثروا بأفكاره، وطربوا لبيانه، ولم يستطيعوا بعد ذلك التخلف عن الاستجابة له، والسير في ركابه.

وامتاز أيضاً بطيبة قلبه، وورعه، وكرمه، وتربيته، ووفائـه، وحبه للطبقة الفقيرة من الشعب، وللمحاربين الذين يسيرون تحت أمرته. فكان حريصاً أشد الحرص على رفع شأنهم، وإعطائهم حقوقهم وإنصافهم، وتوفير الحياة الأفضل لهم. أما جـرأته، واستهـانته بالخطوب، ولذته باقتحام الصعاب، وبعد نظره باختيـار الأعوان والرفقاء.. فهذه صفات لازمته منذ الصغر، وكانت خير معين له على الوصول إلى الهدف.

ظهر أمره كما ذكرنا عندما أطاعه البربر أو ـ وهو الأصح ـ عندما دخلت «كتامة» في طاعته، واستجابت لأوامره ودعوته. فاتخذ منها أداة لتحقيق ما يصبو إليه، وجند رجالها، وجعلهم نواة لجيشه الكبير الذي اندفع يحطم الإمارات الصغيرة، والزعامات القبلية القديمة، والتيجان البراقة التي كانت تسطع في تلك الأيام على رؤوس رجال أعمتهم الجهالة، والغباء، والفوضى، والتخلف، فلم يراعوا للشعب حرمة، ولا عرفوا للكرامة قيمة.

اندفع أبو عبد الله على رأس جيشه الكبير الذي سهر الليالي الطوال في اعداده وتنظيمه وتدريبه متقدماً، فاتحاً، وعابراً من مدينة إلى أخرى، واضعاً نصب عينيه دولة «بني الأغلب» كمرحلة أولى، ولم يتمكن زيادة الله الأغلب الثالث من إيقاف الزحف الهادر الذي هبط على حين غرة من جبال الأوراس وقد أخذت تتحدث به الركبان وتقول: إن المغرب لم يشاهد في كل عصوره ما يماثلـه كثافـة، واعتداداً، وتصميماً على القتال. وكانت معركة «كينونة» وهي أول معركة يخوضها، ومنها تصدى له إبراهيم بن حبشي... ومن الجدير بالذكر أنها دامت من طلوع الفجر، ولم تنته حتى أسدل الليل ستاره، فعندئذٍ فرَّ إبراهيم وتبعه كل من كتبت له النجاة من جيشه. أما الجيش الكتامي المنتصر فشغل بالأسلاب، والسلاح، والأموال، والغنائم، ومن الطريف أن جيش أبي عبد الله ارتدى في اليوم التالي

الثياب الحريرية، وتقلّد أفراده السيوف المحلاة بالذهب وركبوا على خيول مفضضة السروج، مذّهبة اللجم، لأول مرة في حياتهم.

في سنة ٢٩٤ هـ عاد إبراهيم بن حبشي إلى الظهور ثانية على مسرح الأحداث، وذلك بعد أن أتم تجهيز جيشه الجديد، فالتقى بأبي عبد الله على مقربة من مدينة «طبنة» ودارت، رحى المعارك ، وكانت في هذه المرة أكثر عنفاً وضراوة ولكن إبراهيم أدرك، منذ الجولة الأولى، بأن لا قدرة لجيشه على الثبات طويلاً، مما جعله في نهاية المطاف ينزع إلى الفرار، تاركاً جيشه فلولاً وشراذم شاردة في البراري والقفار، وهكذا وضع نهاية لحياته، وانطوت صفحته إلى الأبد.

في سنة ٢٩٦ هـ. وصل أبو عبد الله إلى «قسطيلية» وتمكن من إلحاق الهزيمة بأبي مسلم بن منصور، وبشبيب بن أبي الصارم. وكلاهما وقف بوجهه، وفي هذا العام زحف إلى «الأربس» ونازل إبراهيم بن الأغلب فقاتله، وانتصر عليه، وأفسح له المجال للفرار إلى القيروان. بعد أن أبيدت جيوشه إبادة تامة، وفي القيروان. دعا الناس إلى الأخذ بيده، ونصرته، ولكن الأهلين رفضوا الاستجابة له، ففرَّ ولحق، بزيادة الله. أما أبو عبد الله فسار إلى «باغاية» واحتلها، ومنها توجه إلى القيروان ودخلها دون قتال، وهكذا «رقّادة» وممّا تجدر الإشارة إليه أن جيشه في تلك المرحلة كان مؤلفاً من سبعة عساكر، ويقدر بثلاثمائة ألف فارس وراجل.

في تلك الأيام التاريخية، وفي غمرة الانتصارات الحاسمة، بلغته الأخبار عن وصول عبد الله المهدي إلى «سجلماسة»، ووقوعه في قبضة اليسع بن مدرار فلم يرهبه النبأ أو يثر حماسه، بل تابع زحفه ببرودة أعصاب، وعدم اهتمام حتى وصل سجلماسة، وكان ذلك، يوم السبت ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ. وفي صباح اليوم الثاني دخل المدينة دون قتال، بعد فرار صاحبها «اليسع بن مدرار» فجاء إلى المكان الذي يقيم فيه المهدي وأخرجه، ثم قدمه للجيش كما ذكرنا.

بعد أن تمَّ لأبي عبد الله تحقيق هذه الانتصارات الرائعة. توجه إلى «تاهرت» فدخلها، سلماً، ولكن بعد فترة قصيرة قام يقظان بن أبي يقظان بحملة ، وتصدى له، فقبض عليه وأمر بقتله، ومن تاهرت تابع

السير إلى سجلماسة فولى عليها إبراهيم بن الأغلب بعد أن جاءه طائعاً، ونادماً، وفي هذا يتجلى حسن تدبيره، وبعد نظره، وسياسته الحكيمة. أما اليسع بن مدرار فقد غدر به أفراد من قبيلة بني خالد، وهي من البربر، وكانت قد استأمنت أبا عبد الله فأمنها.

ستظل فتوحات أبي عبد الله في أفريقيا الشمالية تشغل عدداً من صفحات التاريخ العربي فهي لم تتوقف حتى بعد وصول عبد الله المهدي إلى المغرب، والإعلان عن خلافته الفاطمية، ولكن الأقدار تأبى إلا أن تغيّر مسيرة التاريخ، كما تأبى إلا أن تعكر صفوَ الحياة، فقاتل الله السياسة، وحب الرئاسة، والغرور الذي كثيراً ما يتحكم في رؤوس الرجال، فيغيّر مجرى حياتهم، ويؤدي بهم في النهاية إلى الهلاك.

واعدم أبو عبد الله في سنة ٢٩٨ هجرية، نتيجة للدور الذي لعبه في مؤامرة أخيه أبي العباس ضد الامام والخليفة المهدي.

عَبْدُالله المهْدِي
الخَليفَة
الفَاطِمِيُّ الأوّل

كنا ذكرنا أن أبا عبد الله الشيعي أخرج المهدي من الأسر. وجاء به إلى قصر «بني مدرار» في مدينة سجلماسة حيث نادى به أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين، وأوعز إلى قواد الألوية ورؤساء الكتائب بمبايعته على أنه الخليفة الفاطمي الأول، وبعد أن تمَّ هذا وسط الأهازيج والمهرجانات التي دامت عدة أيام، ذهبوا بالمهدي وعائلته إلى مدينة القيروان. وهناك في وضح النهار بايعه الزعماء، والقواد وأفراد الجيش ، ورؤساء القبائل، ورجال الدين، الذين هرعوا من كل مكان للإعلان عن الطاعة والولاء، وكان ذلك سنة ٢٩٦ هـ. ومن ثمَّ انتقل إلى مدينة «رقادة» سنة ٢٩٧ هـ، فبايعه فريق آخر من الناس، وكان يقف بين يديه قائده الكبير ومستشاره الأول أبو عبد الله الشيعي ورؤساء قبيلة كتامة.

وهكذا أقام المهدي في قصر الإمارة، ومن ديوانه في القصر أعلن للملأ مباشرة الأعمال، فكؤوس النصر المترعة، ومهرجانات الفرح والابتهاج يجب أن تنتهي، ويبدأ العمل بعدها، فالدولة الفتية بحاجة إلى دعائم ، وأسس وسواعد متينة، واشتراك المخلصين في معركة البناء، وقد شمر (المهدي عن ساعده وبرز إلى الساحة . فعين القواد، والوزراء. والخبراء، والعمال، والولاة، والقضاة. وأقام الدواوين، وشرع بالبناء والعمران بهمة لا تعرف الكلل، كما خصص قسماً من أوقاته للسهر على راحة الشعب وسماع شكاوى المظلومين، وتأمين الحاجات لجميع أفراد الشعب، وتوفير الأمن والاستقرار، والرفاهية والحياة الأفضل.

كل هذا ولم يشغله أي شاغل عن تنظيم الجيش، وتقسيمه إلى فرق

وكتائب مستقلة ومرتبطة بقيادة عامة، كما خصص لأفـراد هذا الجيش وقواده الرواتب الشهرية التي تكفل لهم حياة تتناسب مع ما يقدمونه من خدمات، وتضحيات، ولم يغرب عن باله تنظيم شؤون الدولة المالية كالواردات والنفقات، وغير ذلك من القضايا التي ترفع بنيان الدولة الفتية، وترسي قواعدها، وهكذا تمكن من إظهار وجه الدولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ـ فدانت له البلاد، ورضخت له القبائل، وهذه المرحلة تعتبر مرحلة البناء والعمران، وقد كلَّفت جهوداً مضنية، ونشاطات جبارة . وحول هذا الموضوع يمكن تقسيم مدة حكم المهدي إلى مراحل ثلاث.

فالمرحلة الأولى بدأت بوضع الأسس للدولة الفـاطمية، واعتمـاد القوانين الحديثة التي تتلاءم وطبيعة البلاد، وتطلعات الشعب، وكل هذا يتطلب خبرة، ومعرفة، واختيار المعاونـين، والولاة والقـواد، ورؤساء الأقسام. فالمهدي لم يكن يتطلع إلى إقامة إمارة صغيرة فقيرة بمواردها وعدد سكانها وقوتها العسكرية، بل كانت أمانيه وأحلامه تمتد إلى أبعد من ذلك... كانت أمانيه تتجلى بإقامة دولة كبرى، أو امبراطورية واسعة تضارع الدولة العباسية، بل تفوقها قوة، ومدنية، وحضارة مع مراعاة المبادىء الاشتراكية التى آمن بها المهدي، وسهر هو وأجداده على تعميمها. فالقضاء على دولة الأغالبة، وبني مدرار ليس كافياً بحد ذاته، بل يجب أن يمتد هذا الزحف شرقاً وغرباً بحيث لا يحول بينه وبين المحيط الأطلسي حائل، من هنا فإنه أدخل في حسابه إزالة دولة الأدارسة.. والوصول إلى حدود دولة الأندلس، وبهذا يكون قد أخضع القبائل الأخرى، وجند شبابها، وضمهم إلى جيشه الذي يمهد لضم المغربين الأقصى، والأدنى إلى دولته الفاطمية بالإضافة إلى جزيرة صقلية التي يمكن الانطلاق منها إلى البحار المتصلة بالعالم الغربي. أما مصر فتبقى أمنيته الوحيدة، ففي ضمها إلى دولته يكون قد قطع الشريـان الحياتي للـدولة العباسية، ومنها يمكن الانطلاق إلى أجزاء أخرى من العالمين العربي والإسلامي.

أما المرحلة الثانية، فنعتبرها ما بين سنة ٢٩٧ هـ إلى سنة ٣٠١ هـ. وفي هذه المدة تم للمهدي تسلم جميع السلطات والصلاحيـات، والاضطلاع بكافة المهمات القيادية، ومرافق الدولة، وتمَّ له تجريد

الولاة والقواد من النفوذ المتزايد، والحد من صلاحياتهم، وإلزامهم بإطاعة الأوامر العليا، والرجوع إلى الخليفة في كل شاردة وواردة، فأثبت أنه القائد الذي يستلهم العمل من العقل المدرك، والفكر النير، وأنه طبق المبدأ الذي كان يعمل على ضوئه، بأن يبقى السيد المطلق الذي لا يعلو على رأيه رأي آخر.

كانت السنوات الأولى من خلافة عبد الله المهدي سنوات الإنشاء، والتأسيس، وإصدار القوانين، والقيام بالفتوحات ، والقضاء على المؤامرات الداخلية، ولكن المهدي وقف من كل هذا موقف رجل الدولة الساهر على شؤون دولته، وهذا ما جعله يجتاز العقبات، ويتغلب على الصعاب، ويبعد أعداءه الواحد تلو الآخر، فأثبت في نهاية المطاف أنه الحاكم المطلق الذي لا ينازع. ولم تقف الأحداث، والوقائع بوجه اهتماماته ورغباته بتطبيق القوانين، والسهر على مصالح الشعب، وتعزيز مكانة الدولة، وتوسيع رقعتها، بل أولاها ما تستحقه من اهتمام وعناية، ولا بد من الإشارة إلى إقدام أهل طرابلس ـ الغرب على عزل الوالي الفاطمي سنة ٢٩٨ هـ، وقيام «الزناتيين» باحتلال «تاهرت» ولكن حسن تصرف المهدي، وبعد نظره أنقذ المدينة، وأعاد ارتباطها ـ بالدولة الفاطمية وذلك بتعيين أحد القادة الكتاميين والياً عليها، وهكذا بالنسبة إلى طرابلس ـ الغرب.

وفي المرحلة الثالثة الواقعة ما بين سنة ٣٠٢ هـ إلى سنة ٣٠٩ هـ. وهي المرحلة الأكثر عنفاً وتقلباً واضطراباً ليس في الولايات الفاطمية في المغرب الأقصى فقط، بل في كل أجزاء المغرب، وعلى الأخص في جزيرة صقلية، وقد كان مقتل «حباسة» وشقيقه «عروبة» وكلاهما من زعماء كتامة البارزين مضافاً إلى ذلك إبعاد بعض القواد الآخرين الذين قادوا الجيوش، وساهموا بالفتح، وأحرزوا الانتصارات، وركزوا دعائم الدولة الفاطمية سبباً بظهور الثورات، وخاصة العصيان الذي وقع في «برقة»، ولما كانت هذه المقاطعة تشكل أهمية خاصة من وجهة النظر الفاطمية على اعتبارها قاعدة تؤدي إلى الأراضي المصرية، وهذا ما حدا بالمهدي إلى إرسال ولي العهد «القائم بأمر الله» إليها، فتمكن بعد سلسلة من المعارك التي دامت أكثر من سنة ونصف من إعادتها إلى الحظيرة الفاطمية.

أما «تاهرت» الواقعة في المغرب الأوسط، فهذه المدينة دخلها أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦ هـ. واعتبرها قاعدة ينفذ منها إلى المغرب الأقصى، ومن الجدير بالذكر أن «بنو رستم» ملكوها زهاء مئة وثلاثين عاماً، وهي اسم لمدينتين متقابلتين. ففي هذه المرحلة ولى عليها المهدي أحد قواده البارزين «مصالة بن حيوس» وذلك بعد مقتل «عروبة بن يوسف» كما ذكرنا.. وكان من الطبيعي أن يبدأ «مصالة» حياته العسكرية في صراع عنيف مع قبائل «صنهاجة» وقد تمكن في نهاية المطاف من الاستيلاء على قاعدتهم «ناكور» وذلك سنة ٣٠٥ هـ. ولعل هذا كان بداية الصراع الدامي بين الفاطميين من جهة والأدارسة ومعهم الصنهاجيين من جهة ثانية، أو بلغة أصح بين الفاطميين والأمويين أصحاب الأندلس، ولما كان الصنهاجيون يمتلكون قوة عسكرية كبيرة، كثيراً ما تصدت، وهددت دولة الأغالبة، ووقفت في وجهها، فإن المهدي حسب لهم حساباً، وكثيراً ما أرسل إلى قواده الأوامر بضرورة التودد إليهم حيناً، وتهديدهم بالحرب حيناً آخر، ولكن كل هذا لم يردعهم، أو يعيد الثقة إلى نفوسهم . فوقفوا موقف المعارض القوي، وهذا ما جعل «مصالة» يخرج عن صمته، ويبادر إلى احتلال قاعدتهم، وضرب فلولهم... وبعد أن تم له إحراز النصر عليهم كتب إلى المهدي يعلمه بما أحرزه، كما وصف له فرار أمراء «بني صالح» إلى الأندلس والتحاقهم بالناصر الأموي، فأمره المهدي عندئذٍ أن يفعل ما يراه مناسباً، وأطلق يده باتخاذ كافة التدابير التي تعيد للدولة الفاطمية هيبتها ومكانتها.. هذا ومن الجدير بالذكر أنه بعد أن وطد الأمور عاد إلى «تاهرت» وولى على «ناكور». رجلاً يقال له «ذلول» ، ولكن «صالح بن سعيد الصنهاجي» هاجمه سنة ٣٠٥ هـ. بجيش كبير موله الأمويون، فتمكن من قتل «ذلول» وأصحابه، واستلم المدينة، وأعلن الولاء للأمويين، أصحاب الأندلس، وفي هذه الرحلة أيضاً برزت على مسرح الأحداث قضية «الأدارسة» ودولتهم في «مكناس». ومن الجدير بالذكر أن أحد قوادهم قام على رأس قوة كبيرة، وأخذ يقوم بأعمال القرصنة على حدود الدولة الفاطمية، فأرسل المهدي إليه حملة عسكرية بقيادة ولي العهد «القائم بأمر الله» فتمكن من إخماد نار الفتنة، وإعادة الاستقرار بعد القضاء على زعامة الأدارسة في مكناس، وفي تلك الفترة عين عليها والياً من قبله هو «حميد بن يصال» ولكن «موسى بن

العافية» عاد إليها، وأطاح بالوالي الجديد، وأرسل رأسه إلى الناصر الأموي، وقد شجع وساعد هذا الانتصار «يحيى بن إدريس» وهو آخر ملوك الأدارسة، وكان يتمتع بنفوذ كبير لم يبلغه أحد من أسلافه، فجرد جيشاً جراراً وهاجم حدود الدولة الفاطمية، وغرضه احتلال كامل أجزاء المغرب الأقصى، وعندئذٍ أوكل المهدي إلى القائد الكبير «مصالة بن حبوس» أمر تصفية الحساب مع يحيى، فتقدم على رأس جيوشه الفاطمية حتى مكناس، وهنـاك التقى بيحيى، ودارت معركة كبرى بين الفريقين انتهت بهزيمة يحيى وانسحابه إلى فاس، واعتصامه فيها، ولكن «مصالة» لحق به وحاصره، وما زال يشدد عليه الحصار حتى طلب الصلح لقاء تأديته الأموال، ومبايعة المهدي بالخلافة، فقبل مصالة طلبه بعد موافقة المهدي على أن يبقى في فاس، كما ولى ابن عمه «موسى بن العافية» على مقاطعة أخرى في أحد الأقاليم الخاضعة للفاطميين.

مما يجب أن نشير إليه، أن موسى كان في بداية أمره مخلصاً للفاطميين، وأنه كان على اتصال مستمر مع أبي عبد الله الشيعي، وكان كثيراً ما يذكره، ويحثه على احتلال دولة الأدارسة وضمها إلى الدولة الفاطمية، ولكنه انقلب عليهم في النهاية.وفي سنة ٣٠٩ هـ عاد القائد مصالة إلى فاس فاجتمع بموسى الذي أوغر صدره على ابن عمه يحيى متهماً إياه بالخيانة، والاستغلال، والإثراء، والاتصال سراً بالأمويين، وبعد ثبوت ذلك قبض مصالة عليه، وصادر أمواله، ثم نفاه إلى خارج البـلاد، فذهب إلى بلاد الريف حيث أبنـاء عمومته، ولكن مصالة خاف من عودته فلحقه وعاد به حيث أودعه السجن، وبعد عشرين عاماً أطلق سراحه فجاء إلى «المهدية» وعاش فيها بقية حياته حتى سنة ٣٣٢ هـ.

بعد هذه الأحداث عاد مصالة إلى فـاس، وولى عليها «ريحـان الكتامي» - ولكن مدة ولايته كانت قصيرة، لأن «محمد بن القاسم الادريسي» الملقب «بالحجام» وهو من الأسرة الإدريسية ثار عليه، وتمكن سنة ٣١٠ هـ من قتله،والاستيلاء على فاس، ولم يكتفِ بذلك بل تطلع إلى أبعد من حدود فاس... وهنا كلف المهدي ابن عمه «موسى ابن العافية» بالتصدي له، فزحف على رأس قوة من رجاله، وعندما التقيا دارت بينهما معارك طاحنة قتل في إحداها «ابن موسى» كما

قتل «محمد» في معركة بعدها. وكل هذا مهد لموسى الاستئثار بتركة الأدارسة، ولكنه طمح بعد فترة بالاستقلال وخلع طاعة الفاطميين، كما أنه أخذ يهدد بلدانهم، وممتلكاتهم في المغربين الأقصى والأوسط، ومن أنه كان يتلقى الدعم المادي، والمعنوي، والعسكري من الأمويين أصحاب الأندلس إزاء هذا الموقف كان لابد من إرسال حملة فاطمية كبرى إلى منطقته بقيادة حميد بن يصال صاحب «تاهرت» وابن أخ مصالة الكتامي ، فتمكن بعد سلسلة من المعارك من الاستيلاء على البلدان التي احتلها موسى.. وأخيراً ضيق عليه الخناق، وأجبره على الفرار تاركاً فلول جيشه عرضة للقتل والأسر، وهكذا اختتمت حياته، وحياة الأدارسة، وعاد الهدوء والاستقرار إلى المغرب الأقصى، ورفرفت على ربوعه رايات المهدي، وأعلام دولته الفاطمية الفتية، ولكن لابد من التساؤل: هل تم للمهدي السيطرة التامة على بلاد شمالي أفريقيا كاملة؟ الجواب قد يكون هنا واضحاً، والمصادر التاريخية كلها جاءت تؤكد بأن الثورات ظلت تندلع من هنا، ومن هنالك منذرة مهددة كما وجد أصحاب المطامع، والناقمين، والمعارضين فرصة سانحة، أو سبيلاً إلى إضرام النار، وإعلان التمرد والعصيان.

لم يكن سهلاً على المهدي إرساء الهدوء والاستقرار في أرجاء دولته الفتية خاصة بعد غياب أبي عبد الله الشيعي، وكما ذكرنا كان عليه أن يخوض المعارك بنفسه، أو يوكل أمرها إلى ولي العهد «القائم بأمر الله». من هنا فإن تأديب العصاة. وإخماد الثورات ليست عملية سهلة. بالنسبة إلى رجل أنيطت به مهمة حكم دولة جديدة. ولابد من القول بأن أهم حدث واجهه في أول عهده، هو خروج قبيلة «زناتة» عليه واتخاذها خطة العداء شعاراً لها، حتى أنها لم تتورع عن التصدي والهجوم، يدلنا على ذلك مهاجمتها «تاهرت» عاصمة «بني رستم» واستردادها من الجيش الفاطمي، ولم تنفع المقاومة الصورية من قبل عاملها الفاطمي «دوأس» الذي فرَّ أخيراً، ولجأ إلى «رقادة» ، وبعد فترة قصيرة اتهم بالمواطأة، والتقصير، والاشتراك بمؤامرات ضد الدولة، وهكذا اعتقل، وحوكم، وقتل.. وبعد أن عين المهدي «مصالة بن حبوس بن بهلول الكتامي المكناسي» قائداً عاماً لجيوشه، فوض إليه أمر إخضاع، وتأديب الزناتيين. وهذا القائد عرف

بصلابته، وإقدامه، ومهارته في قيادة الجيوش، فجاء إلى موقع «فك مديك» ونازل الزناتيين، وتمكن بعد سلسلة من المعارك العنيفة من قتل أعـداد كثيرة من أفرادهم وقوادهم، وإلحاق الهزائم بهم.

المهدي وصقلية

كانت «صقلية» جزيرة كبرى في البحر الأبيض المتوسط، تميَّزت بموقعها الحربي العظيم، وبكونها من أهم المرافىء التجارية الصالحة للتصدير وللاستيراد، مضافاً إلى ذلك جودة مناخها، وكثرة فواكهها، وثمارها وصلاحها لقضاء فترات الراحة، والاستجمام، والاصطياف، ناهيك عن كون تربتها مليئة بالمعادن كالفضة والنحاس، والزئبق، والرصاص. وكل هذا استأثر باهتمام أبي عبدالله الشيعي منذ أن حطَّ رحاله في شمالي أفريقيا، أي قبل وصول عبدالله المهدي، وإعلان قيام الدولة الفاطمية. فبذل جهوده للاستيلاء عليها، وضمها إلى دولته الفاطمية. ومن الجدير بالذكر أنه لم يكد يحرز انتصاراته على الأغالبة، ويفرغ من احتلال بلدانهم، وممتلكاتهم حتى أرسل إلى صقلية موفداً لدعوة أهلها إلى الاستجابة له والانضواء تحت لواء دولته، فهبَّ أهالي الجزيرة، ولبوا نداءه، وهجموا على الوالي المعين من قبل الأغالبة المسمَّى حسن بن رباح وولوا مكانه «علياً بن أبي الفوارس» بعد أن أخذوا موافقة أبي عبدالله الشيعي. وبذا تحولت الجزيرة فصارت ملكاً للفاطميين.

وعندما اعتلى عبد الله المهدي كرسي الخلافة الفاطمية، وضع قانوناً أساسياً للدولة اعتمد في تنفيذه على الكتاميين،وبذلك حصر مناصب الدولة الرفيعة فيهم على اعتبار أنهم ضحوا بدمائهم في سبيل الدولة، وهذا ما جعله يصدر أوامره بعزل أبي الفوارس، وتعيين الحسن بن أحمـد الكتامي مكـانه، ولكن الأهـالي رفضوا ذلـك، وأنفوا من الاستكانة، والعيش في ظل البرابرة، وكان المهدي قد عيَّن قبل ذلك سنة٢٩٩ هـ علياً بن عمر البلوي والياً على الجزيرة، ولكن هذا لم يلبث أن قتل قبل أن يتسلَّم عمله، الذي أراد المهدي أن يسلمه إياه بالنظر لما عرف به من التقوى والورع، والعطف على الفقراء والمحرومين، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه التحركات، والهجمات كان يقوم بها، ويوقد نارها أنصار أبي عبدالله الشيعي.

وفي سنة ٣٠٠ هـ، عين المهدي على الجزيرة بالاتفاق مع زعماء

الصقالبة أحمد بن قرهب، وكان عربياً، غير أن الكتاميين المقيمين في الجزيرة ثاروا على الوالي الجديد، واتهموه بالعنصرية العربية الاستقلالية، وعندما هبَّ العرب لنجدته، وقعت المعارك بينهم وبين الكتاميين، فانتصر العرب، وأعلنوا الولاء للدولة العباسية، وهنا كان لا بد من إرسال حملة عسكرية كبرى إلى الجزيرة لإعادة الأمن إليها، وكان قائدها أبو سعيد المغربي الذي لم يلبث أن قتل.

هذه الأحداث المروعة جعلت المهدي في نهاية المطاف أمام وضع يقضي باتخاذ تدابير عديدة، وحاسمة في آن واحد، فعيَّن عليها حاكماً عسكرياً، وزوَّده بالصلاحيات التامة، وأبقى تحت إمرته مجموعة من الجنود، وأطلق يده في شؤون الجزيرة دون الرجوع إليه إلّا في الأمور الخطيرة، ومنذ ذلك الوقت ظلَّت الجزيرة تحكم عسكرياً.. ولعل هذا كان من الأسباب التي ساعدت على الاحتفاظ بها، وإشاعة الأمن والاستقرار في ربوعها، ومن ثم تحويلها إلى قاعدة بحرية، كان لها أكبر الأثر في حياة الدولة الفاطمية.

لقد كان الخليفة المهدي حريصاً على الاحتفاظ بجزيرة صقلية، وجعلها القاعدة البحرية العسكرية والاقتصادية لدولته، مهما كلفه ذلك من تضحيات. فخطة المهدي كانت تهدف إلى إقامة امبراطورية فاطمية كبرى تكون صقلية قاعدة بحرية لأسطولها الذي بناه، وأعده، وجهَّزه رغم انشغاله بالقضاء على الانتفاضات الداخلية، والثورات التي لم تكن تتوقف. ومن جهة أخرى نظر إلى غارات الروم المستمرة على بلاده، فكان لزاماً عليه أن يضع حداً لها، ليتحول بعدها إلى مهاجم يستهدف مدن الروم الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، ومصر، والبلاد العربية الأخرى، وأن يبني «المهدية» القاعدة البحرية الثانية لدولته على شاطىء البحر الأبيض المتوسط.

لم تشغل الحروب، والانتفاضات الداخلية المهدي عن النظر إلى ناحية الروم، واعتبارهم أعداء بلاده، وأصحاب الأطماع، والقراصنة المستعمرين الذين لا يهدأون، ولا يتورعون عن إلحاق الأذى بالمسلمين، ولهذا سيَّر المهدي أسطوله الكبير سنة ٣١٣ هـ. من صقلية، وأمره مهاجمة مدن الروم الساحلية بالرغم من المعاهدة الموقعة بينه وبين الروم سنة ٣٠٥ هـ التي تنص على أن يدفع الروم

للفاطميين جزية مقدارها/ ٢٢/ ألف قطعة ذهبية في العام، وهذه المعاهدة لم يلتزم بها الروم.

وكان المهدي قبل ذلك أي سنة ٣٠٦ وسنة ٣١٠ وسنة ٣١٢ هـ، وعلى فترات قد أمر أمير البحر جعفر بن عبيد بغزو بلدان الروم الساحلية. ومن الجدير بالذكر أن الأسطول الفاطمي يومئذٍ قد هاجم بلاد «انكبدره ـ لومبارديا»، وتمكن بحّارته من الاستيلاء على بعض المواقع المهمة، وغنموا الغنائم الكثيرة. وفي المرة الثانية استولى جعفر على مدينتي «أورره»، وذكر أنه قتل في حصارهما أكثر من ستة آلاف رومي. وفي المرة الثالثة أسر جعفر عشرة آلاف رجل من الروم، وفي إحدى الحملات استولى على مدينتي «تارنت» و «أورنت» ولولا تفشي الأمراض لوقعت أكثر بلدان الروم الساحلية بأيدي الفاطميين.

هذه الغزوات درّت على الدولة الفاطمية الأموال الطائلة، وجعلتها في حالة من الازدهار الاقتصادي، بسبب الغنائم والمعدات، والأموال التي كانت تدفع مقابل فكّ الأسرى.

المهدي ومعركة البناء

كان الخليفة المهدي حريصاً رغم الحروب المتواصلة التي يخوضها في الداخل والخارج على إشاعة البناء والعمران والازدهار في أرجاء الدولة. وكان يركز بشكل خاص على بناء الطرق وتعبيدها بين المدن الرئيسية وبين القرى لكي يشجع على تعزيز الحركة التجارية والزراعية وتسهيل مرور القوافل. فالطرقات هي شرايين الدولة التي يتدفق منها معين الانماء والازدهار، وتدل الوقائع أنه في مدة قصيرة أوجد شبكة من الطرق المعبدة الرئيسية بين المدن الكبرى، عدا عن الطرق الفرعية التي تصل القرى والمزارع بالمدن، فنشطت التجارة، وازدهرت، وعمَّ الرخاء، وتضاعفت الموارد. ووجدت التسهيلات التي كانت الجيوش بحاجة إليها عند قيامها بالمهمات العسكرية المطلوبة. وتلفت المهدي صوب الصحراء، وخاصة ما كان متصلاً منها بالديار المصرية... فهذه الصحراء العسيرة كثيراً ما كانت تبتلع القوافل القادمة، والذاهبة إلى مصر، فتهلك إمَّا عطشاً أو جوعاً أو انقطاعاً، ولهذا أمر بإقامة محطَّات في هذه الصحراء، وزوَّدها بكل ما تحتاج إليه، وجعل مهمتها حماية القوافل وتزويدها عند اللزوم بالماء، والغذاء، والإرشاد إلى الطرق، والمعابر الواجب سلوكها للوصول إلى نقطة الأمان.

وتذكر المصادر الاسماعيلية التاريخية أن المهدي وجَّه اهتمامه إلى تنظيم البريد بين المدن القريبة والبعيدة، فعين موظفين، ومكاتب مهمتهم تأمين الرسائل والأمانات، كما جهَّز لنقل البريد أسرع الخيول وخصَّص السفن للبلدان الواقعةعلى الشواطىء والثغور... كل هذا لم يشاهد أهل أفريقيا الشمالية له مثيلاً من ذي قبل.

وكان المهدي في سنة ٢٩٧ هـ قد قرر إقامة مدينة تحمل اسمه، وتكون عاصمة لدولته، فخرج في أحد الأيام مع بعض المقربين إليه للتفتيش عن أرض صالحة يقيم عليها مدينته المرتقبة. فأعجبه موقع يتصل بالبحر الأبيض المتوسط على بعد ستين ميلاً من القيروان إلى جهة الجنوب الشرقي، يحيط به البحر من جهاته الثلاث، فوضع

حجر الأساس لمدينة «المهدية». ويروي التاريخ أن بناءها دام ستة أعوام، وعندما انتقل إليها مع عائلته سنة ٣٠٣ هـ... قال كلمته المشهورة:

«الآن أمنتُ على أبناء فاطمة»

بنى على مقربة منها مدينة ثانية سماها «زويلة»، وهو اسم إحدى قبائل البربر الموالية للفاطميين، فعمَّر فيها الأسواق والساحات والحدائق والحمامات والمساجد والشوارع، وقسَّمها إلى مناطق وأسواق بحيث جعل لكل طبقة من التجار سوقاً خاصة بها، وهكذا بالنسبة للصنَّاع ولأصحاب المهن. وهو لعمري ترتيب دقيق سبق فيه المهدي عصره.. ومن المفيد أن نذكر أنه جعل لها أرباضاً كثيرة وعامرة، كما جعل لها خمسة أبواب، وسوراً منيعاً يحيط بها فازدهرت الصناعة في هذه المدينة، وتعززت الأسواق التجارية، وقامت نهضة اقتصادية أصبحت حديث الناس. هذا ويجب أن لا يغرب عن بالنا عناية المهدي بشؤون التربية والتعليم، فهو قد أنشأ المدارس، وشجع التعليم للكبار، وللصغار، وبنى مثلها في القرى، فضلاً عن الاستراحات والخانات والمساجد، والمآذن التي أولاها عناية خاصة، ومن الواضح أنه أولى هندستها وزخرفتها أهمية في تلك الأيام، لأنها تعطي صورة عن الدولة، وعقيدتها الدينية.

أما الأسطول فكان شغله الشاغل بعد بناء المهدية، ولقد استقدم المهندسين والنجارين من الأصقاع النائية لبناء السفن السريعة والقوية فالمغرب بلد واسع، متصل بجميع بلدان العالم، وفي أطرافه خطوط عديدة، أهمها الخط الأوروبي الذي يبدأ من الأندلس مجتازاً المغرب الأوسط والأدنى والأقصى حتى يصل إلى مصر، ووضع في حسابه العلاقات التجارية والثقافية التي بين مصر وصقلية، فخلال تلك الفترة كانت أكثر السفن الذاهبة من مصر إلى ايطاليا، وجنوبي فرنسا مضطرة إلى العبور عبر صقلية، مما يضطرها في أكثر رحلاتها إلى التوقف لشراء ما تحتاجه من موارد المغرب، أو بيع ما تحمله من أصناف.

وعلى العموم فإن الأسطول الفاطمي في عهد المهدي، كان من أحدث أساطيل العالم تنظيماً وإعداداً وأوفرها عدة كانت آخر ما وصلت إليه الصناعة الحربية في تلك الأيام.

وشجَّع المهدي الزراعة، وأدخل اصلاحات عامة عليها، فأمر بفلاحة الأراضي المعطلة،وجلب لها مياه الأنهر، واستقدم بذور النباتات، والأغراس المثمرة من بلاد بعيدة، حتى أنه ينسب إليه إدخال زراعة شجر الزيتون والحمضيات إلى بلاد المغرب الأوسط «تونس»، وخفَّف الضرائب الجائرة المفروضة على المزارعين، والصنَّاع، والتجار، وخصَّص السفن التجارية لنقل صادرات بلاده، وجلب الواردات، وكانت هذه السفن تجوب البحار في الشرق والغرب، وكل هذا لم يسبق للشعب المغربي أن شاهد مثله. وإذا كان المهدي قد أطال التحديق بمصر، فلأنه رأى في ثروتها الطبيعية ما يساعده على توسيع قواعد دولته، ومد رواق سلطانها إلى بلاد أخرى، لأن الدولة الفاطمية التي أقامها في الغرب كانت بحاجة إلى موارد أخرى تسد حاجات الجيش، والأسطول، ورجال الدولة، والمستخدمين.

وجاء المهدي بخبراء ماليين أناط بهم وضع نظام عادل للضرائب، وللرسوم المفروضة على التجار، والصناع، والمزارعين، وعلى كافة السلع، ويدخل في هذا النطاق الضرائب على البائعين الذين يستخدمون الأماكن العامة لعرض تجارتهم، وعلى أصحاب الحمامات، والخانات، ومالكي السفن الخاصة، والمصانع، والمسالخ، والمذابح، وأصحاب الموازين، والمكاييل، وكل هذا كان يدر على خزينة الدولة الأموال، ويجعلها قادرة على الوقوف، والتطلع إلى دفع النفقات المطلوبة والاصلاحات العامة كإشادة المدارس، ونشر العلم، وإقامة المستشفيات، ودور الكتب، والمكتبات، ودور الحكومة، وإقامة الجسور، والمعابر، والمحطات، وشق الشوارع، وإقامة الساحات، والحدائق العامة.

وبذل المهدي جهوداً جبارة في مستهل خلافته لإقامة ديوان الخراج، وسهر على تنظيماته، وقوانينه الخاصة بالضرائب وطريقة فرضها، وجبايتها، وتأمين الأموال اللازمة لخزينة الدولة المكلفة بتأمين نفقات الحملات العسكرية التي تتوجه للفتح أو لإقرار السلام، والأمن، والاستقرار في المناطق، وعلى حدود الدولة، ويأتي بعد هذا الجيش ليأخذ دوره في معركة البناءعلى اعتبار أنه العرق النابض، أو العمود الفقري الذي يرتكز عليه جسم الدولة..

لقد قرأنا في كتب تاريخ الإسماعيلية أن المهدي كان ضليعاً في علم الهيئة، والفراسة، فلا يفوته ما يعتمل في نفوس الرجال بمجرد النظر إلى وجوههم، وسماع أحاديثهم، ومن جهة أخرى كان كريماً يغدق الهبات والعطايا على أعوانه. وقواده، عندما يتأكد من أمانتهم، وإخلاصهم، وكل هذا كان يشجعهم على حمل السلاح، وبذل الأرواح في سبيل الدولة والخليفة الذي محضهم ثقته وعطفه.

«نهاية المطاف»

وأخيراً مات الخليفة الفاطمي الأول «عبد الله المهدي» في قصره بمدينة «المهدية» وكان له من العمر ثلاثة وستون عاماً، ومن المعلوم أن ولادته كانت سنة ٢٥٩ هـ، ووفاته سنة ٣٢٢ هـ وكانت المدة التي قضاها في الحكم هي خمسة وعشرون عاماً أي من سنة ٢٩٧ حتى سنة ٣٢٢ هـ.

مات الرجل الكبير بعد عمر طويل قضاه في الجهاد، والنضال، ومقارعة الأحداث، وعوادي الأيام... مات الرجل الذي استطاع أن يؤسس دولة كبرى من العدم في ديار بعيدة، وفي أرض غريبة لم يسبق أن وطأتها قدماه، أو عرف شيئاً عن طبيعتها، وأحوال سكانها، ليجعلها بين عشية وضحاها قبلة الأنظار، أو قل دولة ذات كيان، ينظر إليها الشرق والغرب نظرة اعجاب وتقدير...

وعلى العموم فإن غياب الرجل العظيم ترك آثاراً وانعكاسات لم يكن من السهل تجاهلها وخاصة بالنسبة إلى ولي العهد «القائم بأمر الله» الذي أمضه المصاب، وجعله فريسة الحزن والارتباك، والآلام، يبكي فقدان الأب العطوف الذي ربّاه، وعلّمه، وهيأ له هذا الملك الواسع.

لقد أدرك القائم بأمر الله في تلك الساعة الرهيبة ـ ساعة الفراق ـ بأنه فقد أغلى إنسان عليه. وأدرك انه أصبح وحيداً في وطن ليس له فيه أهل ولا أقرباء، لا أسرة ولا أبناء عمومة، إلّا بعض الشباب، والصغار الذين لا حول لهم ولا قوة. فالمهدي كان النور الذي ينير جوانب نفسه، والأمل الباسم الذي يطل عليه من بعيد حاملاً البشرى والأمل والرجاء. لذلك كان لا بد له من استعمال المرونة، والحكمة التي تقتضيها الظروف فكتم نبأ الوفاة خشية واحتياطاً لنفسه. فلا يتخذ بعض الناقمين، والمعارضين من الحادث فرصة

للقيام باضطرابات أو ثورة سريعة ربما أطاحت بالدولة، وبالأسرة الفاطمية معاً.

وأدخل في حسابه أن القوّاد لم يبايعوه، ولا ولاة الأقاليم، ولا العلماء، ولا رؤساء القبائل، وكل هذا جعله يعلن للناس بأن الخليفة يشكو من مرض بسيط، وأنه لا يلبث أن يتعافى ويخرج للناس، ومن جهة ثانية أرسل بطلب المخلصين، والأتباع، والمقربين، وخاصة «الكتاميين» فكان يطالبهم بالبيعة حسب رغبة المهدي التي أرادها أن تتم قبل وفاته، ولم يتأخر عن ذلك أحد من القواد والولاة والعلماء وأصحاب الرأي في الدولة، وبعد أن تمَّ كل شيء أعلن القائم بأمر الله عن الوفاة رسمياً، وقيل أن المدة التي استغرقها إخفاء الأمر تجاوزت السنة.

ودَّع الشعب القائد الحكيم الوداع الأخير، ودفنته بين الدموع والحسرات في تراب المدينة التي أراد أن تحمل اسمه، وهنا لا بد من التساؤل، هل كان تدبير القائم بأمر الله بتأجيل اعلان الوفاة كافياً لإخماد ثورة المعارضين، والناقمين، والمتربصين، والحد من مؤامراتهم، وهل قضى بتدبيره هذا على كل آمالهم.. وهل عمَّ الهدوء والأمن، والاستقرار كافة أرجاء الدولة بعد وفاة المهدي؟

إن الجواب على هذا السؤال، سيظهر جلياً واضحاً في أجزاء أخرى من هذه الموسوعة التي نتناول فيها حياة «القائم بأمر الله» وكافة التفصيلات والوقائع لتلك المدة التي قضاها على كرسي الخلافة.

شخصيات أدبية عاصرت «عبدالله المهدي»

لم يذكر التاريخ إلا أسماء بعض شخصيات أدبية عاصرت المهدي وعملت معه، وهؤلاء هم:

١ ـ **«النعمان بن حيون المغربي التميمي»**.. دخل في خدمة المهدي سنة ٣١٣ هـ.... [سنفرد له حيزاً في الأجزاء القادمة].

٢ ـ **«أحمد بن محمد بن هرون البغدادي»**.. عاش في الأندلس، ونعم في خيراتها، وحاز على تقدير أهلها، دخل في خدمة عبدالله المهدي

فعيّنه كاتم أسراره، وظلّ قائماً بهذه المهمة حتى عهد الخليفتين القائم بأمر الله، والمنصور بأمر الله، كان على جانب كبير من العلم والفضل والمعرفة.

٣ ـ «**ابن سعدون الورجيلي**».. التحق هذا الشاعر بعبد الله المهدي، وقال فيه الكثير من الشعر، ولكنه ضاع كما ضاع تراث الفاطميين.. حياة هذا الشاعر ما زال يكتنفها الغموض، وكل ما ذكر عنها لا يروي غليلاً. وهذه الأبيات مدح بها المهدي:

هذا أمير المؤمنين تضعضعت لقدومه أركان كل أمير

هذا الإمام الفاطمي ومن به أمنت مغاربها من المحذورَ

والشرق ليس لشامه وعراقه من مهرب من جيشه المنصور

٤ ـ «**جعفر بن محمد بن أحمد البغدادي**».. من نوابغ عصره في الكتابة، وقرض الشعر، عاش في بغداد، وعندما ساءت العلاقة بينه وبين وزير المقتدر العباسي «علي بن عيسى» خطَّط الوزير لقتله فتمكن من الفرار إلى «القيروان» في المغرب، والدخول في خدمة عبدالله المهدي، ومن المشهور أنه مدحه بغرر القصائد، فولّاه أعلى المناصب.

٥ ـ «**أبو أحمد النسفي**» من الدعاة الكبار الذين عاصروا دور الستر في سلمية، ظهر نشاطه في «فارس» ما بين سنة ٣٠٢ هـ وسنة ٣٢٩ هـ. فخلال تلك الفترة تمكن من التأثير على «نصر بن أحمد الساماني» وإدخاله في الدعوة الإسماعيلية، وهكذا بالنسبة إلى حرداويء الديلمي أمير طبرستان.

ولد عبدالله المهدي في مدينة سلمية سنة ٢٥٩ هـ. ومات ودفن في مدينة المهدية بتونس سنة ٣٢٢ هـ. ثم نقل رفاته فيما بعد إلى القاهرة ـ المعزيَّة. فيكون قد عمَّر ثلاثة وستين عاماً، أمّا خلافته فخمسة وعشرون عاماً تبتديء سنة ٢٩٧ هـ وتنتهي سنة ٣٢٢ هـ.

لم يذكر التاريخ إلّا القليل القليل عن طفولته ونشأته، كما أنه لم يتطرق إلى أساتذته الذين درس عليهم العلوم والآداب، ولعلَّ الستار الكثيف من السرية الذي كان يخفي كل شيء من حياة هؤلاء «المستورين» هي من الأسباب التي أوجدت هذا التعتيم الكثيف. ولكن عندما نعلم أن عبد الله المهدي هو سليل الأسرة التي وضعت أول دائرة معارف عربية، وأول من أرسوا دعائم الفلسفة والعلوم

يهون علينا الأمر، ونخرج إلى القول عنه بأنه كان ولا شك على جانب كبير من الثقافة، متفوقاً في العلوم والمعارف.

ولد المـهدي في بيت علم وأدب وفلسفة، واشتهر بأنه كان فصيح اللسان، ويمتلك قدرة عجيبة على الإقناع، مهيب الطلعة، يؤثر في السامع، محباً لعمل الخير، جريئاً بهدوء، لا يعرف التردد، مغـرماً بالمطالعة والتزود من العلم، واقتناء الكتب النادرة، وتربية الخيول وطيور الصيد، وكان كريماً إلى حد كبير وهو أول من تسمى خليفة للمسلمـين من بين أئمـة الإسمـاعيليـة، وأول من سمَّى دولتـه «الفاطمية».

اختلفت الآراء في إمامة عبدالله المهدي، فقال البعض أنه ما كان إماماً مستقراً، بل كان حامياً للإمامة ووصياً شرعياً عليها، وكان له أن يورثها أبناءه ولكنـه لم يفعل، بـل التزم بـالقانـون الإمامي الإسماعيلي، وبما التزم به وجدانه من أخلاق ومثل، وأعاد الإمامة إلى صاحبها مدلّلاً بذلك على خلق رفيع وايمان راسخ وعقيدة ثابتة، وقال آخرون بأنه كان إماماً مستقرّاً وأنه أورث الإمامة ابنه القائم.

وتؤكد المصادر الاسماعيلية الموثوقة وغيرها، هذه الرواية.

وحسبه أن يكون مؤسس الدولة، والقائد الذي استطاع بفضل ما أوتيه من قوة الشخصية، وبما جعل عليه من الصفات والذكاء أن يوطد أركان الخلافة الفاطمية في أرجاء العالم الإسلامي كافة، كما استطاع أن يقض مضاجع الخلفاء العباسيين، ويجعلهم فريسة للمخاوف، كما أنه قضى في المغرب على دول كبيرة وإمارات عديدة كانت قواعد عباسية، وأقام على أنقاضها دولته الفاطمية التي ما لبثت أن اقتطعت خيرة بلدان الدولة العباسية، وذهبت أخيراً إلى حد تركيز أعلامها في بغداد.

إنه لمن الصعوبة بمكان إيفاء عبدالله المهدي حقه من المديح. وماذا نقول عن قائد شاهد انتفاضة «القرامطة» وهي أعظم ثورة منظمة ثارت عليه، ومع ذلك ظلَّ يصابرهم ويهادنهم، ويعمل بهدوء ويراقب حركاتهم، ولمَّا وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف بوجه تيارهم غادر سلمية إلى المغرب تحت وابل من العيون، وجيش من الجواسيس العباسيين الذين جندوا لملاحقته والقبض عليه، ومع ذلك ظلَّ يسير بهدوء وثقة وثبات حتى وصل إلى المغرب.

أحداث ومفاجآت(*)

إن النظام الفكري الإسماعيلي لم يتوقف عن العطاء وتحقيق الانتصارات منذ أن قدم أئمة الإسماعيلية من ولد اسماعيل بن جعفر الصادق إلى سلمية، فأرسلوا دعاتهم إلى الأقاليم والبلدان الإسلامية حاملين التعاليم والأفكار والمبادىء، وفي فترة قصيرة انضوى تحت لوائهم أعداد من الأنصار والمؤيدين الذين لا يمكن إحصاؤهم، وهؤلاء تمَّ تأليفهم في حلقات وهيئات وجماعات حتى لم يبق بلد من البلدان إلاّ وفيه جماعة منهم يعملون ويبشرون بأفكار جديدة ومبادىء اصلاحية تكفل سعادة الأمة، وتقودها إلى حياة أفضل.

وبعد أن أعلن عبدالله المهدي عن إمامته طرأ على الدعوة الإسماعيلية الكثير من التطورات، وذلك أنه بإخراج «الإمامة» من السرية المطلقة إلى العلنية، يكون قد أنهى دور «الستر» المعروف، وذلك بعد أن شعر بأن أسباب التستر قد زالت ولم يعد هناك مبرر لإخفاء الأسماء والأدوار عن الناس. ولكن هذا التدبير لم يرض فئة كبيرة من الإسماعيلية، وهي التي عرفت فيما بعد «بالقرامطة»، فأعلنت عن استنكارها، ورفضت الرضوخ لأوامر الإمام الحاضر، وكان عليهم أن يدعموا قولهم ببيانات وتصريحات كثيراً ما تناقلها وأعلنها أفراد هذه الأسرة، وكلها تؤكد أنهم ليسوا سوى دعاة للإمام المستور من ولد اسماعيل. وهكذا وقع ما كان يخشاه كل غيور على مصلحة الدعوة، ولم تنفع التدابير والمساعي التي بذلها المخلصون لاصلاح ذات البين، والعودة بالدعوة إلى عهدها الأول.

(*) الآراء التي وردت في هذا الكتاب لا تتفق وما ورد في كتابنا «القرامطة» أو «ثورة القرامطة الاشتراكية» وسبب ذلك ان مصادر عديدة قد ظهرت حديثاً عن «القرامطة» لم يكن متيسراً الحصول عليها بالأمس، وهذه المصادر جعلتنا نعيد النظر. ونغيّر بعض آرائنا في هذا الموضوع المهم

وكان الأئمة الإسماعيليون قد اتخذوا من سلمية قاعدة لهم، ومنطلقاً لنشاطهم الفكري والسياسي وذلك بعد فرارهم من العراق وفارس. ومن الواضح أن نزولهم في هذه البقعة المنعزلة البعيدة عن أنظار الدولة العباسية قد مهد أمامهم السبيل، لاطلاق دعاتهم وعمالهم بحرية وأمان إلى الأقطار العربية والإسلامية للتبشير بأفكارهم، ونشر مبادىء دعوتهم، وقد ساعدهم على ذلك اتخاذهم السرية المطلقة، وكتمان الأسماء مبدأً عاماً لهم، والاعلان عن أنفسهم بأنهم جاءوا من بلاد فارس للعمل في التجارة، واستئجار الأراضي الزراعية، وغير هذا من الأعمال الحرة، وأنهم شيعة يقولون بإمام مستور من ولد اسماعيل بن جعفر الصادق.

إن إخفاء شخصياتهم ومقاصدهم في بداية أمرهم قد ساعد على ايجاد المراكز الدعائية، وإقامة فروع للدعوة، واكتساب المؤيدين والأنصار، وخاصة عندما تغلغلوا في صفوف عامة الشعب. وأوغروا صدورهم على الحكم القائم الجائر، واتفقوا معهم على العمل لتقويض دعائم الدولة العباسية الحاكمة التي كانت تعاني من نقمة العامة، وإقامة نظام متين على أنقاضها يستند إلى مبدأ حرية الفرد والمساواة وإقامة العدل وإنعاش المجتمع، وتوفير الأمن، والرخاء، والحياة الأفضل. وكان التبشير بقرب ظهور إمام يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، هو أساس دعوتهم. وكان القول بإمام يتولّى الخلافة الإسلامية، يلقى كل ترحيب وقبول، في نفوس العامة، والخاصة على السواء، في منطقة الخليج العربي والكوفة وسواد العراق، وبلاد الشام، فالناس في هذه البلدان كانوا في حالة من القلق والتبرم، يتظلمون من حياة الظلم والفساد، والاستئثار، وإهمال مطالب الشعب، وهضم حقوقه من قبل هؤلاء العباسيين الذين اغتصبوا مركز الخلافة، ولم يقوموا بواجبهم الديني والإنساني، ولم يفوا بوعودهم التي قطعوها للشعب.

وعلى العموم فإن الشعوب الإسلامية كانت في تلك الفترة تعيش في فراغ فالقائد الروحي الأمين الذي يتولّى إسعاد الأمة، وتأمين الاستقرار، والأمن، والحياة للفقراء، والمحرومين، والضعفاء غائب، ولا أثر له، مع أن الحاجة إليه أصبحت ماسة. وكل هذا قرَّب القلوب، وجعل الناس يهرعون للانضواء تحت لواء الدعوة

الإسماعيلية التي أخذت على عاتقها التمهيد لهذا الظهور.

أما العباسيون فكانوا في تلك الفترة، أي فترة ظهور عبدالله المهدي يعيشون في ظل العواصف، والأحداث، والاضطرابات، تتقاذفهم الأمواج الصاخبة، والرياح العاتية من الداخل والخارج منذرة بالخراب والدمار، ولكن الأهم من هذا كله كان ظهور التعاليم السياسية الإسماعيلية وهي تحمل الدعوة إلى العصيان على الدولة، وشق عصا الطاعة عليها. ومن الجدير بالذكر أن العباسيين كانوا على اتصال وثيق بكل ما يجري، يتلقون التقارير السرية، والمعلومات المفصلة من عمالهم في الأقاليم عن وجود قاعدة كبيرة في قلب البلاد تغذي حركة المعارضة، وتمهِّد لانقلاب عام يشمل كل شيء حتى مقام الخلافة. ولكن مكان القاعدة ظلَّ مجهولاً بادىء الأمر. وهكذا الأشخاص الذين ينطلقون منها للدعاية، وإثارة الناس، وبالنسبة للأئمة المستورين من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق، فهؤلاء لم يمكنوا دعاتهم من معرفتهم، فكيف بأعدائهم العباسيين. والحقيقة لو انه تمَّ لهم ذلك، لما كانوا أحجموا عن إرسال جيوشهم مع الأوامر بالاستئصال والإبادة.

وتتغيَّر الأوضاع العامة فجأة عند ظهور عبدالله المهدي، فهذا الرجل الشجاع، رأى أن الوقت قد حان للاعلان عن إمامته، فالقوات المحاربة التي تأتمر بأمره لا يمكن قهرها. وهذا ما جعل الخليفة العباسي المكتفي يتريث باتخاذ أية خطة، ولا يدري أحد سبب هذا التقاعس، فهناك من يقول: إنه آثر الانتظار ليرى ما نتيجة الصراع الداخلي القائم بين عبدالله المهدي وأتباعه. أما عبيدالله المهدي فإنه لم يكن مرتاحاً بعد تسلمه شؤون القيادة إلى البنية الداخلية للنظام الذي ورثه، ولا لوجود بعض الدعاة، فعمد إلى ادخال بعض التعديلات على الأنظمة الداخلية القديمة، والاستعاضة عنها بأنظمة وأفكار جديدة تتلاءم وأوضاع النظام الذي خرج عن سريته المطلقة إلى العلنية والوضوح، وبالإضافة إلى كل ذلك، كان عليه ايجاد جو من التفاهم والتعاون بين دعاته المنتشرين في الأقاليم، وتهديدهم بالعزل والتسريح في حال انحرافهم، أو عدم تطبيقهم للأوامر العليا. نداءً إلى رؤساء هذه المجموعة العسكرية، يحذرهم فيه من القيام بأية أعمال عسكرية وخاصة ضد الدولة العباسية، لأن أي عمل من

هذا النوع سابق لأوانه، فالدولة العباسية لا تزال تمتلك القوة الجبَّارة التي تكفل لها النصر، لهذا فإن الانتصار على جيشها أمر مشكوك فيه. ولكن رئاسة الدعوة في الكوفة هزأت بأقواله، وردَّت عليه رداً عنيفاً بإعلانها دستور الدولة الذي ستقوم عليه الحياة السياسية، ويتلخص هذا الدستور بايجاد ثلاث مجالس. الأول للشورى، والثاني للتشريع، والثالث للدفاع. وهذه المجالس الثلاث هي التي تقوم بانتخاب رئيس الدولة، ومساندته في الحكم والإدارة. وقد ألغى هذا الدستور مبدأ الحكم الوراثي. أمَّا الإمامة فقد حدد صلاحياتها وجعلها قاعدة للدين، ولا علاقة لها بالسياسة أو الدولة. فاعتبر المهدي هذا كله هجوماً مباشراً، أو مؤامرة تستهدف مقام «الإمامة» وتهديم أركانها، أو بالأحرى اقتلاع جذورها، وتحويلها إلى قاعدة دينية لا شأن لها، ولا تملك من الصلاحيات، والمعنويات إلاَّ الاسم.

كان عبدالله المهدي يعلم بكل ما يبيِّته له القرامطة، كما يدرك ما أعدَّه العباسيون، فهو بين فكي عدوين مفترسين يتسابقان على التهامه، وكانت الأخبار التي يتناقلها الناس قد جاءت تحمي اندفاع جيش القرامطة بقيادة الحسن بن زكرويه صاحب الشامة على القرى، والمدن الشامية، ووضعه مدينة سلمية هدفاً له. فعجَّل بالذهاب، وخرج من سلمية تحت جنح الظلام إلى مدينة حماه، وكان يرافقه ولي العهد القائم بأمر الله وزوجته وابنتاه، وابنه الصغير، وبعض الخدم، وخادمه المخلص جعفر الحاجب الذي ذكر في سيرته أنه أخذ معه كل ما خف حمله، وغلا ثمنه من المجوهرات والأموال، ودفن الباقي في حفرة في صحن قصره إلى جانب بحيرة الماء التي كانت تظللها شجرة النخيل دون أن يطلع عليها أحداً، ومن حماة انتقل إلى قرية «سلحب» التي تبعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الجهة الغربية من حماة، فقضى فيها ليلة في ضيافة أحد أتباعه المشرف على تربية خيوله الأصيلة، وهناك مصدر آخر يذكر أنه ذهب إلى قرية «طيبة الإمام» الواقعة إلى شمالي مدينة حماة على بعد عشرة أميال، وهذه القرية كان قد اشتراها أحد الأئمة وسماها باسمه، وكانت من المراكز المهمة لتربية الخيول والمواشي. ومن هناك توجه إلى دمشق.. فكان يسير في الليالي، ويستريح في النهار ومن ضواحي دمشق انتقل

إلى حوران ثم إلى الأردن، فنابلس، وأخيراً وصل إلى «الرملة» الواقعة إلى الشمال الشرقي من القدس، وهناك حلَّ ضيفاً على داعيته المخلص «أبي الكوثر» وهو يخفي شخصيته عن كل الناس إلَّا عن داعيته صاحب المنزل، وكان على جانب كبير من النفوذ والجاه في البلدة، مضافاً إلى مرونته وخبرته وسعة نظره، فنصح المهدي بالتريث، وعدم متابعة السفر إلَّا بعد التحقق من خلو الطريق من عيون العباسيين وعملائهم الذين انبثوا في كل مكان يراقبون الطرقات، والممرات التي توقعوا أن يمر بها المهدي.

وهكذا أقام عبدالله المهدي في الرملة يراقب الأحداث، وينتظر سنوح الفرصة لمتابعة السفر. أما سلمية بالنسبة إليه فكانت موضع تذكره وأفكاره. لقد كان يعتقد أن القرامطة مهما بلغ بهم الجنون والحقد، فلن يتجسروا على مداهمة المدينة التي نهلوا من ينابيعها معرفتهم وأفكارهم، ولا على الأسرة التي وجهتهم، ووضحت لهم سبل الحياة، ولكن الأمور، والأحداث جاءت على غير ما تصوره، فإن الحسن بن زكرويه بعدما فرغ من تدمير معرة النعمان وحماة، جاء إلى سلمية، ففرض عليها الحصار. وكان يحسب أن عبدالله المهدي فيها، فامتنعت المدينة عليه بادىء ذي بدء ولكنه عاد وهادن أهلها، وبعد مفاوضات طويلة أقنعهم بأنه ما جاء محارباً، ولا غازياً، بل جاء مسالماً وموادعاً، وقاصداً الاجتماع إلى المهدي تمهيداً لإعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية، وأقسم على ذلك، وأعطى العهد والأمان، ففتحوا له الأبواب بعد أن وثقوا بأقواله، وعندما تمَّ له دخول المدينة أعمل السيف في رقاب السكان دون تمييز، ومنع أحداً من الخروج من الأبواب، وكما ذكرنا فإنه قتل جميع سكانها دونما استثناء ولم يسلم حتى صبية الكتاتيب، كما أمر بقتل الحيوانات الأليفة، والطيور الأهلية. وجاء أخيراً إلى قصر الأئمة الواقع في الجهة الجنوبية على مقربة من القلعة، وبمحاذاة المسجد الكبير «ذي المحاريب السبعة»، فأخرج كافة أفراد أسرة المهدي إلى الساحة العامة للقصر، وأمر أحد السيَّافين فتولى قطع رؤوسهم الواحد تلو الآخر، ثم رمى بجثثهم في أحد الآبار العميقة. ويذكر التاريخ أن عددهم بلغ/ ٨٣/ بين رجل وامرأة وطفل، وبعد هذا انتقل إلى قصر العباسيين، وكان يقع في الجهة الشمالية للمدينة، وهذه الأسرة تنتمي إلى عبدالله بن صالح

ابن علي بن عبدالله بن عباس نجل الصحابي المشهور، ومستشار الإمام علي، والفقيه الكبير عبدالله بن عباس، وكان والد عبداللهالثاني المذكور عـاملاً عـلى «قنسرين» و«حمص» و «دمشق» من قبـل العباسيين فنـزل سلمية، وأجـرى فيها الأنهـر، وامتلك الأراضي والبساتين، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأسرة كانت تتمتع بثقة الخلفاء العباسيين في بغداد، حتى أن الخليفة «المهدي» العباسي زارها في سنة ١٦٣ هـ وكان في طريقه إلى القدس، يضاف إلى ذلك أنه زوّج عبدالله من أخته، وعيّنه عاملاً على أحد الأقاليم العراقية وكان جعفر بن علي الهاشمي أحد أفراد هـذه الأسرة معـروفاً بصداقته للشاعر «عبد السلام بن رغبان» المعروف بـ «ديك الجن».

ونعود إلى الحسن بن زكرويه: فإنه بعد فراغه من إبادة الأسرة الإمامية جاء إلى قصر العباسيين كما ذكرنا فأباد الأسرة المذكورة عن بكرة أبيها، وذكر أن عددها بلغ / ٥٧/ نفساً.

هذه الدماء الغزيرة لم تشفِ غليل حسن بن زكرويه، ولم تحقق أحلامه... كان يأمل أن يلتقي بعدوه الأكبـر «عبدالله المهـدي» ويحاسبه على كل الأمور، ولكنه لم يعثر عليه، وهذا ما جعله قلقاً ومتبرماً وأخيراً عاد لينزع إلى الحيلة، وهو يظن أنها تحقق رغباته، وتوصله إلى أهدافه، فكتب كتاباً إلى عبدالله المهدي، وأمر ابن عمته «عيسى» أن يذهب إلى الرملة، أو إلى أي مكان آخر يكون قد وصل إليه فيسلمه الرسالة، ويؤكد له بأنه ما جاء إلى سلمية إلا للاجتماع إليه، ولمبايعته بالزعامة، والقيـادة، وأن الناس الآن بانتظاره على أحر من الجمر في سلمية.

وصل الرسول إلى «الرملة» وبعد جهود مضنية تمكن من الاهتداء إلى مقر عبدالله المهدي فدخل عليه، وسلّمه الرسالة، وكانت الأخبار الموثوقة وصلت إلى المهدي صحيحـة مفصلة عن الهجـوم الذي تعرضت له «سلمية» وعن إبادة أسرته. في تلك اللحظات العنيفة تتجلى عظمة المهدي ومتانة أعصابه، فلم تظهر عليه أية دلائل تشير إلى أنه قد سمع بالأخبار، بل كان استقباله للرسول عادياً وحاراً، فتسلّم منه الرسالة فلما وقف على ما جاء فيها أعلمه بمرافقته على العودة بعد خمسة أيام، أي بعد أن تكون زوجته قد استعادت صحتها، ثم حمّله رسالة إلى الحسن يخبره بما عزم عليه.

بعد ذهاب الرسول أدرك عبدالله بأن بقاءه في الرملة لم يعد مفيداً، بعد أن علم القرامطة بمكانه، وربما يتوصل العباسيون إلى معرفة مقره أيضاً، فغادر الرملة تحت جنح الظلام باتجاه الأراضي المصرية عبر «غزة» والواحات الصحراوية، وكان يرتدي ثياب تجار الفرس هو وأفراد عائلته، وفي الأراضي المصرية لم يجد ما كان يخشى منه، بل على العكس وجد في كل مكان الترحيب والاحترام، ولكن كل هذا لم يحل دون القبض عليه وهو في موقع «الوجه البحري» وكان قد وافاه إلى ذلك المكان أحد دعاته الأقرباء المكلف بشؤون مصر، وهو: محمد بن علي بن محمود المقيم ولهذا الداعي يعود الفضل بتسهيل مهمته، وإيصاله فيما بعد حتى حدود برقة.

جاء الجند بعبد الله إلى مقر القائد الأعلى، أو الحاكم العسكري لمصر من قبل العباسيين في ذلك الوقت، واسمه محمد بن سليمان، وكان الخليفة المكتفي قد انتدبه لطرد آخر ولاة الطولونيين من الديار المصرية. فتمكن في فترة قصيرة من تنفيذ مهمته، وعند ذلك أمره الخليفة العباسي بالبقاء لفترة أخرى، وخلال وجوده وصل المهدي إلى مصر، وعندما جاء به الجند طلب المهدي الاجتماع إليه على انفراد، وبعد خلوة قصيرة خرج محمد بن سليمان ليعلن للناس بأنه ليس هو المهدي المطلوب، وأمر الجند بالحفاظ عليه حتى وقت سفره.

بعض المصادر التاريخية ذكرت بأن الذي قبض عليه هو عيسى النوشري عامل العباسيين على مصر، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن المصادر المذكورة عادت وقالت أن محمد بن سليمان بعد أن عاد إلى بغداد قبض عليه الخليفة العباسي المكتفي وقتله بعد ثبوت تهمة الرشوة، وقبض الأموال من المهدي لقاء اطلاق سراحه، وهناك احتمال بأن يكون محمد بن سليمان من أتباع المهدي الإسماعيليين المستورين.

يحدثنا جعفر الحاجب في سيرته بأن عبدالله المهدي دخل مصر متستراً في زي التجار، وكانت الكتب من بغداد قد وصلت إلى مصر بصفته، ولكن بعض أهل خاصة والي مصر كانوا مؤمنين بدعوة المهدي، فأسرع إليه بعضهم بالخبر، ولطف في أمره، إلى أن خرج من مصر، ومعه القائم بأمر الله، وبعض عبيده، ويزيد جعفر على قوله:

سرنا أي المهدي ورجاله من الرملة إلى مصر، فاستقبلنا، ابو علي الداعي وكان مقيماً في مصر، ويدعو بها، وأكثر دعاة الإمام من قبله، وكان الداعي فيروز هو الذي رعاه وربّاه وزوّج ابنته «أم أبي الحسين» إلى ولده... فتقدم إليه المهدي قبل دخولنا مصر، بأن لا ينزلنا عنده، ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا، وأن ينزله عند من يثق به، فأنزله عند ابن عياش.

ويروي المؤرخ المسبحي حكاية نقلها عن ابن محمد علي الداعي المقيم في مصر، وهذا كان رفيق المهدي أثناء وجوده في الديار المصرية، عندما كان في طريقه الى شمالي افريقيا.. قال:

كنت يوماً قائماً على الجسر بمصر مع الامام المهدي الى أن سمعت الجرس والنداء يقول: الا برئت الذمة من رجل آوى رجلاً صفته كذا وكذا، ونعته كذا وكذا، ووصف صفة المهدي، فمن أتى به فله عشرة آلاف دينار حلالاً طيباً.. فقال المهدي. يا ابا علي... المقام بعد هذا عجز، ثم ركب الجسر، وسرتُ معه، وسألته أن ارحل معه الى بلاد المغرب.فقال: على من ادع من لي هنا.. فبكيتُ فأنشدني شعر امرىء القيس:

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونه
وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكاً أو نموتَ فنعذرا

ويروي المسبحي قصة أخرى عن وصول المهدي الى مصر، وعن رحيله عنها في زي التجار، وهذه القصة سمعها من أحفاد أبي علي الداعي المقيم الذي رافق المهدي أثناء اقامته في مصر.. فقال:

صلّى المهدي صلاة الصبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الاخضر، ومعه ابو علي الداعي، فلمّا خرجا من الباب ضرب رجل بيده على كم المهدي وقال له: قد حصلت لي عشرة آلاف دينار.. فقال له: وكيف ذلك؟ قال: لانك الرجل المطلوب... فضحك المهدي ثم ضرب بيده على كتف الرجل وأخذ به الى صدر الجامع وقال له: عليك عهد الله، وغليظ ميثاقه، إذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار، ثم آخذه بيده، وأتى به الى حلقة قد اجتمع الناس فيها، فأدخله من جانب، وفارقها بسرعة من باب الجانب الآخر، ولم يلتقيا بعد ذلك.

خرج المهدي من مصر، واضعاً أمام أنظاره «برقة»، فاستراح في بريتها بضعة أيام، ثم تقدم عبر الصحراء والواحات التابعة للمغرب الأدنى أي «ليبيا» اليوم، وكان يسلك طرق القوافل التجارية، وما زال

ينتقل من مكان الى آخر متحملاً الحر، والمشاق، وخشونة قطاع الطرق، واللصوص، والحراس، وكان المهدي يعرض عليهم الهبات والأموال، ويستخدمهم في قضاء بعض الحاجات الضرورية حتى اجتاز أخيراً مراحل الخطر، وعندما أصبح على مقربة من طرابلس علم به «زيادة الله بن الأغلب»، ولكنه غضَّ الطرف عنه، رغم الأوامر العباسية إليه بضرورة القبض عليه، ويقال إنه لم يتأكد من شخصه، وهناك رأي آخر، هو أن المهدي أهداه بعض التحف الثمينة، والجواهر النادرة، ومن هناك تابع سيره مجتازاً أطراف المغرب الأوسط «تونس» عبر الواحات، والتلال والصحراء. فبدلاً من أن يتوجه الى المنطقة التي استولى عليها قائده الكبير أبو عبد الله الشيعي توغل في أراضي المغرب الأقصى على حدود الصحراء حتى وصل الى «سجلماسة» وهناك قبض عليه صاحبها آليسع بن مدرار، ووضعه تحت الاقامة الإجبارية، وهكذا وقع في نهاية الشوط في ما كان يخشاه، وذلك في سنة ٢٩٦ هـ.

المصادر التاريخية لا تذكر لنا الأسباب التي جعلت المهدي يسلك هذا الطريق الصحراوي البعيد ليصل الى أرض لا يعرف أحداً فيها، مع قدرته على سلوك طريق آخر يصل به الى الأراضي التي يسيطر عليها داعيه، فهل ضلَّ المهدي الطريق، أم أن هناك أسباباً أخرى؟ تلك أسئلة لا جواب عنها لدى المؤرخين، ربما لأنهم لم يفكروا بها أصلاً.

هذا وقد وقعت في كتاب «الناصر الأموي» لمؤلفه «سيمون حايك» على نص يقول:

> إن المهدي كان في سجلماسة يقيم اقامة جبرية معززة بالحراسة الشديدة في منزل تملكه امرأة من آل مدرار تسمَّى مريم وهي عمة اليسع بن مدرار، وكانت تقية ورعة، وذات تأثير على ابن اخيها، وإليها يعود الفضل بحقن دم المهدي ونجاته من الأخطار، فكانت تقف بوجه كل من يحاول الإساءة إليه، أو إلى أي فرد من أفراد أسرته ولقد حفظ المهدي للسيدة يدها، فاغدق عليها الأموال والهدايا وأمر بعد خروجه من سجنه، بالمحافظة عليها وأبقى لها أملاكها وأحاطها برعايته هي وأبناءها طيلة مدة حكمه.

هذا ولا نحسب أن القول في رحلة المهدي الشاقة العجيبة قد انتهى. فالأسرار ما زالت تكتنفها والكثير من الأسئلة ما فتيء ينتظر جواباً.

ومن يدري فقد يكون الجواب أيسر مما نظن ونحسب كأن نقول بأن القدر وحسن الطالع واليمن كانت وراء ما حققه دون أن نغفل ما كان عليه من جسارة وعبقرية وحسن تدبير وهي شمائل سهلت له العسير فتخطى العقبات وتجشم الأخطار حتى بلغ ما يصبو إليه.

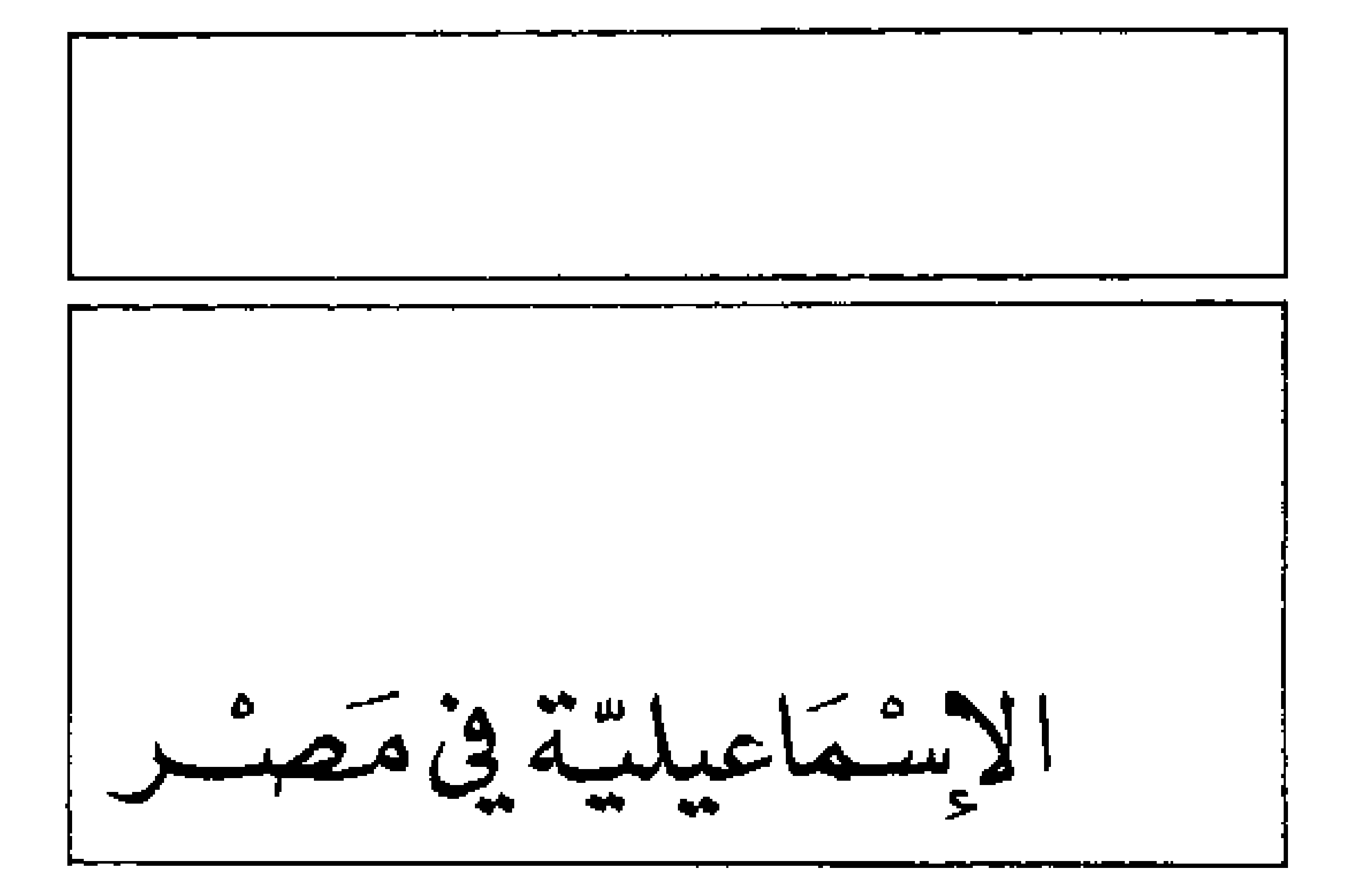
وعندما علم القائد أبو عبد الله الشيعي وهو يتابع فتوحاته في المغرب الأوسط بما وقع للإمام المهدي في «سجلماسة» قابل الخبر ببرودة أعصاب، وعدم اهتمام، مقدراً بأن أي تحرك من جانبه، أو أي حماس يظهره يكون حافزاً [لاليسع] الى ارتكاب جريمة قتل المهدي، ومما يجب أن نشير إليه أن هذا الموقف جعل «اليسع» يشك في شخصية المهدي بقوله الى المقربين منه: لو أنه المهدي لتحرك أبو عبد الله حقاً، ثم لماذا جاءنا هذا الرجل من المغرب الأدنى إذ كان بإمكانه الدخول الى البلاد التي يسيطر عليها صاحبه ما دام هو المهدي؟ كل هذه الاحتمالات وضعها «اليسع» أمامه، واكتفى أخيراً بإرساله رسالة الى الخليفة العباسي في بغداد، وفيها تفاصيل قصة التاجر الايراني المقبوض عليه، ولكن جواب الخليفة تأخر، وذاك التأخير جاء لمصلحة المهدي، وحسن حظه. أما أبو عبد الله الشيعي، فإنه تابع زحفه، وفتوحاته كالمعتاد، دون أن يجعل سبباً لأحد كي يشك بخطته، وما زال يتقدم من نصر الى نصر حتى وصل الى ضواحي «سجلماسة» التي تركنا «عبد الله المهدي» أسيراً فيها، وقد استغرقت هذه الرحلة ما يقرب من الشهرين. ومما يجب أن نشير إليه أن «سجلماسة» اشتهرت بجمال طبيعتها، ومناخها، ففيها يجري نهران أصلهما واحد، اذا قرب تشعب الى نهرين يسلكان شرقاً وغرباً. أما موقعها ففي سهل واسع، وحولها أرباض كثيرة، وتبعد عن القيروان ستة وأربعين فرسخاً، وكان بنو مدرار قد جعلوها عاصمة لدولتهم.

بعد أن وصل أبو عبد الله الشيعي الى سجلماسة أحكم عليها الحصار، وأنذر حاكمها اليسع بالاستسلام، ولكن «اليسع» رفض الإنذار، وأخيراً وجد أن لا قدرة له على الوقوف بوجه هذا الجيش الجرَّار الذي يحمل ألوية النصر، ففرَّ تحت جنح الظلام مع أفراد عائلته، وكان قد أعدَّ نفقاً تحت الأرض خاصاً للهرب، وينفذ الى خارج المدينة، وبعد فراره الذي تمَّ في سنة ٢٩٦ هـ دخل القائد الاسماعيلي أبو عبد الله الشيعي المدينة وسط الأهازيج، وأغاني

النصر، وتقدَّم فوراً الى سجن المهدي فأخرجه وأركبه على حصانه، وجاء به الى الساحة العامة وقدمه للجيش وللشعب بقوله:

«هذا هو المهدي الذي كنت أبشركم به».

إن التاريخ الطافح بالأحداث، والأخبار، والقصص الشيقة لم يفصح لنا عن الأسباب التي حدت باليسع بن مدرار الى الاحتفاظ بالمهدي هذه المدة التي تقرب من الشهرين، فهل كان يخشى أن لا يكون الرجل المقبوض عليه هو المهدي الحقيقي، فيرتكب بقتله جريمة يؤاخذه الله عليها، أم أنَّ المهدي تمكن من شراء سكوته بما قدمه إليه من أموال وهدايا، كما فعل مع غيره أثناء رحلته، وهناك من يقول إن اليسع كان يريد أن يساوم أبا عبد الله الشيعي على المهدي، وينقذ بلاده وملكه به، لو أنَّ أبا عبد الله أظهر الجزع أو الخوف.


الإسْمَاعيليّة في مَصْر

لم تكن دولة المهدي الفاطمية في المغرب، لتظهر على مسرح الدنيا العربية والإسلامية بهذا الشكل القوي، أو تعيش طويلاً وسط المؤامرات الخارجية، والثورات الداخلية لو لم يكن شعارها اقامة مجتمع أفضل يرتكز على أسس العدالة والحرية والمساواة، واحلال النظام والقانون، واعتماد الإدارة والتنظيم، وقطع دابر الظلم والتحكم والفساد. فعبد الله المهدي عندما أرسى قواعد دولته الفاطمية، وضع نصب عينيه منافسة العباسيين والأمويين، وسبقهم في كل ما يتعلق بالحكم وتوفير الأمن والرخاء للرعية، وتطبيقه المبادىء الإنسانية التي تجعل المساواة قائمة بين جميع الطبقات، فاعتمد الدعاة، أو بلغة أصح أعاد مدرسة الدعوة من جديد الى سابق عهدها، وأناط بدعاته مهمة نشر الدعاية للدولة في أقطار المشرق والمغرب كافة، وخاصة في الديار المصرية التي كانت تستأثر باهتمام آبائه وأجداده قبل ظهور دولته، وهكذا وجّه إليها الدعاة وأمدهم بالمعلومات، ورسم لهم الخطوط.

ومن المعلوم أنه لم يكن لهؤلاء الدعاة السريين بالأمس سوى قاعدة سرية، لا سلطة زمنية لها. أمّا اليوم فقد أصبح لهم دولة كبرى تؤمن لهم الحماية والرعاية. ولهذا فإن نشاطهم تضاعف، وفي فترة قصيرة تغلغلوا في صفوف الشعب المصري حاملين إليه الأفكار الجديدة، واضعين أمامه مساوىء الحكم العباسي، وأخلاقية خلفاء بغداد، واستعمل هؤلاء الدعاة كل أسلحة الدعاية من ثقافية، وفكرية، وأدبية. فتحدثوا إلى رجال الدين، وإلى الأدباء، والشعراء، وعرضوا لما تعلقه الدولة الفاطمية على الأدب والعلوم والثقافة من أهمية في

حياتها، كما كشفوا لهم عن النظم، والإدارة، ومعاملة الرعية، والقوانين التي اعتمدتها الدولة للترفيه عنهم، وإشاعة العدل والحرية بينهم، وهكذا قربوا الأدباء، واستقطبوا العلماء، ووضعوا أمامهم الحلول للخلاص من الحكم الجائر، لأن كل دولة لا يكون للعلم وللثقافة فيها نصيب، فإنها لا تلبث أن تنهار، وتذهب طعماً لتيارات الجهل والغباوة، وليس غريباً أن تخطو الدولة الفتية هذه الخطوات وهي في بدء عهدها، فقائدها المهدي عاش وتربّى في المدينة التي انبثقت من إحدى جهاتها جمعية الدعوة المسماة «إخوان الصفاء وخلّان الوفاء»، وهي أول أكاديمية عرفها العالم.

وفي عهد عبد الله المهدي كان الداعي «فيروز» هو المسؤول الأول عن الدعوة في القطر المصري، وكان من أجلّ الناس عند الأئمة، ومن أعظمهم منزلة، وكان من دعاة المهدي أيضاً ومن دعاة القائم بأمر الله أبي جعفر الجزري. وقد ذكر أن المهدي أوكل إليه أمر حريمه وأمواله عندما خرج من سلمية، ولكن هذا الداعي مات في «رقادة»، فكيف تمكن من الإفلات من الحصار الذي فرضه «الحسن بن زكرويه» على سلمية. أما أبو علي الداعي المقيم فقد ذكره جعفر بن منصور اليمن في كتابه «الفترات والقرانات»، وقال عنه بأنه عرف «بالشيخ الأجل المفيد»، وهو أحد تلاميذ فيروز، وزوج ابنته، وقد أنجب ولداً هو محمد الذي بلغ في عهد المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز المكانة الجليلة بالرغم مما كانت تعاني منه الدولة الفاطمية، وهي في بدء عهدها، فإن قائدها المهدي لم يتوقف لحظة عن تنفيذ ما رسمه. ففي سنة ٣٠١ هـ، أعد جيشاً من المغاربة، وجعل أكثريته من قبيلة «كتامة»، وسلّم قيادته للقائد الكتامي حُباسة بن يوسف الذي كان والياً على «برقة» من قبل الفاطميين، وفوّض إليه مهمة احتلال القطر المصري، فزحف «حُباسة» إلى الديار المصرية باتجاه الاسكندرية، فدخلها بسهولة، واحتل كامل الوجه البحري دون أن يلقى مقاومة تذكر، وعندما علم الخليفة العباسي المقتدر بهذا الهجوم المباغت بعث مؤنس الخادم على رأس حملة كبيرة فجاء الى مصر، واشتبك مع الجيش الفاطمي في معارك عديدة انتهت بانتصاره وارغام حباسة على التراجع، ولم تنفع الامدادات التي أرسلها المهدي بقيادة ولي العهد، القائم بأمر الله. وممّا تجدر الإشارة إليه أن الجيش

العباسي كان أكثر عدداً، وتنظيماً من الجيش الفاطمي الذي لم يكن قد وصل بعد الى حد خوض الحروب الكبرى البعيدة عن بلاده.
وتذكر المصادر أن الشعب المصري في تلك الفترة وقف موقفاً عجيباً، فقد انقسم الى فريقين: فريق مؤيد للفاطميين، وفريق مؤيد للعباسيين، وكان من الطبيعي إزاء هذا الوضع أن يندلع القتال بين الفريقين، ولكن الجيش العباسي تمكّن من إخماده.

هذه الهزيمة التي تعرَّض لها الجيش الفاطمي لم تثنِ المهدي عن إعادة الكرة.. ففي سنة ٣٠٧ هـ، جهَّز حملة عسكرية ثانية أكثر عدداً وعدة، وزودها بالمؤونة والسلاح والعتاد، وعهد الى ولي العهد القائم بأمر الله مهمة قيادتها، فزحف من المغرب عبر طرابلس وبرقة، وتمكن في فترة قصيرة من الاستيلاء على الاسكندرية، والجيزة، والوجه البحري، وعندما علم الخليفة العباسي بهذا الهجوم جهَّز حملة ثانية قدر عدد أفرادها بستين ألفاً، وعهد بقيادتها الى مؤنس الخادم أيضاً فجاء الى مصر واشتبك مع الفاطميين في معارك طاحنة انتهت بهزيمة الفاطميين. هذا وقد أحرق «مؤنس» بعض مراكبهم وسفنهم التي كانت راسية في مياه بحر الاسكندرية، وهكذا عاد القائم بأمر الله الى المغرب دون أن يحقق أي تقدم، وحول هذه المعركة ذكر جعفر الحاجب الذي رافق المهدي في رحلته من سلمية الى المغرب كما ذكرنا القصة التالية:

عندما غادر عبد الله المهدي مدينة سلمية اصطحب معه مجموعة من الكتب كان يحرص عليها أشد الحرص، ويقول جعفر: بينما كنّا في طريقنا الى المغرب عند واحات «برقة» طلع علينا بعض اللصوص، فسلبوا منّا أشياء كثيرة، ومن جملتها الكتب المذكورة، وعندما رجع ولي العهد «القائم بأمر الله» من غزو مصر عرّج على المكان، وضرب حصاراً حوله، ثم قام بالتحريات بنفسه، وفتش عن الكتب، وعاد بها الى المغرب قائلاً: لو لم يكن من أمر غزوة مصر إلا استرجاع هذه الكتب، لكفانا نصراً.

وقد اعتبر بعض المؤرخين هذه الكتب أنها مجموعة «رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء» وهناك من قال غير ذلك.. والله أعلم.

وبين سنة ٣٢١ هـ وسنة ٣٢٤ هـ أعاد المهدي الكرة على مصر للمرة الثالثة، فجهز حملة وصفت بأنها أكثر عدداً وعدة وتنظيماً، وعهد

بقيادتها الى القائد الكتامي حبشي بن أحمد فتمكن في فترة قصيرة من الاستيلاء على أكثر مدن وقرى القطر المصري، مما دعا زعماء البلاد والشيوخ الى المثول بين يديه واعلان الطاعة والولاء... ومن الجدير بالذكر أنهم اتفقوا معه على توقيع معاهدة صلح معتبرين أنفسهم من رعايا الدولة الفاطمية، وبعد هذا الانتصار عادت اكثر جيوش الفاطميين الى المغرب سوى عدد ضئيل ظلَّ لحراسة المدن والمواقع، ولكن الإخشيديين تجندوا لمحاربة الفاطميين بعد ان امدهم العباسيون بالسلاح والأموال، فتمكنوا من قتل الجنود الفاطميين، وخلال فترة قصيرة أعادوا البلاد الى الحظيرة العباسية.. ومن الواضح أن أتباع الفاطميين في مصر لم يستطيعوا الوقوف بوجه الاخشيديين، فاستسلموا للأمر الواقع، وباتوا على مضض.

ومهما يكن من أمر فإن المحاولات الثلاث التي قام بها الخليفة المهدي لاحتلال مصر، وإن تكن قد منيت بالفشل، وأثقلت كاهل الدولة بالنفقات والأموال، فإنها لم تغير من أهداف الفاطميين أو تثنيهم عن التطلع الى مصر.

وقد ظلَّت هذه الأمنية تراود أفكارهم الى أن جاء الخليفة الفاطمي الرابع الامام المعز لدين الله فأرسل قائده الكبير جوهر الصقلي الذي حقق ما كان يتمناه أجداده، فبنى القاهرة وأقام جامعة الأزهر... وكل هذا سنذكره في موضعه.

«مصر الفاطمية» لبست مصر في عهد الفاطميين حلة الازدهار والثراء، ومثلت أدواراً مهمة في السياسة والحضارة، وفي الآثار التي خلَّفها الفاطميون الدليل الساطع على عظمة المظاهر التي أبدعها المجهود البشري العامل في سبيل النهوض بالقيم الإنسانيـة والحضارة والثقـافة الإسلامية.

هذا وقد أجمع المؤرخون الذين عايشوا تلك الفترة، أن بلاد الكنانة عاشت في كنف ذلك الماضي المجيد عيشة الرغد والسعة ممَّا جعلها حديث الركبان في العالم، بعد أن خرج بها الفاطميون الى مقام الأولية فجعلوها مركزاً للخلافة الإسلامية التي فاقت في عظمتها وأبهتها وحضارتها جميع الخلافات السابقة، وكأن الفاطميين ارادوا عندما أنشأوا القاهرة أن يجعلوا منها عاصمة كبرى تنبعث من

أرجائها طاقات جديدة يستعيد بها الإسلام قواه التي كانت تشكو الوهن والعجز بعد فتور بغداد وضعفها وقعودها عن قيادة الأمة الإسلامية.

وكانت مصر بموقعها الاستراتيجي مركزاً وسطاً بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب وعلى البحر الذي كانت ترصد منه مختلف التيارات.

لقد كانت القاهرة مركزاً سياسياً ومعقلاً لقوة جبَّارة تمثل البقاء والازدهار، فعن طريقها توزعت خيرات المشرق وذخائره نحو أوروبا والمغرب قبل وجود قنال السويس فلا غرابة اذا ما ازدهر اقتصادها وأصبحت محل اعتبار مختلف الدول الغربية جميعها وخاصة التجارية وفي الوقت نفسه كانت هدفاً للحملات وللمؤامرات الاستعمارية.

بعض المؤرخين يذكرون أن ازدهار الاقتصاد في مصر الفاطمية راجع الى الأموال التي نقلها الفاطميون(*) من المغرب، ولكنهم لم ينسوا الثروة الكبيرة التي تركها الإخشيديون، فضلاً عن الأموال التي كانت تتدفق من صقلية وهي الجزيرة الكبرى التي ظلت تابعة لمصر. لقد وضع الوزير يعقوب بن كلّس سنة ٣٦٣ هـ، برامج أو نظم جباية وضريبة ومكوساً على التجارة والصناعة، وعلى البضاعات التي ترد أو تمر بمصر فضلاً عن المراكب البحرية. من هنا كان الدخل العام يزداد يوماً بعد يوم وقد عمّ الازدهار كافة الجوانب، ودلّت تصرفات الخلفاء على البذخ والكرم والعطاء، وكل هذا ذكره صبح الأعشى والمقريزي ونستدل منه على ثراء مصر وازدهارها الاقتصادي، والزراعي، وقد مرَّ معنا أن الامام المعز لدين الله عمل على شق مساحات كبيرة من الأرض كانت بوراً بشبكة من الخلجان والترع والجسور، وجرت في عهده العادة بقياس نهر النيل لمراقبة فيضانه واتخاذ الاحتياطات المحكمة لتفادي المكروه، ورتبت الأرض حسب تربتها لتزرع بأنواع البقول والغلال الملائمة لها كما رتبت الزراعة لتكون المحاصيل موزعة على أيام العام الشتوية منها والصيفية،

(*) الإمام العزيز بالله عندما سار إلى بلبيس في طريقه إلى المشرق سنة ٣٨٥ هـ كان معه خمسة آلاف جمل على كل جمل صندوقان كبيران مملوآن اموالاً.

وعني الفاطميون بصورة خاصة بزراعة الفواكه من كرمة وتين وتفاح وتوت ولوز وخوخ ومشمش ونخل وموز وبالزهور والرياحين من ورد ونرجس وياسمين وفل وقرنفل كل ذلك على نسق وترتيب ما كانوا يعملون به في تونس.

ويقول المقريزي:

إن الإمام المعز لدين الله عمَّم زراعة الليمون «التفاحي» وكان يؤكل بدون سكر لقلة حموضته ولذة طعمه والليمون الشتوي، والليمون السائل، واستورد التصوب للتفاح من بلاد الشام وكان يسمَّى الشـامي وهو مضرب المثل.

وعني الفاطميون عناية فائقة بتوزيع مياه النيل على المزارعين توزيعاً عادلاً بحيث لا يحدث أي نزاع أو تجارة أو استغلال أو مادة للبيع والشراء، فقد وفَّر الفاطميون الانتفاع بمياه النيل بربط سدين هما: سد عين شمس، وسد سردوس، وكان يطلق على سد عين شمس «خليج أمير المؤمنين».

وذكر الرحالة ناصر خسرو:

بأن مصر في عهد الفاطميين كانت تنتج عسلاً كثيراً وسكراً. ومن جهة أخرى فقد كان لمصر في ذلك العهد ميزة في تربية الدواجن وخاصة في تربية الدجاج بالترقيد الصناعي على النحو المتعارف عليه اليوم، وهذه الطريقة لم يستعملها أحد غير المصريين.

أمَّا الصناعة المصرية فقد فاقت جميع الصنـاعات المعـروفة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وذلك لأن القاهرة بوصفها عاصمة الخلافة قد جلب إليها أمهر الصناع من مختلف العواصم التابعة لها، وذلك لدعم الصناعات المصرية. فمن المعروف مثلاً أن القائد جوهر عندما خرج من القيـروان الى مصر كان مصحوباً بنخبة من أهل الصناعات وأنفس النفائس من التحف المصنوعة في المنصورية في تونس، وعلينا أن ننعم النظر في الربعة الصغيرة البديعة الصنعة المحفوظة في المتحف الأثري بمدريد والتي تحمل كتابة مرصعة بالعاج تفيد أنها صنعت في صبرة المنصورية في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وقد كان يصنع مثلها المئات في القيـروان، لهذا يجب التمييـز في الآثار الفـاطمية بـين المغربي والمصري.

أما صناعة النسيج على اختلاف أنواعه فقـد ازدهرت في مصر وخاصة نسيج الكتان الرفيع الذي كان يصنع في الفيوم وتنيس

ودمياط، والمنسوجات الحريرية النفيسة والمنسوجات المذهبة للثياب المصنوعة بدبيق، وفيها أيضاً كانت تصنع كسوة الكعبة المشرفة. وكانت تصدر منها أقمشة رائجة في ذلك العصر موشاة ومطرزة بالذهب والفضة في زخارف وكتابات غاية في الجودة والروعة وتتضمن معلومات تاريخية من النفاسة بمكان.

وكان الخشب قليلاً في مصر لهذا فان السلطات المصرية الفاطمية كانت تستورده من لبنان ومن صقلية خاصة لصناعة السفن وتدعيم الأسطول المصري الكبير وفي عهد الإمام المعز لدين الله بني أكثر من ستمائة سفينة في دار الصناعة في المقس.

وعني الفاطميون بصناعة الجلود التي حذقوها، وقد استعملوها في تجليد الكتب وهكذا قل عن صناعة الزجاج وزخرفته وتحليته بالذهب والدهون، وامتاز بالرقة والجمال وهو نوعان مغربي ومصري وبينهما اختلاف بالشكل.

أمَّا الخزف فقد تقدمت صناعته في مصر تقدماً هائلاً وطلوه بالذهب، فكان منه الأقداح وعلب البخور والعطور، وكان لمصر الأولية في فن الترصيع والفسيفساء وصناعة الذهب والفضة وتحلية الأقمشة والسروج والسيوف والمصاحف وتجميل أواني النحاس والبرونز.

وكانت مصر الفاطمية مزدحمة بالأوروبيين الذين كانوا يحلون في فنادق على نسق القيسريات وهي شبه قلاع مخصصة للجاليات الأجنبية، وهؤلاء كانوا يأتون ببضائع من بلادهم ثم يتزودون من مصر بما يحتاجون.

إن موقع مصر في مفترق الطرق بين الشمال والجنوب، وبين المغرب والمشرق قد جعلها في المحور الرئيسي الذي كان يدور حوله دولاب التجارة العالمية. فكانت القاهرة «المعزية» نقطة التجمع للبضاعة الآتية إليها، وكانت المنطلق لترويجها وتوزيعها في البلدان الراغبة في اقتنائها، وذلك إما غرباً أو شمالاً. فهناك غرباً سلسلة من الموانىء تشتمل على الاسكندرية فبرقة فطرابلس فالمهدية، وكانت هذه من أعظم الموانىء المذكورة قبل وجود القاهرة منذ كانت المهدية عاصمة الفاطميين، وكانت السلسلة تمتد الى الأندلس عبر المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مؤلفة في ذات الوقت طريقاً بحرياً للحج الى بيت الله الحرام.

فهذا هو الباعث على هذا النشاط الاقتصادي والمحرك لتجوال السفن، وفي ذلك العصر كانت مصر تصدر الى قرطبة وبلنسية وغرناطة واشبيلية البضاعة الواردة إليها من المشرق، وكانت تشتمل على العطور والتوابل والقماري وخشب الساج والجوهر والياقوت والماس والعقيق والبخور وكانت السفن المصرية تعود حاملة الخشب الطرطوشي والفضة والزئبق وتتزود من المغرب بطريقها بالقمح والشعير والتمور والصوف والعسل وزيت الزيتون المشهور من صفاقس ومن الجزائر وتونس، وكانوا يأخذون المرجان والاسفنج والحرير والفواكه.

وكان لمصر علاقة مع الجمهوريات الإيطالية ومبادلات تجارية، كما كان لها علاقة جيدة مع النوبة فملوكها كانوا يكنون المودة للفاطميين فيرسلون إليهم أنواع الخشب والعاج والتبر والماس حتى إن الامام العزيز بالله كان يذهب اليها لاصطياد الأسود، فيستقبل استقبالاً رائعاً. وهكذا كان بالنسبة للمشرق كسوريا وفلسطين ولبنان.

الأسطول الفاطمي

تمتع البحر المتوسط منذ أقدم العصور بموقع جغرافي مهم، جعله مطمع كل قوة تريد لنفسها الحكم والسلطان . وعلى الرغم من هذا فلم تستطع أية قوة أجنبية أن تفرض الاستقرار والبقاء الذي تمتع به العرب على شواطىء هذا البحر.

هناك أكثر من حضارة قامت على شواطىء هذا البحر الكبير فازدهرت وبلغت الذروة، ثم أتى عليها الزمن، فاندثرت. وأصبحت أثراً بعد عين، وكانت الحضارة العربية نغماً خالداً بين أترابها، وما زالت أقدام العرب راسخة ممتدة الجذور إلى يومنا هذا في رقعة شاسعة تضم شواطىء الشام ومصر وأفريقيا، بما يعادل نصف

شواطىء المتوسط، ويعزى سر هذا الخلود إلى أن العرب اتخذوا أهبتهم لامتطاء أمواجه وفق خطوات منظمة بعيدة عن الفوضى منذ أن لامست أقدامهم مياهه في القرن السابع للميلاد حاملين راية الإسلام.

وسرعان ما اشتد عود الأسطول العربي الفتي، فهزم بحرية الروم، وانتزع منها سيادة البحر المتوسط الذي زالت عنه صفة «بحر

الروم» فغدا بحيرة تابعة للدولة الفاطمية، وهكذا تمكنت الدولة الفاطمية بفترة قصيرة أن تتبوأ المنزلة العليا في تاريخ البحرية العربية.

من المعلوم أن الفاطميين قضوا على «الأغالبة» وورثوهم ، ثم تحول الصراع إلى صقلية سنة ٢١٢ هـ أو سنة ٨٢٧ م، فأمست منذ ذلك الحين إحدى القواعد البحرية للانطلاق، ولما جاء الفاطميون حولوا الجزيرة إلى مركز للهجوم محاولين اكتساب مواقع جديدة فهم كانوا في صدد إقامة امبراطورية كبرى ذات قواعد برية وبحرية ومن الطبيعي أن يحتاج هذا إلى أسطول بحري وإلى موانىء لإنشاء المراكب. فاهتم عبد الله المهدي أول خليفة فاطمي في تونس بجزيرة صقلية ورأى أن الاحتفاظ بها قوية منيعة من أهم أهداف الدولة الفاطمية هذا فضلاً عن أن الجزيرة المذكورة فيها كنوز طبيعية مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص، كما أنها منطقة زراعية تنتج التفاح والجوز والفواكه الأخرى. وقد واجه الأسطول الفاطمي في بدء وجوده أسطولاً أندلسياً يحاول إزالة حكم الفاطميين عن أماكن عديدة، بعدما تبين أن طموحهم لا يقف عند حد، فما كان منهم إلا أن تحالفوا مع الروم للوقوف بوجه هذا المد، وقد ذكر التاريخ أن عبد الرحمن الناصر حسَّن علاقته مع صاحب بروڤانس الذي كان حاقداً على الفاطميين بسبب غزوهم موانىء جنوا ـ كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة قسطنطين الثامن سنة ٣٤٩ ـ سنة ٤١٩ هـ. الذي كان يأمل باسترجاع صقلية، بالإضافة إلى إرسال مراكبه إلى مصر لمحاربة أسطول الفاطميين، وتحسين علاقته مع الإخشيديين، ولكن خطط عبد الرحمن أخفقت

أما الحرب بين الروم والفاطميين فقد تميزت باستلام الفاطميين زمام المبادرة ومهاجمتهم للروم في مقر دارهم، فهذا عبد الله المهدي يرسل قائده «صابر الفتى» سنة ٣١٥ هـ على رأس حملة بحرية مؤلفة من أربعة وأربعين مركباً، فشنَّ هذا غارة كبرى على سواحل الروم ومدنهم فقتل وغنم وعاد سالماً ، ثم أعاد الكرة في السنة التالية فافتتح عدة موانىء واستولى على ما فيها وأجبر اصقاعاً أخرى على دفع الأموال، ثم أعاد الكرة سنة ٣١٧ هـ فالتقى بسبعة مراكب وهو في أربعة فهزم خصومه وهكذا فإن المهدي عبد الطريق لمن جاء

بعده. وتعتبر المعركة التي قادها يعقوب بن إسحق في آخر حياة المهدي من أشجع المعارك وفيها استولى على جنوى وسردينيا، وقد قال آدم متز عن اتصال الأسطول الفاطمي بالحوض الغربي للبحر المتوسط ما نصه:

«ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي، فقد كان بحراً عربياً، وكان لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه أمراً أن يخطب ود العرب كما فعلت نابولي وغيته وأمالفي».

وفي سنة ٣٢٢ هـ. استطاع أسطول الفاطميين في عهد المهدي أن يغزو جنوب فرنسا. وظل الاهتمام بالأسطول متواصلاً وخاصة في عهد الخليفة الثاني «القائم بأمر الله» ففي عهد هذا الخليفة تضاعفت الغارات على الموانيء الرومية. ويقول المؤرخ ابن خلدون:

وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون بأساطيلهم من المهدية جزيرة جنوا ويقفون بوجه الأعداء سادين عليهم الطرق».

فهذا النص يبين لنا مدى الدور الخطير الذي شغله الفاطميون في الدفاع عن الغرب الإسلامي.

أما في عهد المعز لدين الله فقد كان للبحرية الفاطمية شأن يذكر في بلاد المغرب ومصر، وقد ذكر التاريخ أن المهدية سوسة اتخذت موانيء لشن الهجمات على الروم، ويجب أن نذكر:

أن المعز لدين الله بفضل أسطوله، جعل غربي البحر المتوسط بحيرة فاطمية، وهذا الأسطول كان العامل الأكبر في انتصارات الفاطميين البحرية وتزويد قائده جوهر الصقلي بالإمدادات أثناء فتحه مصر. فإلى هذا الأسطول يعود الفضل في فتح مصر بأسرع وقت، فقد كان همزة الوصل بين جيوش جوهر الصقلي الغازية وبين المعز في المغرب، وفي حراسة هذا الأسطول كانت الإمدادات والمؤن تصل إلى جوهر في سهولة ويسر. ولهذا فإن الإمام المعز لدين الله اتخذ في بعض المدن المصرية دوراً لصناعة السفن فأنشأ في المقص دار صناعة ضخمة، ويبدو أن المعز لدين الله لم يهمل دار صناعة القسطاط ودمياط والإسكندرية.

مصر بالإضافة إلى أهداف الخليفة المعز لدين الله التي ترمي إلى التمركز في الشام واتخاذها ممراً للعبور إلى بغداد لهذا فإنه استولى على موانيء صور وعكا وعسقلان فحشد فيها الشلنديات والشواني

ولم يكن سبب بناء السفن في مصر خوف الفاطميين من غارات الروم والقرامطة على مصر والشام فحسب، بل كان أيضاً رغبتها في بسط نفوذها على البلاد التي قد يتخذها الأعداء طريقاً يغيرون منها على والمسطحات والطرادات والعشاريات والحراقات، وقد رأينا كيف اتخذ جوهر الصقلي من عكا وعسقلان مستودعات للإمدادات التي كانت تتدفق على جيوش الفاطميين في بلاد الشام. وقد قدرت المراكب الراسية في هذه الموانيء بستمائة مركب... ولكن هذا العدد انخفض في أواخر عهد الدولة الفاطمية إلى مائة قطعة.

وكان للأسطول الفاطمي أمير يدعى «قائد القواد» وقد سمي بذلك لأنه كان يرأس عشرة قواد، كما كان يطلق عليه «أمير الجيش»، وقد بلغ من عناية الإمام المعز ومن جاء بعده من الخلفاء، أن الخليفة كان ينفق عليه بنفسه، ويساعده وزيره - ولم تكن بحارة الأسطول في مرتبة واحدة، فهناك مراتب كبيرة وصغيرة، ولأصحاب المراتب،رواتب حسب درجاتهم. أما أمير الأسطول فكان من كبار الأمراء والأعيان وكان الخليفة يقطع رجال الأسطول إقطاعات عرفت باسم «أبواب الغزاة». وكان الخليفة يترك للبحارة الغنائم والمال والمتاع والثياب.

وعني الإمام المعز لدين الله بالأسطول التجاري الذي كان ينقل البضائع المصرية إلى البلدان الأخرى ثم يعود محملاً من هذه البلدان، وكان للفاطميين أسطولان تجاريان أحدهما في البحر المتوسط والآخر في البحر الأحمر، فكانت الإسكندرية ودمياط في مصر، وعسقلان وعكا وصور وصيدا في بلاد الشام من أهم الموانيء الفاطمية في البحر المتوسط، كما كانت عيذاب من أهم موانيء البحر الأحمر وكانت مزودة بأسطول حربي يقوم على الحماية.

النسب الفاطمي وأسطورة القدّاح

لست هنا في موقف الانتصار للإسماعيلية، ولا أرتضي أن أسند لنفسي مهمة الدفاع عنها، ولكنها الحقيقة تأبى عليّ الوقوف موقف الصامت من قضية يتمثل فيها الظلم والتجني والاستهتار، وأعني بها «أسطورة القداحيين» التي اعتمدها بعض المؤرخين، واتخذوا منها منطلقاً للطعن بأئمة الإسماعيلية ، والقول عنهم بأنهم من الفرس، وأحياناً من اليهود، وكأنهم لم يكفهم كل ما ألحقوه بهذه الأسرة، حتى قاموا أخيراً يتهمونها بالخروج عن الإسلام والعروبة.

وأمام هذا الواقع لابد من القول الآتي:

فرّ، محمد بن إسماعيل، الإمام السابع بنفسه من سيوف العباسيين، إلى بلدة تدمر فاتخذها دار هجرة ومبالغةً منه في التستّر على نفسه، انتحل اسم «ميمون» وعرف بالقدّاح، فكانت الأسطورة. ونحن ـ اتماماً للفائدة ـ نورد هنا،ما قاله بعض الباحثين من عرب وأجانب، في هذه المسألة:

فالمستشرق الفرنسي «سيلفستر دي ساسي»، جَانَبَ الهوى، فألقى بصيصاً من نور عندما استظهر مقتطفات دوّنها الشريف «أخو محسن العلوي الشيعي» المعروف بعمالته للعباسيين، ونقلها ابن النديم في الفهرست (الفن الخامس من المقالة الخامسة) ولكنه نسبها خطأ إلى ابن رزام، ولقد ناقش المؤرخ النويري في «نهاية الأرب» والمقريزي في «اتعاظ الحنفا» أقوال «أخي محسن» وخلصا إلى اعتبارها مغرضة، لا تتفق والحقيقة. قال دي ساسي:

«.. وحتى ولو صحّ أن عبد الله المهدي كان دعيّاً حقاً ولا ينحدر من صلب علي بن أبي طالب، فأن أبناء هذا الحقيقيين ، لم يعرف اليأس إلى نفوسهم سبيلاً، ولا فقدوا الأمل بحلول اليوم الذي يستخلصون فيه حقوقهم، ويفضحون فيه هؤلاء الأدعياء..» وأضاف «إن نسب الفاطميين لاحد اعقد مسائل الشرق واشدها غموضاً وإبهاماً، وفي يقيني أن كتّاب التاريخ في ذلك العصر، قد كتبوا ما كتبوه تحت وطأة الخوف من سطوة خلفاء بني العبّاس...».

وقال المستشرق «كاترمير»:

«على أن بعد الزمن، وما ساد العقول من اوهام، وما تسلّط على نفوس

الرجال من ميول ونزعات، فمنهم من كتب متأثراً بسلطان العباسيين، ومنهم من قام بهذا العمل، معاداة منه لهذه الأسرة وحقداً عليها ، وكل هذا أحاط مسألتهم بظلام دامس، وعلى الرغم من تباين آراء الكتاب الأقدمين، فإنني أميل إلى القول باطمئنان وثقة بأن إلحاق نسب الفاطميين بعلي وفاطمة صحيح لا غبار عليه».

ويعلق بعض المؤرخين على قصيدة الشاعر الكبير ، والفقيه العلوي الشريف الرضي التي أثارت وحركت أحقاد وحنق الخليفة العباسي «القادر» وقد نقل المؤرخ المقريزي عن هلال الصابي وابنه محمد بأن الشريف الرضي لم يودع هذه القصيدة ديوانه خوفاً من الخليفة العباسي، وذلك لأن فيها دعماً لنسب الفاطميين، ودليلاً على قرابته منهم، وهي على العموم وثيقة تاريخية دامغة تثبت قرابة الرضي من خليفة الفاطميين في مصر.

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقــول صــارم وأنــفٌ حمــيُّ
احمل الضيمَ في بلاد الأعادي ... وبمصرَ الخليفــةُ الــعلــوي
من أبــوه أبي ومــولاه مــولا ... يَ إذا ضــامني البعيدُ القصيُّ
لفّ عرقي بعرقــه سيدا النــا ... س جميــعــاً محمــدٌ وعــليُّ

أما المؤرخ ابن الأثير، فقد جعل لقصيدة الشريف الرضي هذه أهمية تاريخية كبرى فقال:

إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب، فلم يرتابوا في أن الفاطميين من أولاد علي وفاطمة.

ويأتي المؤرخ ابن خلدون ليدحض في مقدمته كافة الأقوال التي أنكر فيها الكتاب والمؤرخون صحة نسب الفاطميين فيقول:

«من الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين في العبيديين خلفاء الشيعة في القيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل (بن جعفر الصادق) يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم العداء».

أما المؤرخ المقريزي فيقول:

«فقد شدّد القول على هؤلاء القائلين بعدم صحة نسب الأئمة الفاطميين، فقد اعتبر في مراجعه عنهم بأن نسبتهم إلى القدّاح أسطورة سخيفة». ويضيف:

«وأن أئمة الإسماعيلية في «تدمر وسلمية» لم يكونوا معروفين لغير خاصتهم، وإن العامة لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء الأئمة، كما أن دعاتهم أنفسهم كانوا يختلفون قصداً في ذكر أسمائهم، وذلك لكي يحوطوهم في سياج من المنعة والتخفي».

كل هذا أوجد نوعاً من الاضطراب لدى المؤرخين، فبعضهم ذهب إلى القول بأن الإمام محمد بن إسماعيل هو ميمون القداح الديصاني واليهودي وبعضهم يقول بأنه تسمى بهذا الاسم (ميمون القداح) لأنه عمل في طبابة العيون متستراً، والمصادر الإسماعيلية تؤكد بأن ميمون القداح وابنه عبد الله كانا داعيين للأئمة.

لكن مصادر النوبختي والقمي والطبري وعريب بن سعد وغيرها من المصادر الموثوقة، لا تذكر على الاطلاق إن القداح كان على علاقة بالإسماعيلية.

الاسماعيلية في اليمن

بدأ النشاط الإسماعيلي في اليمن في عهد الإمام الحسين بن أحمد (الأهوازي) حينما تمكن من استقطاب منصور اليمن وعلي بن الفضل.. وكان قد التقى بهما في الكوفة أثناء عودتهما من الحج، وكانا يدعوان إلى الحسن العسكري إمام الشيعة الإثني عشرية.

كانت الجزيرة العربية في تلك الآونة نهباً للاضطرابات وفريسة الدعوات الجديدة والثورات الداخلية في قلب الدولة العباسية. كمعارضة العلويين المسلحة في بلاد الحجاز واليمن والدعوة السرية الإسماعيلية. التي كانت تهدف إلى قلب نظام الحكم السائد وتغيير الأنظمة الاجتماعية القائمة...

وقد كان لهذه الأحداث أثر بارز في مجرى الحياة الإسلامية العامة.. ومن الواضح: أنها عزلت بلاد اليمن عزلاً تاماً، وجعلتها مفككة الأوصال دون وحدة تجمع شمل الأقاليم والولايات التي أنهكتها المنافسات الداخلية والمذهبية، وأصبحت شبه مستقلة عن الدولة العباسية إدارياً وسياسياً، ولكن هذا الاستقلال ظلَّ مرتبطاً ببغداد دينياً، لأن الولاة كانوا لا يستغنون عن بيعة الخليفة وذلك لتثبيت سلطانهم. فكان «بنو زياد» في «زُبيد» وهؤلاء من ولد عبيد الله ابن زياد بن أبي سفيان وكان محمد بن زياد قد ولي اليمن من قبل الخليفة المأمون العباسي.

وكان «بنو يعفر» في صنعاء، وهؤلاء قامت دولتهم في اليمن في أواخر عهد المتوكل العباسي. وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالي. نائباً عن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي الذي كان والياً للخليفة العباسي المعتصم على نجد واليمن، ولما توفي عبد الرحيم خلفه ابن يعفر وهو رأس الدولة، وباعث استقلالها، واستمر أعقابه في صنعاء حتى سنة ٢٨٧ هـ. ويرجع نسبه إلى «التبابعة» من حمير، ثم إن بني يعفر دخلوا تحت سيادة «بني زياد» حيث استمرَّ حكمهم إلى حين إقدام أبي الجيش إسحق بن إبراهيم على خلع طاعة العباسيين سنة ٢٨٩ إلى سنة ٢٩١ هـ.

وظهر الإمام الزيدي المعروف بالهادي يحيى بن الحسين بن القاسم

الرسي سنة ٢٨٠ هـ، فنزل مدينة «صعدة» وتبعته قبائل عديدة كانت ميالة للتشيع بالفطرة.

وكانت اليمن في تلك الفترة مقسمة إلى ثلاث ولايات:
الزيادنة في زبيد، واليعافرة في صنعاء، والزيديين في صعدة، فأدّى ذلك إلى نزاعات وحروب متواصلة بين الولايات ، ومهد لظهور الطلائع الإسماعيلية على أرض اليمن، ونتيجة لهذا الظهور الذي تم على يد الداعيين منصور اليمن، وعلي بن الفضل. فلقد اضطربت الأطراف على عامل العباسيين «أبي الجيش» مما دفعه إلى المهادنة، وترك الأمور تجري على طبيعتها، فقد كان لموقع اليمن الجغرافي، وبعدها عن بغداد عاصمة الدولة العباسية ، واعتماد الإسماعيلية أساليب جديدة مذهلة في نشر دعوتها ومبادئها أثر ظاهر فيما تحقق من انتصارات.
ومهما يكن من أمر.. فإن الإمام الحسين بن أحمد الأهوازي عاد إلى سلمية ومعه منصور اليمن. وعلي بن الفضل، فوضعهما في مدرسة الدعوة حيث أكبا على الدراسة، وبعد أن أكملا تحصيلهما الإسماعيلي جهزهما الإمام الحسين وأرسلهما إلى اليمن ، وكان قد أعلن لهما بأنه يعلق على جهادهما الآمال بقوله:

«والله إن الفرصة ممكنة في اليمن، وإن الذي تدعون إليه جاهز هنالك».

ويقول منصور اليمن الذي قيل أنه ينتسب إلى «عقيل بن أبي طالب»:

وكان الإمام يخصني، ويقربني، ويرمز بقرب ظهور الأمر، ودنو النصر... وكثيراً ما قال لي: «يا أبا القاسم... البيت يماني... والركن يماني.. والكعبة يمانية... ولن يقوم هذا الدين، ويظهر إلا من قبل اليمن... يا أبا القاسم.. هل لك في غربة في الله.. فقلت: يا مولاي.. الأمر إليك، فما أمرتني به امتثله.. قال. اصبر كأني برجل أقبل إلينا من اليمن، وما لليمن إلا أنت. فقلت: سأستعين بالله على ما يرضيك».

وكان علي بن الفضل شاباً وسيماً ممتلئاً صحة ونشاطاً، ومن أهل بيت عرف بتشيعه، قد تجند لمرافقة منصور.. فأوصى الإمام الحسين منصوراً أن يكون لعلي رفيقاً صالحاً، وأخاً كريماً، وكرر له القول:

«إلى «عدن لاعة» اقصد.. وعليها اعتمد.. فمنها يظهر أمرنا، ومنها تعزّ دولتنا ومنها تفترق دعاتنا».

ثم أمره بالاستتار، والاعتماد على علم التأويل، واتخاذ التشيع

وسيلة لتحقيق الأهداف، وأن يقول بقرب ظهور «المهدي» وأن يجمع المال والرجال، ويلزم الصوم والصلاة والتقشف، وأن يعمل بالظاهر، ولا يظهر الباطن. وأوصاه أيضاً قائلاً:

«إذا ورد عليك ما لا تعلمه، فأسأل من يعلمه».

وقال عن علي بن الفضل لجعفر:

«إنه شاب قريب عهد بالأمر.. فانظر كيف تسوس أمره».

وقال لعلي عن جعفر:

إن هذا الرجل الذي نبعث به معك بحر علم. فانظر كيف تصحبه، واعرف له حقه، ولا تخالفه فيما يراه لك.

خرج الداعيان من سلمية إلى القادسية، وذلك في آخر سنة ٢٦٧ هـ. ويقول منصور:

«ودعت الأهل والأحبة متشوقاً إلى إقطاع الغربة.. فلما خرجت من القادسية أوجست خيفةً.. ولكني سمعت حادياً يقول:

يــا حــادي العيس مليــح الــزجــر
بشر مطــايــاك بضــوء الفجــر

فسررت واستحسنت ذلك الفأل لما سمعته، ثم وصلت مكة، ومنها تابعت مع علي بن الفضل، جنوباً حتى وصلنا سنة ٢٦٨ هـ، إلى بلدة «غلافقة» وكانت في ذلك الوقت بندراً لمدينة زُبيد على ساحل البحر الأحمر».

بعد وصول الداعيين إلى غلافقة افترقا، فاتجه منصور إلى مدينة «الجنَد» وكانت غايته «عدن لاعة». ولما وصل إليها سأل عن الداعي الإسماعيلي أحمد بن عبد الله بن خليع الذي كان فيها، فعلم أنه مات في السجن بعدما قبض عليه الأمير ابن يعفر، فنزل في داره وتزوج ابنته فيما بعد، وهذا يدل على أن الدعوة الإسماعيلية تسربت إلى اليمن منذ عهد الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل.

وعلى هذه الصفحات سنأتي بإيجاز على ذكر ما حققه الداعيان من فتوحات وانتصارات، وكيف انتهى أمرهما.

بعد عامين من وصول منصور اليمن، وابن الفضل، أصبح لكل منهما جماعة كبيرة تأتمر بأمره، وتخلص له أشد الإخلاص، وطبيعي في مثل هذه الأحوال أن يصبح هم كل منهما الحصول على الأموال الكافية لتنفيذ الأغراض، ونشر المبادىء والأفكار، والاستيلاء على

المراكز الهامة، والمواقع الحساسة، فأصدر منصور أوامره بجمع الأموال وفق الخطة المتبعة في المشرق لدى أئمة الإسماعيلية، وفعل علي بن الفضل فعله، وبعد فترة قصيرة تمكن منصور من احتلال «عبر محرم» ثم جمع جمعاً من رجاله، واستولى على جبل «الجميمة» كما هاجم «بيت ريب» وهو رأس «مسور» ثلاث مرات حتى استولى عليه، وكانت هنالك خطط مدبرة، وكان يسير من نصر إلى نصر.

عندما استولى على جبل «مسور» من أعمال صنعاء، كان معه ثلاثة آلاف محارب، فبنى في هذا الجبل حصناً، وجعله قاعدة لشن الهجمات على المواقع الأخرى واستمر في زحفه حتى استولى على بلاد «عيان» و «بني شاور» و «حملان» ثم على «ذخار»، وامتلك «شبام حمير» وجبل «كوكبان».. وهنا أقبل عليه الناس يدخلون في طاعته طوعاً أو كرهاً، فانضوى الكثير من بني يعفر وملوك حمير في الدعوة الإسماعيلية طائعين أو كارهين، وقويت في أرض اليمن هذه الدعوة المنظمة.

ولم يقف نشاط منصور عند هذا الحد، بل ارسل جيشاً لمساعدة «ابن الفضل» حين أحيط به قرب «تهامة»، وكان من أثر ذلك أن عاد «ابن الفضل» إلى قاعدته سالماً، وكان قد احتل «لحج» و «أبين» ودخلت قبائل «مذحج» في طاعته، وأخيراً احتل «المذيحرة» سنة ٢٩٤ هـ. ثم دخل حصن «التعكر» ومنه جاء إلى بلاد «يحصُب» فدخل «منكث» ثم هجم على صنعاء ودخلها لأول مرة سنة ٢٩٥ هـ. واستمر «ابن الفضل» في فتوحاته حتى دانت له جميع بلاد تهامة وزُبيد. وفي تلك الفترة كانت قد ظهرت بوادر غير مرتقبة في مركز الدعوة الإسماعيلية في سلمية، فتسلَّم شؤون الإمامة «عبد الله المهدي» الذي وضع ثقته بمنصور دون ابن الفضل، وخصه بعاطفته وثقته. واناط به تعيين الدعاة في الأقاليم، واعتبره المسؤول الأول عن الدعوة في اليمن، وقد كان هذا من الأسباب الرئيسية التي حفزت ابن الفضل على الخروج ثم الدخول في حرب مع منصور.

كان ابن الفضل يظهر التقشف، والورع، والتقوى في حياته، فكان يصوم نهاره ويقوم ليله ، فأنس إليه وأحبه كل من عرفه، وقلدوه أمرهم، وجعلوه حكماً بينهم، حتى أن بعض أتباعه جاؤوا إليه مرة

يطلبون منه أن ينزل من حصنه في جبل «سرو يافع» ليسكن بينهم. فقال:

> «لا افعل هذا، ولا أسكن بين قوم جهال، إلا بعد أن يعطوني العهود والمواثيق ألا يشربوا الخمر».

ففعلوا ذلك، وأقسموا له على الطاعة، وأن لا يخالفوا له أمراً.. وهكذا وعدهم خيراً ولبىَّ مطلبهم.

وكان ابن الفضل رجلاً ذا شخصية بارزة ، وقائداً بارعاً، وحاكماً ناجحاً، فخوراً بقحطانيته. حكيم السياسة في السلم والحرب مع شهامة وإقدام وكرم وحماية للمظلوم، ونصرة الحق، فلم يستطع «منصور» أن يقلل من نفوذه ، أو يعزله عن الدعوة ـ أو يطرده من اليمن، على الرغم من وقوفه على ميوله الاستقلالية وعلمه بطموحه وتطرفه في الحكم، ومبالغته في قحطانيته، وإنه تعدَّى حدود الدين حتى أبت عليه عزة نفسه الرضوخ لأحد أو الدخول تحت حكم أحد.

بيد أن رئاسة الدعوة في سلمية كانت بجانب منصور، فرأت أن ابن الفضل قد نكث بالعهد، واستهواه الشيطان وأضلَّه. فخرج من الدعوة، وافترى على الله وأوليائه، واقتدى بالمضلين من قبله، واستمال الجهال، فكانوا له من الأنصار والاتباع، وارتكب المحارم، ومال إلى الإباحات، وكفر بعد إيمانه.

أما منصور فقد ظلَّ على ولائه حتى آخر يوم من حياته يتلقى الأوامر من أئمته، ويستعين بإرشاداتهم قائماً بواجباته، ولم تكن تخفى عليه نيات رفيقه ابن الفضل الذي اتخذ خط المخادعة والمماطلة حياله.. بقوله: «إنما أنا سيف من سيوفك»، ولكن هذا لم يقنع المنصور ، ولم يذهب من قلبه التخوف من المستقبل، ولكن كان عليه أن يداريه، لأنه كان يخشى انهيار البنيان الكبير الذي بناه، والدليل أنه اجتمع إليه سنة ٢٩٩ هـ. بعد استيلائه على صنعاء، فأظهر فرحه وقال له:

> «يا ابن الفضل... لقد ملكنا اليمن بأسره، ولم يبق منه إلا القليل، فعليك بالتأني، والوقوف في صنعاء سنة كاملة، وأنا في «شبام» فليصلح كل واحد منا ما فتحه، وبعد ذلك يكون لنا نظر آخر».

ولكن ابن الفضل لما وصل إلى هذا الحد حدثته نفسه في تكوين دولة مستقلة في اليمن، فكتب إلى منصور يقول:

«إذا أنت لم تنزل إلي، وتدخل في طاعتي، نابذتك الحرب».

فأجابه المنصور يعاتبه، ويذكره بالعهود والمواثيق التي أخذت عليه، كما ذكره بخطر الانقسام قائلاً: «كيف تخلع طاعة من لا يوجد خير منه»... فأجابه ابن الفضل: «إنما هذه الدنيا شاة، فمن ظفر بها افترسها»...

ومن الجدير بالذكر أن منصوراً تابع إرسال الرسل إليه يذكره، وينهاه، ولكنه ظل على تماديه في غيه متباهياً بإصراره فكان ذلك فاتحة الصراع بينهما، والإنذار الأخير لمنصور بأن يستعد للقتال، وكان لابد له من ملاقاة الصدمة، والدخول مرغماً في حرب جر إليها جراً في وقت كان عبد الله المهدي قد استقر فيه بالمغرب، وأعلن قيام الدولة الفاطمية، ولكن المؤسف أنه كان عاجزاً عن إرسال أية مساعدة لمنصور وهو في موقف يحتم عليه بناء الدولة الحديثة، وإطفاء الثورات الداخلية التي هبت في أنحاء المغرب في وجهه.

وأخيراً:

حصّن منصور مواقعه، ونزل إلى ساحة القتال ضد رفيقه ابن الفضل، وفي الأيام الأولى تمكّن من الاستيلاء على «شبام حمير» وحاصر بلدة «المظلمة» حيث كان ابن الفضل وأتباعه، فقطع عنهم الزاد حتى أصابهم الجوع الشديد... ولكن ابن الفضل تمكن من الإفلات، وعاد إلى صنعاء فامتلكها ثم زحف باتجاه مواقع منصور فحاصره ثمانية أشهر، وعندما طلب منصور الصلح قال له ابن الفضل:

«لست أبرح وقد علم أهل اليمن قصدي من محاصرتك إلّا بعد أن ترسل إليّ بعض أولادك فيكون ذلك لي مخرجاً عند الناس، ويعلمون بذلك أنك قد دخلت في طاعتي».

فأرسل منصور إليه ولده. وعندئذٍ عاد ابن الفضل إلى «المذيخرة»، وأقام عنده ابن منصور مدة عام، وبعد ذلك رده إلى أبيه، وهذا العمل لم يفض النزاع بل زاد هوة الخلاف اتساعاً، مما مهّد لقيام ثورة يمنية ضد الفريقين. وفي خاتمة المطاف، لم يستطع ابن الفضل تحقيق أهدافه وظلّ في كفاحه وحروبه حتى مات مسموماً سنة ٣٠٢ هـ، بيد أحد الأطباء المأجورين، وبعد وفاته، زحف الأمير أسعد بن أبي يعفر إلى صنعاء، وحارب أتباعه وقتلهم واحداً واحداً، ثم قطع رؤوس أكثرهم، وأرسلها إلى مكة فعرضت في موسم الحج.

أمَّا منصور اليمن فظلَّ مقيماً على عهده للفاطميين، ولكن الحروب الداخلية مع ابن الفضل انهكته فالتجأ إلى «مسور» وأقام مع أتباعه في الأماكن النائية، وفي ظل الستر والتقية، حتى وافته المنية سنة ٣٠٦ هـ.

بعد وفاة «منصور» قام ولده الحسن، وأعلن عن نفسه بأنه الداعي الأكبر بعد والده، وكان والده قد أوصى لعبدالله الشاوري، فطلب حسن من الخليفة الفاطمي عبدالله تعيينه مكان أبيه، ولكن الخليفة المهدي رفض طلبه، وعيَّن الشاوري الذي تتلمذ ودرس على منصور. وهذا التعيين حفز الحسن بن منصور على اعلان العصيان أولاً، ثم قتل الشاوري، وجرَّد جيشاً كانت مهمته القتل والتدمير والظلم، وهذا الخروج شجع الأعداء، فجاؤوا إليه وقتلوه، وأبادوا جميع أفراد أسرته، فلم ينج منهم إلاَّ ابن منصور الثاني «جعفر» الذي فرَّ إلى القيروان واستقر فيها تحت لواء الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله.

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

فهرس الأماكن

فهرس القبائل والعائلات والفرق

ز

س

ش

ص

ط

ع

ف

ق

ك

م

ن

هـ

ي

المصادر

المصادر العربية

ابن سينا في موانع اخوان الصفاء ـ عارف تامر.
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ المقريزي
اثبات النبوأت ـ السجستاني ـ عارف تامر.
أخبار مصر ـ المسبحي.
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ـ ابن حمّاء القاضي.
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ـ فوندر.
أروى بنت اليمن ـ عارف تامر
أساس التأويل ـ النعمان بن حيُّون ـ تحقيق عارف تامر.
استتار الأمن ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
أعيان الشيعة ـ محسن الأمين العاملي.
افتتاح الدعوة «النعمان بن حيُّون» تحقيق وداد القاضي.
الإمام المستنصر بالله الفاطمي ـ عبد المنعم ماجد.
البيان المغرب في أخبار المغرب ـ ابن عذاري.
تاج العقائد (علي بن الوليد) تحقيق عارف تامر.
تاريخ أخبار القرامطة ـ ثابت بن سنان وابن العديم.
تاريخ الاسلام السياسي والديني ـ حسن ابراهيم حسن.
تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ـ طه أحمد شرف.
تاريخ جوهر الصقلي ـ علي ابراهيم حسن.
تاريخ الرسل والملوك ـ الطبري.
تقويم البلدان ـ أبو الفداء.
تميم بن المعز لدين الله ـ عارف تامر.
ثورة القرامطة الاشتراكية ـ عارف تامر.
جوهر الصقلي «القائد» ـ عارف تامر.
الحاكم بأمر الله ـ عارف تامر.
الحاكم بأمر الله المفترى عليه ـ عبد المنعم ماجد.
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ـ محمد عبد الله عنان.
حركات الشيعة المتطرفين ـ محمد جابر عبد العال.
حضارات الاسلام ـ جوستاف فون جرونبوم.
دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ عبد العزيز الدوري.
دعائم الاسلام (النعمان بن حيُّون) تحقيق آصف فيضي
دولة النزارية ـ طه أحمد شرف.
راحة العقل والكرماني ـ محمد مصطفى حلمي ومحمد كامل حسين.

الرياض ـ (الكرماني) ـ تحقيق عارف تامر.
سيرة الاستاذ جوذر الكاتب ـ محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة.
سيرة جعفر الحاجب ـ (اليماني) مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
شرح ديوان ابن هانيء الأندلسي ـ عارف تامر.
صلة تاريخ الطبري ـ غريب بن سعد.
الصليحيون في اليمن ـ حسين همذاني.
عبقرية الفاطميين ـ محمد حسن الأعظمي.
عبيد الله المهدي ـ إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية ـ حسن ابراهيم حسن.
العزيز بالله ـ عارف تامر.
العصر العباسي الأول ـ شوقي ضيف.
العصر العباسي الأول ـ عبد العزيز الدوري.
عيون الأخبار ـ ادريس عماد الدين.
الغزالي بين الفلسفة والدين ـ عارف تامر.
الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية ـ عبد الله سلوم السامرائي.
الفاطميون في مصر ـ حسن ابراهيم حسن.
الفرق بين الفرق ـ الإمام أبو منصور البغدادي.
فرق الشيعة ـ النوبختي.
فصول وأخبار (مخطوط ـ نور الدين أحمد).
في أدب مصر الفاطمية ـ محمد كامل حسين.
القرامطة ـ عارف تامر
كتاب البلدان ـ اليعقوبي.
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ـ الحمادي اليماني
كنوز الفاطميين ـ زكي محمد حسن.
لمعة من أخبار المعز ـ مؤلف مجهول.
المجالس المستنصرية ـ الداعي ثقة الإمام.
المجالس والمسايرات ـ النعمان بن حيُّون.
المجلة الذهبية ـ علي محمد جبارة.
مروج الذهب ـ المسعودي.
معجم البلدان ـ ياقوت الحموي.
المعز لدين الله ـ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف.
المعز لدين الله ـ عارف تامر.
الملل والنحل ـ الشهرستاني.
الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين ـ عارف تامر.
المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ـ محمد كامل حسين.
الناصر لدين الله ـ سيمون حايك.

نزهة الأفكار ـ ادريس عماد الدين.
النظم السياسية ـ حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن.
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ـ محمد جمال سرور
نور مبين قبل الله المتين ـ علي محمد جبارة.
الهمة في آداب اتباع الأئمة ـ محمد كامل حسين.
وفيات الاعيان ـ ابن خلكان.

المصادر الأجنبية

A Short History of the Fatimid - Khalifate - London 1923.
A Guide to Ismaili Literature - W. Ivanow - London 1934.
A Chronological List of the imams and Dais of the Monstalian Ismaïlis. "Fyzee - Asaf" Royal asiatic Society - London 1934.
A Compendium of Ismaili es oteries Islamic Culture. H. Hamdani - 1937.
Cadi an-Numan (J.B,R,A,S) Asaf Fyzee - London 1934.
Cairo - Jerusalem and Damascus - Margoliotte - Oxford 1907.
Essai sur l'histoire de l'islamisme - Dozy. R.P.A. - Paris 1879.
Essai sur l'histoire des Ismaeleens de la perse Defrenery M.C. - Leyden.
Etudes sur la Conquete de l'Afrique par les Arabes - H. Fouruel - Paris 1881.
Esquisse d'une bibliographie Carmathe. L. Massignon - Cambridge 1922.
Enguëte au pays du Levant. M. Barres - Paris 1924.
Fragments relatifs a la doctrine des ismailis. S. Guard - Paris 1874.
Ferishta - Mohamed Kassim - (history of the rise of the Mughal) Power of India. 4 vol. translated by. John Briggs - London 1928, and - Cambridge - History of India 111 pages or Big. Si Tahr.
A forgotten branch of Ismailis' - W. Nanow - J.R.A.S. 1938.
Geschichte des Fatimids Caliph. Gottingen, 1881.
Histoire des Muslumans d'Espagne.
Histoire de L'ordre des Assassins - Hammer - Paris 1833.
Literary History of Persia - E. Browne. G. - London 1909.
Les siècles obsucres du Maghreb - Paris 1927.
Le Dogme et la loi de L'islam - Paris 1920.
La fin de L'empire des Carmathe du Bahrein. De Geoje M. - Leyden 1895.
Literary History of the arabes - Nicholson - Cambridge 1930.
Mémoires sur les Carmathes du Baherein et les Fatimides - D. Geoje M. - Leiden 1886.
Some unknown Isamaïli authors and their works. H. Hamdani 1933.
Mémoires historiques sur la Dynastie de Khalifs Fatimid's - Paris 1836.
The preaching of Islam. A. Thomas - London 1935.

The rise of the Fatımids - Calcuta - W. Ivanow 1942.
The Karmathians - De Goeje - 1895.
The Ismailian Low of Muta - Assaf - Fyzee - London 1929.
The origins of Ismailism . B. Lewıs - Cambridge 1940.
The story of Cairo - Lane poole - London 1912.
On the Geneology of Fatimid Caliphs. - H. Hamdani Cairo 1958.
The Quddahid Legend - A. Hamdani 1963.
The Shia of India .. J. N. Hollister.

